مجلة
المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام - دولة قطر

المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع العدد على نفقة وزارة الاعلام - دولة قطر

العدد التاسع

محتويات العدد

مقدمة

ان النجاح الذي احرزته مجلة المؤرخ العربي في مجال البحث التاريخي ، مما شجعنا على المضي قدما في تطوير هذه المجلة التي اتسمت بالروح الموضوعية وجعلها ابدا اثبت المجلات التاريخية وارصنها في تقديم المواضيع التاريخية ومعالجتها بالتحري والدقة وبحيث تكون هذه المجلة من الوثائق المعتمدة وتعتبر من مصادر الدراسة والبحث في الميدان التاريخي .

ان هذا العدد التاسع من مجلة المؤرخ العربي والذي يسهم في اعداده وتحريره نخبة من المؤرخين والباحثين العرب يعطي الدليل الواضح على نجاح اتحاد المؤرخين العرب في توثيق أفضل الصلات بين المؤرخين في الوطن العربي ، وتفاعله معهم تفاعلا ثقافيا يحقق الاهداف التي أقيم من أجله اتحادهم العتيد .

ان مجلة المؤرخ العربي صورة حية للفكر التاريخي العربي ورمزا لوحدة المؤرخين العرب . وبكل اعتزاز وفخر اقدم للقارىء الكريم هذا العدد الجديد طافحا بالافكار السامية والآراء البناءة التي قدمتها هذه البحوث الرصينة .

والله أسأل ان يحقق أهدافنا كاملة من أجل الحفاظ على تراثنا وكتابة تاريخ امتنا بالقلم النزيه وبالروح النبيلة وبالصفة العلمية وبذلك تبرز الجوانب المشرقة من تاريخنا القومي ، تاريخ الامة العربية المجيدة ، والله ولي التوفيق .

الدكتور حسين امين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

الفلاسفة المسلمون الأوائل وأثرهم في التراث الفكري

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد

امتاز الفلاسفة المسلمون بتفكيرهم الخالص النابع من ذاتهم ، وبابتكاراتهم الصادرة من عقليتهم التي اعتمدت على التفكير المنسق ، واننا اذ نحاول توضيح جوانب الفلسفة الاسلامية واصولها نعتقد ان الفلسفة الاسلامية برمتها طابعا مميزا وواضحا للحضارة الاسلامية ، ففي مناهج البحث الفلسفي الاسلامي والآراء القيمة التي قدمها الفلاسفة المسلمون تعبيرات صادقة للتقدم العلمي الذي وصله المسلمون في القرون الوسطى. ولكي تتبين الجانب الأصيل في الفلسفة الاسلامية لا بد من أن نعرض لموقف الاسلام من مختلف الثقافات الفلسفية التي تكون دائرة معارفهم في تلك الناحية ، وتلك الثقافات يمكن حصرها :

أ ـ الفلسفة الارسطوطاليسية الممزوجة بالافلاطونية المحدثة ، وقد تناول هذه الفلسفة بعض الأوائل من المسلمين بمنهج تنسيقي ، وحاولوا في ضوئه التوفيق بين مختلف المذاهب اليونانية ، واصطنعوا في هذا كل وسيلة ممكنة .

ب ـ التصوف الاسلامي ـ وهو يشمل مجموعة مختلفة من التفكير اليوناني وخاصة الافلاطونية المحدثة ، والتفكير الشرقي وامشاج من المسيحية والاسلامية ويسمى أصحاب تلك المحاولة صوفية الاسلام .

ج ـ علم التوحيد ـ او علم الكلام او علم اصول الدين . ويسمى اصحابه بالمتكلمين او متكلمي الاسلام .

د ـ علم اصول الفقه ـ وهو ادراك القواعد التي نتوصل بها الى استنباط الاحكام الشرعية الفرعية عن ادلتها التفصيلية ، أو هو نفس القواعد الموصلة بذاتها الى استنباط الاحكام وبمعنى أدق هو منهج الفقه او منطقه مقابلا في ذلك لمنهج الفيلسوف ويسمي أصحابه بالاصوليين ، أو علماء اصول الفقه .

ولا شك فان الفلاسفة المسلمين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الفلسفة اليونانية ولكنهم وفقوا الى بعض الابتكارات والتجديدات في ابحاثهم الفلسفية .

والنزاع بين الاسلام والفلسفة اليونانية بدأ منذ اللحظات الاولى التي دخلت فيها تلك الفلسفة في العالم الاسلامي ولكن النزاع بين الاثنين استمر امدا طويلا لم تخمد جذوته حتى بلغ أوجه حين اعلن الغزالي تكفير فلاسفة الاسلام أنفسهم باسم الاسلام .

ويبدو انه كان لا بد من اختلاف الطبيعتين ـ فالاسلام وضع من أوضاع الحياة العملية ، بينما الفلسفة ، بحث مطلق في الوجود من حيث هو وجود ، كانت الفكرة الشائعة ان حركة اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية انما بدأت في عصر العباسيين ، ولكن يبدو ان اتصالا حقيقيا نشأ في العالم الاسلامي اتصل فيه المسلمون بالفلسفة اليونانية في العقود الاسلامية الاولى ، فقد ذكر ابن كثير ان علوم الاوائل انتشرت في العالم الاسلامي في القرن الاول الهجري ، والمقصود بعلوم الاوائل الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرها من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامي ، ويذكر الفيلسوف الشيرازي في كتاب الاسفار الاربعة ـ عن المطارحات للسهروردي (ان المتكلمين الاوائل في عهد بني امية عرفوا الفلسفة اليونانية ، ولكن ليست من ذلك النوع المشائي الذي عرفه

المسلمون بعد) ويقول ان هؤلاء المتكلمين أخذوا تلك القواعد اليونانية التي عرفوها وجعلوها اساسا لفلسفتهم ، ومن المحتمل ان يكون قد وصل الى المتكلمين في العصر الاول عن طريق مناقشات شفوية مع آباء الكنيسة، أو عن طريق كتب نقلت بعض قواعد الفلسفة الرواقية .. والرواقية ، فرقة من الفلاسفة القدماء منسوبة الى الرواق الذي تحته كان يعلم زينون الذي انشأها أواخر القرن ٤ ق.م. وتنقسم الفلسفة في نظرهم الى المنطق والطبيعة وعلم الاخلاق وهو الاهم . الحكم يخضع لناموس الكون ولا يفصلون العناية الالهية عن القضاء ، ولا يميزون بين المادي والروحي.

وكانت لحركة الترجمة الآثار البعيدة في تعرف المسلمين على كتب الفلسفة اليونانية وأفكار اليونانيين الفلسفية ، وقد عرف المسلمون المعلومات الكافية عن طاليس وانكسمندريس وانكسمانس وفيثاغوراس وانكساغوراس وديموقريطس ، كذلك كانت لهم معرفة واسعة بأفكار سقراط وافلاطون وارسطو أشهر فلاسفة اليونان عند المسلمين .

١ ـ الكندي ـ ولد حوالي سنة ١٨٥ هـ ٨٠١ م ، وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ، نسبة الى كندة القبيلة العربية العريقة التي كان أصلها في أرض اليمن ، وقد نزح منها بطون الى بعض الأقطار فكان لها فروع في العراق والاندلس وبلاد الشام ، ومن اجداد الكندي ، قيس ابن معدي كرب والاشعث بن قيس الذي ينتهي اليه نسب الكندي في الاسلام . ونسبة في الاسلام هو يعقوب بن اسحق بن الصباح بن عمران ابن اسماعيل محمد بن الاشعث بن قيس ، وكان ابوه اسحق بن الصباح شاعرا واميرا على الكوفة في عهد المهدي والرشيد ، واختلفت الروايات عن نشأة الكندي وحياته فقد ذكر بعضهم انه ولد في البصرة ، وقال غيرهم انه ولد في الكوفة عند ما كان ابوه واليا عليها وسواء أكان مولده في البصرة أو الكوفة فهو عراقي المولد والنشأة عربي الثقافة مسلما وتعلم في صغره القراءة والكتابة ودرس القرآن الكريم وعلوم الدين والفصاحة، وقصد بغداد عاصمة الدولة العباسية التي كانت في أيامه مشعلا للعلوم

ومأوى العلماء وملاذ الادباء والكتاب والشعراء وموطن المصنفين والمترجمين ، واقبل يعقوب الكندي على خزائن الكتب في مدارس ومساجد وقصور بغداد وفي بيوت علمائها واعيانها اقبالا عظيما ينتهل من الكتب الوفيرة التي عجت بها بغداد ما كان منها مترجما عن اليونانية والأرامية والفارسية فضلا عن المصنفات العربية الكثيرة في شتى العلوم والمصارف . وأصبح الكندي صاحب اعظم شهرة وأرفع ذكر وأبقى أثر من جميع بني كندة في حياته وبعد وفاته فهو بالاضافة الى المناصب المهمة التي اشغلها في دولة بني العباس خصوصا ايام المأمون والمعتصم كمترجم ومنقح فقد كان منصرفا الى التأليف وترك مئات المؤلفات في شتى العلوم والفنون ، قال عنه ابن النديم « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها » وقال صاعد الاندلسي : « انه لم يكن في الاسلام من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفا غير يعقوب » . وقال ابن ابي اصيبعة ، حذاق الترجمة في الاسلام اربعة حنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق الكندي وثابت بن قرة وعمر بن الفرحان الطبري .

لقد خاض عالمنا الكبير حقولا شتى من المعرفة وتناول بالتأليف مواضيع مختلفة في علوم الطب والكيمياء والحساب والمنطق والادب والهندسة والعلوم النفسية والسياسية والجدلية وعلمي الفلك والنجوم ووضع الالحان الموسيقية وغير ذلك من البحوث التي تناولت تقلبات الجو والبرد والثلج والضباب والرعد والبرق والصواعق واختلاف الأزمنة والابعاد المتعلقة بالاجرام ومسافات الاقاليم ورؤوس الجبال وبعد مركز القمر عن الأرض والاحجار الكريمة والسيوف والزجاج والالوان والمد والجزر وغيرها كثير .

وكان عالمنا على جانب كبير من الثقافة والفلسفة اليونانيين وكان متمكنا من اللغة اليونانية ، وقد أحصى ابن النديم مؤلفات ومترجمات الكندي بـ ٢٤١ مؤلفا . وقد نشر الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة مجلدين تضمنا خمسا وعشرين رسالة من مصنفاته وسمها

ب ـ (رسائل الكندي الفلسفية) ، وقد ترجم بعض المستشرقين بعض مؤلفات الكندي الى اللغة اللاتينية والالمانية وغيرها من اللغات الاجنبية •

ويذكر القفطي في كتابه اخبار الحكماء ان للكندي ٢٤ مؤلفا في الطب منها كتاب الطب الروحاني ، كتاب الطب البقراطي ، كتاب في الغذاء والدواء . كتاب الابخرة المصلحة للجو من الاوباء ، كتاب كيفية الدماغ ، كتاب في علة نفث الدم كتاب في وجع المعدة والنقرس ، كتاب علاج الطحال ، وغيرها من الكتب التي كان لها الاثر الكبير في تقدم الطب وانتشار علومه في القرون الوسطى •

والكندي يعتبر رائد الحقيقة ، فقد كان يقدس الحق والعلم والعناية بهما ويعتبرها من المميزات الأساسية للاسلام وللروح الاسلامية ، ويعبر الكندي في رسائله عن شكره لكل من جاء بشيء من الحق مهما كان يسيرا ، لأن معرفة الحقيقة ثمرة تضامن الاجيال الانسانية في عصور متطاولة ويذكر الاستاذ دى بور في كتابه تاريخ الفلسفة في الاسلام (كان الكندي واسع الاطلاع في جميع العلوم وقد تمثل كل ما كان في عصره من علم ، وآراؤه في المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة) • ومن الجائز ان اعتبار الكندي من مؤيدي المعتزلة او من الباحثين في بعض اصولهم فمن المواضيع التي كتب فيها الكندي العدل والتوحيد ، وان هذين الموضوعين هما من اصول المعتزلة ، كما انه رد على الملحدين وغيرهم من الذين كان المعتزلة يعارضونهم ويشددون الكلام عليهم ، كما انه كان متصلا ببعض الخلفاء العباسيين من الذين كانوا يؤيدون المعتزلة •

والكندي ينظر الى الفلسفة نظرة غيرية ونظرة ذاتية :

النظرة الغيرية وفيها يحاول ان يتبع كبار الفلاسفة ليستفيد من كتاباتهم وما يعنون بكلمة فلسفة • اما النظرة الذاتية ، وفيها يحاول ان يقدم لنا تحديدا شخصيا يستقيه من تعاليم افلاطون وارسطو ، وهو بهذا يقول عن الفلسفة انها (علم الاشياء والحقائق بقدر طاقة الانسان) وقد

اضاف الكندي ان في علم الاشياء بحقائقها علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة ومن ثم يكون غرض الفيلسوف نظريا وعلميا • فاما الغرض النظري فاصابة الحق ، واما الغرض العملي . فالعمل به ، وطريق الفلسفة هي (محبة ونظام ونور وتمجيد لقوى العقل والقلب واذا وصل الفيلسوف الى هذه الدرجة أصبح معدا لقبول المعارك التي تهيئه للقيام بوظيفته) أي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ــ وقد طبق الكندي الرياضيات في ابحاثه الطبية في نظريته المتعلقة بالادوية المركبة والواقع انه بنى فعل هذه الادوية كما بنى فعل الموسيقى على نسبة المتوالية الهندسية المتضاعفة ، والامر في الادوية أمر تناسب في الكيفيات المحسوسة وهي الحار والبارد والرطب واليابس ، ويظهر ان الكندي عول على الحواس ولا سيما حاسة الذوق في الحكم على هذا الامر وقد اعتبر كاردان وهو أحد فلاسفة عصر النهضة لقوله بهذه النظرية واحدا من اثني عشر مفكرا هم أنفذ المفكرين عقولا •

ويتفق رأي الكندي مع آراء الفلاسفة الاغريق في نظرية المعرفة والتي تقوم على ركنين أساسيين المحسوس والمعقول ، ويقول الكندي ان معارفنا اما ان تكون حسية واما ان تكون عقلية ، اما ما بين قوتي النفس الحسية والعقلية وهي القوة المتخيلة أو المتصورة ، فتسمى عنده قوة متوسطة ، فالحواس تدرك الجزئي او الصورة المادية على حين ان العقل يدرك الكلي ويدرك الأنواع والأجناس ، أي الصورة العقلية وكما ان المحسوس في النفس هو الحس فكذلك المعقول هو والعقل شيء واحد ونظرية العقل من النظريات التي تتميز بها الفلسفة الاسلامية •

وقد حاول الكندي التوفيق بين الفلسفة والدين ، وقال ان الفسفة علم الحق والدين ، وفي رأيه ان الذي يتنكر للفلسفة انما يتنكر للحقيقة وهو من ثم كافر • ورأيه في حدوث العالم يختلف عن رأي ارسطو وفي ذلك يتبع تعاليم الدين الاسلامي ويجاري آراء المتكلمين في عصره وبرهان الكندي قائم على تحديد معنى الزمان والحركة فهو يثبت ان كل ما في العالم متحرك والحركة هي تبدل الأحوال •

وكان الكندي قد أثر تأثيرا كبيرا في الحياة العقلية الاسلامية فقد كان هذا العالم معلما ومؤلفا بلغ من الشهرة حدا بعيدا ، وكان تأثيره الكبير عن طريق مؤلفاته القيمة في علوم الرياضيات واحكام النجوم والجغرافية والطب وكان من أنبغ طلابه احمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفي ٢٨٦ هـ سنة ٨٩٩ م وقد نبغ السرخسي في الكيمياء واجتهد في تعرف حكمة الخالق وقدرته في عجائب مخلوقاته واشتغل بدراسة التاريخ والجغرافية .

ومن طلابه أيضا ابو معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفي سنة ٢٧٢ هـ . ٨٨٥ م وقد نبغ في علم احكام النجوم . ومن الجدير بالذكر ان الكندي الذي يعتبر فيلسوف العرب الاول ، كان يشارك الفقهاء في بعض المبادىء الكلامية المحافظة وانه ذهب مذهب المعتزلة في بعض آرائهم الاجتهادية او تخطاهم جميعا الى النظر في قضايا تجاوزت مسائل الكلام هي اقرب الى المباحث الفلسفية الصرفة ، فشق بذلك الطريق الى البحث الفلسفي المجرد وعمل الكندي هنا يتجلى في توجيه الفكر العربي بمحاولات كبرى ثلاث هي : ١ ــ توسيع نطاق البحث النظري . ٢ ــ استحداث التعابير ووضع التعاريف الفلسفية . ٣ ــ التقريب بين اصول الشريعة ومبادىء الفلسفة . والخلاصة ، فالكندي عقل من العقليات الاسلامية الفذة والتي عملت على تحفيز المسلمين للاخذ بعلوم الاوائل والتعرف على أفكارهم وآرائهم وانه قام بتقديم آرائه وأفكاره الفلسفية التي بناها على أساس علمي ومنطقي وانه خلف تراثا حيا تفخر به المكتبة العربية كما تظهر بوضوح نضوج العقلية العربية والاسلامية .

تاريخ الآلهة اليمنية والتوحيد الالهي

بقلم ثريا منقوش
باحثة ثقافية في مركز
الابحاث اليمنية / عدن

(ان التعاليم التي اشتملت عليها النقوش يشكل مجرد جزء صغير منها قوام الديانة اليهودية .. والاسلام) .

لقد جاءكم أهل اليمن وهم قوم أرق قلوبا وألين أفئدة.الايمان يمان والحكمة يمانية .) محمد (صلعم) .

ان الانطلاق في معرفة الدين انما يأتي عن طريق معرفة نشاط الناس الواقعي ووفق صيرورة حياتهم الواقعية .. وان العقائد ليست سوى اصداء للحياة الواقعية وحتى التخيلات الوهمية والسحر والأساطير ما هي الا تصعيدات ناجمة عن صيرورتهم الحياتية المادية) . « ماركس » .

بذلت في هذه الدراسة التي أقدمها جهدا ، لا من حيث تجميع المعلومات أو ربطها ، ولكن من حيث تحليل تلك المعلومات والوقائع التي حصلت عليها من كتب التاريخ لأتمكن من التقاط الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية لتلك المجتمعات . كما حاولت فيها ان اعيد اصل الامور الى اصحابها الحقيقيين ، دون ان أمس اقواما او معتقدات . ولكم أتمنى ان تجد اهتمام العلماء والمؤرخين المجتمعين هنا ... لقد حاولت في هذه الدراسة ان أدلل ببراهين علمية ، على ان فكرة التوحيد بالله انما هي ذات أصول يمانية تحولت الى شمال الجزيرة العربية لا لكي تنتهي في جنوبها ، وانما لتصبح أداة لتوحيد أقوام تلك الممالك « الكلدانيين والكنعانيين والآشوريين ثم المصريين » بعد ان نجحت الى حد بعيد في

بناء الدولة المركزية في تلك الممالك في جنوب الجزيرة العربية .

لقد اغفلت كتب التاريخ دور اليمانيين في خلق هذه الفكرة كفكرة افترضت نشوءها الظروف والاوضاع الطبيعيه والاجتماعية ، فنسبتها الكتب الدينية الى ابراهيم الخليل (ابرام خل ايل) كما ورد في كتاب الدكتور أحمد سوسه (العرب واليهود في التاريخ) وتطرقت التوراة ، بأن نسبت ابراهيم الى اليهود ناسية او متناسية التسلسل الزمني للاحداث والوقائع . وعمل بعض المؤرخين على تثبيت هذه الفكرة وذهب آخرون الى نسبتها الى ابراهيم الخليل . وهم المؤرخـون العرب والمسلمـون مدعمين وجهة نظرهم هذه بموقف الاسلام من ابراهيم الحنيف الذي سار محمد « صلعم » على خطاه واقتدى به ، وجعله مثلا أعلى له في توحيده ودعوته الاسلامية لكل شعوب الارض وبقي الشعب اليمني مهضوما من حقه التاريخي . ولم يكلف احد نفسه مشقة البحث في اصول الفكرة فكرة التوحيد باستثناء انجلز وماركس اللذين تمكنا من التقاطها مـن كتب التاريخ بفكرهما الجلي الوضاح والمنصف للاحداث والوقائع حين حكماها في اطارها العام . ومن خلال الظروف الطبيعية والاجتماعية . فلـم يجرداها من علاقاتها بالاحداث الاخرى حتى تصبح مجرد فكره فـي الوعي المطلق بل جعلاها في اطار اكثر شمولية . الا ان ابراهيم كما يبدو قد اكتسب أهميته التاريخيـة واستطـاع ان يغطي على أصحاب الفكرة الحقيقيين من كونـه زعيما روحيا لأقوام عدة (الكلدانيين والكنعانيين والآراميين والآشوريين) فقد ادعت هذه الأقوام نسبته الى نفسها كل على حدة . واعتقدت كل جماعة منهم ان ابراهيم زعيمها الروحي .

ولقد دفع سقوط الحضارة اليمنية وخرابها الكلي أولوية اليمنين التاريخية لهذه الظاهرة التي شكلت منعطفا جديدا في حياة اقوام الجزيرة العربية . ذلك ان السقوط المريع هو الـذي أدى الى تحول (فكـرة التوحيد) وهي الاساس والعماد الحقيقي لبناء الدولة المركزية آنذاك الى شمال الجزيرة العربية .

ان التركيز على ابراهيم كداعية أول افكرة التوحيد انما جاء من محاولة ابراهيم وقتها ان يصبح زعيما وطنيا للمنطقة العربية كلها • ولم ينتبه أحد الى أن مرونة الديانة اليمنية وقدرتها على التكيف مع الظروف هو الذي مكن القيم الوحدانية التي حملها ابراهيم من ان تسيطر وتستحوذ على شعور الناس تجاه القوة التي تسيطر عليهم والتي أبقتهم لفترة طويلة تكاد تقارب الاربعة آلاف عاما تحت سيطرتها كقوى لا تقاوم • تجسدت في اله غيبي يعيش في أفئدتهم وعقولهم •

ان انصاف الامم يتطلب منا ان نعيد حقها اليها من خلال تاريخها الطويل الذي هو بحاجة الى اعادة النظر فيه بروح علمية حيادية بعيدة عن التعصب والتزمت لجهة دون الاخرى • وحتى يشعر الجميع اننا عندما نكتب ونتحدث عن التاريخ انما هو من اجل العلم والانسان •

تعريف الديـن

الدين حسب تعريف بعض العلماء هو ايمان بكائنات روحية لها قوة فوق الطبيعة والبشر تؤثر في حياة الكون فهي تسير الطبيعة كما تسير حياة الانسان •

ويعرفه آخرون بأنه شعور عند الفرد أو الجماعة تجاه قوة غيبية كما هو عند المسلمين والمسيحيين واليهود •

ولم يستطع العلماء الجزم في حدود الدين فالدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف عن مفهومه عند الشعوب والأقوام المتقدمة • ويختلف باختلاف وجهات النظر لكل من هذه الشعوب تجاه الحياة وقد تدخل امور كثيرة في حدود الدين عند أقوام بينما هي قضايا اخلاقية انسانية عند الآخرين •

وللدين عند مختلف الأقوام شعائر يتمسك بها الاهلون تميزهم عن

غيرهم من اتباع الديانات الاخرى • ويرى بعض العلماء ان لفظة دين هي فارسية الأصل ويذهب آخرون الى انها أرامية (دينو) •

والدين في اللغة البابلية هو القضاء • وديان في الآرامية هي القاضي أو الحاكم ويبدو ان هذا المعنى هو المعنى الصحيح من خلال تصرفات المتدينين بالاديان فهم حين يتعبدون ويؤدون واجبات الطاعة ، انما يردون جزءا من دين عليهم وهو وجودهم في الحياة واستمراريتهم الوجودية بكل متطلباتها التي يعتقدون ان الله يوفرها لهم • فيردوا له جزءا من هذا الدين العظيم بالطاعة والتعبد •

ولكلمة دين في نصوص العربية الجنوبية مفهوم العادة والشأن وقد وردت في نص ثمـودي بهذا المعنى (بدين ود أمت) أي (على دين ود أموت) •

والأديان كما يصنفها العلماء صنفين : اديان بدائية ، وأديان عليا • الا أنهم وقعوا في تناقض مع أنفسهم حين قسموها على اساس احكـام الدين وعقائده وعمق الافكار التي جاء بهـا ، وليس على أساس زمني اجتماعي • وتقوم الاديان البدائية على السحر والاساطير والتقديس المبالغ به •• أما الأديـان العليا وهي السماويـة بالذات فتقوم على احكـام وتشريعات وقوانين وفلسفات اجتماعية •

وتختلف ديانات أهل الجبال عن ديانات اهل السهول والوديان كما ان تطور اشكال المجتمعات قد لعب دورا كبـيرا في تطـور الدين • فالمجتمع الرعوي يختلف تفكيره ونظرته الدينية عن مجتمـع الزراعـة والمجتمع الصناعي اختلفت نظرته الى الدين اختلافا كليا •

اما الدين عند الماديين بما فيهم ماركس وفويرباخ • فله تعريف آخر يختلف عن تعريفات علماء الاديـان المثاليين • حيث يراه فويرباخ (انـه علاقة عاطفية ، علاقـة قلوب البشر فيما بينها والتي ما تزال تبحث حتى

اليوم عن حقيقتهـا في انعكاس للواقـع بواسطة اله واحـد أو آلهة متعددة) .

اما الدين كما يراه ماركس « يعيش على الأرض وليس فوق السماء ذلك لأنه ليس ثمرة وحي فوق طبيعي ولا حصيلة خديعة دبرها الكهنة وعلماء اللاهوت ، لذا لا ينبغي الهبوط من السماء الى الارض بل ينبغي فهم السماء انطلاقا من الارض » وننطلـق في تفسيرنا هـذا للديانـة اليمنية من تطورها وتحولها من تفسير وتحليل للواقع التاريخي الـذي عاشه الشعب اليمني .

« ان الدين هو الانعكاس الواهم في دماغ البشر للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي . ومن مثل هذا الانعكاس تتخذ القوى الارضية شكل قوى فوق أرضيه » .

وترى الماركسية « ان الانسان هو صانع الدين وليس الدين هو الذي يصنع الانسان وتؤكد على ان الدين هو وعي الـذات والشعـور بالذات عند الفرد الذي لم يجد ذاته بعد . او الذي فقدها نتيجة سبب من الاسباب الشخصية » .

ان الذين يفسرون التاريخ على أساس ديني محض ، انما يريدون ان يجعلوا منه شمسا يدور حولها الانسان فيستنزف طاقته والمطلوب ان نقلب الامور لتقف على قدميها فنجعل الانسان شمسا يدور حول نفسه ليكتشف طاقاته وقدراته في ذاته .

ويقسم البعض الاديان الى ثلاثة اقسام اديان قبلية واديان قوميـة واديان مطلقة عامة .

ويدرس علماء الأديان في دراستهم لتاريخ الاديان وتطورها والادوار التي مرت بها امورا كثيرة ، بعضهـا اجتماعي وآخر اقتصـادي وثالث

تاريخي .. الخ .. وتؤثر تلك العوامل في نمو الافكار الدينية وتطورها، لما لها من تأثير كبير على المجتمعات كما للعوامـل الطبوغرافيـة والمحيط تأثير في تكييف الدين وفي تصور الناس للآلهـة التي عبدوها كما أن للسياسة دور كبير في تطور الاديان .

وقد لعبت الاديان دورا كبيرا في توجيـه الناس افرادا وقبائـل وشعوبـا وليس ذلك بغريب فالانسـان في احيـان كثيرة يعبد مـا تصنعـه يداه .

ولقد حفظت النصوص العربية اسماء كثير من الآلهـة التي كانت تعبد في جنوب الجزيرة العربية قبل اليهودية والنصرانية والاسلام . الا انها اي النصوص العربية الموجودة لم تشرح قضايا اليمنيين الدينية ولا عقادهم او حتى ادعيتهم وصلواتهم واكتفت بذكر اسماء الآلهة . ومـن المحتمل وجود نقوش كثيرة تنام تحت ركام الرمال ، ذلك لأن المنطقـة ما زالت بحاجة الى مسح جيولوجي كبير .

ولذلك فان البحث في قضية الدين والامور الدينية في مجتمـع جنوب الجزيرة يبدو من الصعوبة بمكان لعدم توفر النقوش المطلوبة في هذا المنحى . وما لم يعتمد على تحليل الواقع وهو الطريق السليم والوحيد لمعرفة الكثير من الامور الغامضة علينا . ومن هنا فقد حاولت قدر الامكان الاستفادة مما وجد من آثار وما كتب من حقائق تاريخية في كتب التاريخ واستعنت بهما في عملية التحليل بمنهج المادية التاريخية حتى أتمكن من وضع الامور في محلها الصحيح ولم يكن امامي غير هذا المنهج لتذليل كثير من الصعوبات التاريخية ولتسديد ما قد يوجد من فراغ في السرد للاحداث التاريخية بسبب ضياع بعض النقوش او عدم العثور عليها بعد.

ان الدين الحقيقي لاقوام الممالك اليمنية القديمة كان تقديسا للامة اليمنية والدولة المركزية العظيمة . فلقـد كانت جميع الاعمـال الكبيرة والجبارة التي تأمر بتنفيذها الدولة من اجل مصلحة الامة اليمنية بأسرها

تنفذ برغبة وحماس يحدوه الامل في رضى الآلهة التي يعد الملك ممثلا لها في الارض • ذلك ان سلطة الملك كانت دينية دنيوية (فالمكرب) أي المقرب الى الآلهة هو الذي يعلن الحرب ويصدر التشريعات والقوانين يأمر بجمع الجباية للمعابد • ولقد حكم معين وحضرموت عدد من هؤلاء المكربين قبل ان تتحول حضرموت الى مملكة ، ومنهم المكرب (يرعش بن اب يشع) • ويبدو ان آخر مكرب من المكاربة الحضارم كان قد زهد في الحكم المزدوج فتنحي عن السلطة الدينية • وانفرد بالحكم الدنيوي وتلقب بلقب ملك بدل المكرب • هذا الملك حسب قائمة فيلبي (صدق ايل) الذي تولى العرش عام (١٠٢٠ ق • م) كما حدد فيليبي • وهومل•

ولقد كان البناء من اجل ازدهار اليمن وحضارته الذي ولا شك سيؤدي الى انتعاش حياة الانسان اليمني بكل جوانبها هو الدافع الحقيقي الى العمل المتواصل وليس العكس كما يحاول البعض ان يصور الاعمال العظيمة تلك التي قام بها انسان الحضارة اليمنية هي من أجل التقرب الى الاله • اما لماذا يتقرب الى الاله عندما يقدم على تلك الاعمال فليس الا من قبيل الاحترام ورفع المعنويات وحتى تمنحه كما يعتقد هو القوة لانجاز مهامه التاريخية العظيمة • ان الاديان كما يرى ماركس يؤسسها اناس يكابدون هم بالذات حاجة دينية ، ويتحسسون الحاجة الدينية عند الجماهير التي تفرضها عليهم طبيعة ظروفهم الاجتماعية والطبيعية •

لقد استخدم الدين من قبل الدولة في الممالك اليمنية في فترات متقطعة للخلق والابداع • وبناء تلك الحضارة العظيمة فلم يكن بالامكان مخاطبة الناس مباشرة الا باستخدام الدين كسلاح لشحذ الهمة وبناء اليمن الحضاري • واستطاع بالفعل ان يقوم بالدور الموكل اليه •

نبذة عن الالهة التي عبدت عند اليمنيين في تلك الفترة

لقد ادت الآلهة واجباتها نحو الانسان بصورة متعددة فلم تقصر حسب اعتقاده من القيام بما كان مطلوبا منها تأديته آنذاك ، خاصة وان

انسان تلك الحضارة لم يكن مقصرا نحوها فقد عبدها وقدم لها القرابين والنذور توددا وتقربا منها •

لقد سخرها الملوك لتحقيق سطوتهم وسيطرتهم على المجتمع آنذاك • وقاموا بتأدية الطاعة لها وارضائها بكل الوسائل فقد ورد في الكتابة رقم (١١٥٠) كما جاء في موسوعة جواد علي « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ان الملك (اب يدع يشع) تام مع اشراف مدينة قرنوا باصلاح خنادق المدينة وترميم اسوارها تقربا الى آلهة معين (عشترو قبضم) (عشتر ذو قبض) ومعبده في رصاف القبيلة هوازن • كما عبدوا (ود) و (نكرح) • فقد بنى ملك حضرموت (شهر علف بن صدق آل) حصنا كبيرا ونذره للاله (عشتر ذو قبضم) و (عشتر شرقن) و (ود) و (نكرح) •

وفي شكر للاله على نجاة قافلة من الوقوع في أيدي الغزاة اضافة الى الالهة السابقة فقد وردت اسماء اخرى (ذات نشق) (عشتر ذي يهرق) و (يثل) • وقد استخدم الملوك ألقاب الآلهة مثل (يثع) المنقذ (صدوق) الصادق او العادل (دريا) العالي (نبط) المضيء رقه الحبيب أو الاقر (ويشر) المستقيم •

وعشتر وهو اله يوجد بموضع يقال له حجر او هجر • وقد اطلق شعب كمنهو على عشتر لقب الدال أي (الدليل) وكانت من عادات اليمنيين عند انتصار شعب آخر : ان يقدم المطلوب ولاءه للشعب المنتصر على شكل عبادة آلهته كما فعل شعب كمنهو عندما قدم الطاعة والولاء لملك سبأ وآلهتها • وهذا يعني اعتراف الشعب بسيادة شعب آخر وآلهته عليه •

اهتم المعينيون بالمعابد اهتماما خاصا ففرضوا لها جبايات خاصة وأراضي زراعية واسعة وقفا عليها • وجمعت لها من النذور موارد ضخمة تقدم باسم الاله عند شفاء شخص او عودته من سفر او سقي ارضه أو

نجاة تجارته • وعبر عن هذه النذور والهبات بلفظتي (أكرب) أي اقرب• وهي ما يتقرب بـه الى الآلـه وتعد على الناذر دين للالهة • فيقال (دين عثتر) •

وقد اتبعت عادة لجمع جباية المعبد يفوض الملك او المعبد رئيس القبيلة أو زعيمها لجمع الجباية او انشاء مشروع باسم الالهة ومن المعروف في عاداتهم انه اثناء اتفاق طرفين على القيام بعمل ما او انشاء مشروع بينهما يعقد الاتفاق باسم الالهة التي تكون قد رضيت بالاتفاق ويخصص لها جزءا من المشروع • كما تعهد المعابد للرؤساء والمشايخ للقيام بالاعمال المطلوبـة لها •

ولقد كان على هذه المعابد بالمقابل اداء بعض الخدمات العامة للشعب مثل انشاء مباني عامة • وتحصين المدن •• ومساعدة الحكومـة في تخفيف الضرائب عنها وكانت واردات تلك المعابـد السنوية متساوية مع واردات الحكومة •

ذكر الدكتور جواد علي ان المعابد كانت منتشرة في كل المـدن • وفي بعض الأحيان كان في كل مدينة معبد وأحيانا عدة معابد تخصص لاله واحد وتسمى هذه المعابد باسمه وتنذر له النذور ويقـوم رجـال الدين بادارتها وادارة اوقافها واقامة الشعائر الدينية •

ويعتقد ان (نكرح) آلهة معين انمـا هي الشمس التي يقابلهـا عند السبعين ذات حميم (ذات حمم) •

ويمثل (الاله ود) عند المعينين رجلا شجاعا مقاتلا • وقـد نعت هذا الاله بنعوت كثيرة مثل : الهن (أي الاله) و (الكهلان) أي القدير • وقد وردت في نصوص جنوبية جملة (دم شهرن) أي (ود الشهر) أي (الاب القمر) •

ويبدو ان للمعينين الجنوبين اله لم يكن نفس اله المعينين الشماليين • وقد عثر على كتابات حضرمية تدل على ان اهالي حضرموت عبدوا نفس اله معين كتوثيق للروابط بينهما فقد ورد اسم (شهر علي بن صدق آل) ملك حضرموت • واسم (اب يدع يثع) ملك معين تقربا الى الاله (عثتر ذي قبض) • كما ورد ذكر الاله (عثتر الشارق) و (ود) و (نكرح) لتمتين الروابط بين عرشيهما • ومن المعروف ان أي عمل يقوم به الملك أو القبيلة كان يعمد بذكر اسم اله ليعطي الطبيعة الشرعية والقانونية امام الناس •

آلهة حضرموت

اكتشفت بعثة بريطانية في الحريضة آثار معبد الاله (سين) ويرمز الى القمر • ويعرف هذا الموضع في الكتابات الحضرمية التي يرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد كما تقول بعض كتب التاريخ • باسم (مذبم) أي (مذاب) • وعرف باسم (معبد سين ذو مذاب) • تقرب اليه الناس بالنذور ليمنحهم طول العمر والخير والبركة •

وقد اعتمد عليه ملوك حضرموت اعتمادا كبيرا في انتزاع الشريعة لأعمالهم الكبيرة • فها هو الملك (يدع اب) يبني حصنا عظيما ويسور شبوه بسورها الضخم ويرصد لذلك العمل الاموال الطائلة • باسم الالهتين (ذات حميم) و (ذات حشول) •

ومن عادات الملوك الحضارم انهم عندما كانوا يعمرون المدن ويشيدونها يعطون الاولوية لبناء المعابد كما فعل (بدع ايل بين) في الكتابة الموسومة بسمة Glaser 1623 لبناء معبد (علم) للاله (سين) •

كما كان تتويج الملوك لا يتم الا بعد تقديم القرابين للاله كما فعل (يدع ايل) عند تتويجه ملكا على حضرموت في حصن (أنود) كما قدم شكر لها على نصرها اياه في حربه ضد ملوك (سبأ وذي ريدان) •

لقد تعلق ملوك حضرموت أكثر من غيرهم بالآلهة نتيجة اوضاعهم الطبيعية والاجتماعية المتميزة الى حد ما • فالكتابة المرقومة ب (٤٣٣٦) والمنشورة في كتاب (REP EPIG) تشير الى ملك من ملوك حضرموت وهو يقدم الى الاله (سين) تمثالين من الذهب في معبده في (نعلم) • لأنه منّ عليه بالشفاء من جروحه التي اصيب بها في حربه مع ملك (سبأ وامراء خولان) • في مدينة (ثبير) في (ارض يحر) • ومن عادات القبائل اليمنية ان قبيلة عندما تنزح الى مكان آخر في ارض مملكة أخرى تقدم قرابين الى اله القبيلة المالكة للارض ، كما حصل بالنسبة لقبيلة (مقنصم) في تقديسها وقفا الى الآلهة (عثتر وهوبس والمقه) و (ذات حميم) ، وذلك انها نزحت من سبأ الى حضرموت فخضعت لها •

وفي عهد (يدع ايل بين بن رب شمس) كما ورد في النص الموسوم بـ (Philby 84) بني معبد شبوه • فذبح الملك عشرات من الابل والماشية تقربا لها ورغبة في استرضائها بعد ذلك الدمار الذي حل بها نتيجة الحروب التي نشبت بينهم وبين ملك (سبأ وذي ريدان) كما قام بكساء جداره بطبقة من القار حتى تصبح ملساء ويتعذر تسلقها وتحطيمها من قبل الاعداء مرة أخرى • كما قدم حسبما ورد في لوح من النحاس محفوظ في المتحف البريطاني الملك (صدق ذخربران) ووالده (الشرح) نذورا الى الآلهة (سين) و (علم) و (عثتر) •

اذن فأمر تقديم القرابين الى الآلهة كما تشير النصوص يبدأ عند الكاربه والملوك بالدرجة الاولى ثم القبائل والعشائر كما حصل عندما قدمت القبيلة السبئية قرابين الى آلهة حضرموت ثم تأتي بعد ذلك قرابين الافراد ويبدو من ذلك ان ثمة علاقة عميقة قد تولدت بين الملوك والآلهة حتى أصبحوا مرتبطين بها ارتباطا كليا ، فلا يقدموا على عمل الا بعد ان يستشيروها ويقدمون لها القرابين ولا ينتزعون نصرا من خصم عنيد الا

وبادروا في تقديم القرابين لها • ولا يصدرون أمرا الا بعد موافقتها بتقديم القرابين والنذور حتى ترضى فتأذن •

كما أمر الملوك رعاياهم (ويبدو كتكفير عن ذنوب او مشاكل اجتماعية ارتكبوها) بتقديم ولاء الطاعة والتوبة الى الاله في شكل ذبائح أو هدايا كما حصل عندما أمر الملك (العزيلط) (عذ زبن اب انس) وشخصا آخر يدعى (رب آل بن عذم لت) (رب ايل بن عذم لات) وهما من عشيرة (مريهان) بتقديم هدايا للاله (سين ذي علم) في معبده (علم) سبعة تماثيل من الذهب •

وتفانوا في التقرب من الآلهة وتقديم الولاء لها فقد قاموا بذبح حيوانات وحشية كالفهود كما حصل عند تتويج ملك من ملوك حضرموت في حصن (أنود) • ولم يأل الانسان اليمني جهدا في تقديم ما كان يمكن تقديمه الى الآلهة ليثبت لها تودده اليها وتقديسه لها وتنفيذه لرغباتها وأوامرها المطلقة •

تقاليد القتبانيين تجاه آلهتهم

من المعروف ان (عم) هو اله القتبانيين • وقد خضع له فيما بعد الحميريون فسموا (اولاد عم) أي (شعب عم) اله قتبان وأحد النصوص يتحدث عن قبيلة (هوران) وهم يقومون ببناء و (انبي) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) •

وللدلالة على التحالف والاتحاد تقوم القبائل الاخرى باداء يمين الطاعة لاله القبيلة الكبيرة كما فعل الاوسانيون والكحد ودهس وتبنى• وكما يبدو من بعض النصوص ان الأراضي القتبانية كانت تتعرض بين الحين والآخر للجفاف • ولذا فقد حاول القتبانيون ارضاء آلهتهم بالقرابين لتقيهم شر المجاعة • وهذه من الاسباب التي جعلتهم يتوجهون فيما بعد الى رب السماء ••

ومن آلهتهم (عثتر) و (حوكم) و (سحرن) و (رحبن) وقد أدوا لها جميعا قرابين الولاء والطاعة • وقامت عدة قبائل من مناطق الجنوب والشمال للدلالة على تمسكهم بها وتعظيمهم لها ، حسب احد النصوص ، بفتح طريق جبلي وعر باسم الآلهة (عم ذو شقرم) و (انبى) و (حوكم) و (ذات صنتم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) ، ويبدو انها ترمز للشمس • وقد كانت تشريعاتهم وقوانينهم والتي يوقع عليها الملك وممثلوا القبائل تعمد بختم الآلهة • كما حصل في القانون الذي اصدره الملك (يدع اب ديبان) وعند اتمام أي مشروع بناء توضع كتابه عند الانتهاء من العمل كدليل لافتتاح المشروع باسم آلهة قتبان كما يشير أحد النصوص•

ويشهد الاله على أي عقد أو اتفاق بين طرفين كما حصل بين الملك (يدع اب ديبان يهرجب بن شهر) وكل أولاد (عم) و (اوسان) و (كحد) و (وهسم) و (تبنو) ، بنو (يسران) • كما حصل اتفاق مع قبيلة (كحد) لجباية الضرائب • وقد سميت الضريبة الخاصة بالمعابد (بعصمم)• وتعد كالزكاة أو الصدقة • هذا وقد أصدر الملك (شهر هلل) أمرا ملكيا لجباية الضرائب تنفيذا لمشيئة معبد (حطب) ومعبد (رصاف) ومعبد (ابني) •

من المعروف ان العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمي الى اله من الاله تتسمى باسمه وتقيم حول معبده • كما ورد في أحد النصوص (اربي عم دلنج) أي (من طائفة معبد اله عم في ارض لنج) • وتعني ان الطائفة القائمة حوله قامت بجمع الجباية للاله (عم) •

وقد قدم حتى كهنة المعابد القرابين للالهة كما فعلت الكاهنة (بره) عندما قدمت تماثيل من ذهب للاله (عم ذربحو) • اما من أجل الزراعة والامطار فقد قدم القتبانيون القرابين الثمينة والغالية والكبيرة • وكل ما قدموه من أجل حل المشاكل الاجتماعية والطبيعية •

والمكرب عند اليمانيين هو المقرب الى الاله والشفيع اليها والواسطة

بينها وبين الانسان • وهو ان أي المكرب كناية عن الكاهن الحاكم الذي يحكم باسم الالهة ويتحدث باسمها ، وعندما توسعت سلطات المكرب نتيجة توسع اطراف مملكته وتجاوزها حدود المعبد في القضايا الدنيوية تشعبت المهــام ومتطلبات الحياة المدنية وانصرف الحكم الى خارج المعبد وصار حكما زمنيا وليس روحانيا فقط • لقب المكربيون أنفسهم بالملــوك لتثبيت سعة السلطات والصلاحيات العليا في يد الملك •

وقد وسمت جميع الاعمال الكبيرة باسم الاله ، كما حصل عندما شقت انفاق مرور باسم (عم ذو شقرم) و (حوكم) وغيرهم من الآلهة • والمتبع للحياة الدينية في تلك الممالك من خلال القرابين التي قدمت للالهة وهي شكل من اشكال التعبد والتقرب حفظتها النقوش لنا • وقد وردت في النقوش اسماء كثيرة لآلهــة اليمنين آنــذاك (عم شقرم) و (عم ذو ريمــت) و (انبــي) و (حوكــم) و (ذات صنتــم) و (ذات ظهران) و (ذات رحبان) • كما ورد في النص (Glaser 1600) اســم موضع سمي (مختن ملكن بقلي) أي مختن الملك بموضع (مكي) • بالرغم من اختلاف العلماء حول مفهوم كلمة (مختن) وهل تعني المكان الذي تذبح عليه الضحايا وهي بمعنى (منطقة) ام تعنى موضع ختــان الذكــور •

كما وجدت نقوش عليها تشريعات وأحكام دينية كان يصدرهــا الملك بتعميد من الآلهة • هذه نبذة مختصرة عن الحياة الدينية والآلهة التي عبدت في تلك الممالك والتي نلاحظ كثرتها حتى قال (أوليري) انه كان في تمنا وحدها حوالي ٦٥ معبدا •

آلهة سبأ وتقاليدها

اما ملوك سبأ الوارد ذكرهم في كل الكتب المقدسة فقد كانت لهم طرقهم الخاصة في عبادة الآلهة ، نتيجة لعراقتهم وقدم حضارتهم حيث

وردت كلمة (Sabu) في نص سومي يعود كما يراه هومل الى حوالي (٢٥٠٠ ق٠م٠) ٠ فقد قدموا القرابين الى الاله والى زوج الاله الرئيسي (المقه) ٠ كما ورد في الكتابة الموسومة (Glaser9) ٠ ان (يدل ال ذرح) سور بيت المقه وهو معبد للاله في مدينة (صرواح) وقدم بهذه المناسبة قرابين اليه والى زوجه الآلهة (حريتم) (حرق) (حريمت) وان المكرب (يدع آل ذرح) قد بنى للآلهة الثلاثة عثتر والمقه وذات حميم معابد ٠ ومن خلال قرائتنا للنصوص الجنوبية يتبين لنا ان السبئيين قد قاموا طوال فترات حكمهم بتجديد بناء المعابد ٠ وقد دون النص المرسوم (Jamme 555) وصاحبه (بن ابكرب) وهو من (شوذبم) أي (بني شهوذب) وكان قينال (يشع امر) ودمر (بكرب‌ملك) و (سمه على) و (يدع ايل) و (يكرب ملك) عند اتمامه بناء جدار معبد (المقه) تقربا الى الاله ليبارك في أولاده واسرته واقربائه وليبارك في بيوته وأملاكه ٠ كما دوّن بعد ان قدم القرابين تعبيرا عن حمده وشكره لأنه منّ عليه ومنحه كل ما اراده منه ، ولانتصاره مع (سمه على تنف) في حربه التي قام بها ضد قتبان ٠

وفي النص (Jamme 557) قام (ابكرب بن نبط كرب) بترميم وبناء معبد (المقه) تقربا الى رب المعبد (بعل ادام) الاله (المقه) حتى يكون شفيعه عند الاله وليبارك في ذريته واملاكه ٠

وفي (صرواح) وهي عاصمة السبئين في ايام المكربين يوجد معبد (المقه) اله سبأ وقد بنيت عدة معابد له منها معبد (يفعان) ٠

وكما عثر على كتابة في (صرواح) تعد من أهم الوثائق ٠ وافتتحت بجمله (هذا ما امر بتسطيره كرب ايل وتر بن بعر على مكرب سبأ عندما صار ملكا وذلك لالهة المقه وشعبه وشعب سبأ تعبيرا عن شكره له ولبقية الالهة على كل نعمها وتوفيقها له بأن هيأته ليصبح ملكا ٠ ولانعامها على شعبه بالعطايا والبركات)٠فنحر الذبائح للاله (عثتر) امتنانا له وتقربا اليه

كما قدم للالهين (عثتر) و (هوبس) الكساء الثمين تقربا اليهما وشكرا لهما على نعمهما عليه • وقام بتمجيد آلهته التي رصت صفوف شعبه • وقدم لها الشكر والثناء لانهـا وهبت ارض سبـأ مطرا عظيما سال في الأودية • كما قدم رؤساء (المزود) رقيقا للاله (سمهت) كقرابين له •

وقدم سكان المناطق والمدن التي هزمت كارض (نسم ورشأي) وجميع المدن والنواحي التابعة (كحد) و (سيبن) والمـدن (اتخ) و (ميفع) و (رتمم) ومنطقتي (دات) و (نبرم) وجميـع المدن مـن (تفصن) الى اتجاه (دهس) والسواحل وغيرها من المدن التي جعلها ملكا لسبأ والآلهة سبأ •

كما قدم للاله (عثتر ذي قصد) في مذبح (لقظ) الصيد الـذي اصطاده وتمثالا من الذهب •

وفي النص (Jamme 550) ذكر شخص اسمه (تبع كرب) • وكان كاهنا (رشو) للالهة (ذات غضران) وهي كناية عن الشمس • وقد بنى جزء من جدار معبد (المقه) • كما أمر ببناء كل الابراج ، وذلك عن اولاده وأطفاله وأمواله وعن كل ما يقتنيه وعن نخيله • وقد قام بعمله هذا لأن المقه أوعز الى قلبه انه سيهبه غلاما • ولأن (يكرب ملك وتر) اختاره ليشرف على ادارة الاعمال المتعلقة بالحرب مع قتبان وقبائلها • ولأن الاله (المقه) حرس ووقى كل السبئيين والقبائل المتعاطفة معهم •

من هذا يمكن ان نستخلص الاغراض التي من أجلها بنيت المعابد وقدمت القرابين وهي تختلف عن الاغراض التي قدمت فيها القرابين عند كل من الحضارمة والقتبانيين والمعينيين وقد كانت جميعها شكرا للآلهة أما من أجل انتصار او اخضاع القبائل بتقديم رؤسائهم كعبيد لاله سبأ • والملاحظ ان السبئيين اهتموا بعبادة الشمس وبناء المعابد لها ، وتقديم القرابين لها مثلها مثل الاله (المقه) القمر • هذا الاهتمام بالشمس لـم يحصل في الممالك اليمنية الاخرى • وقد عوملت الشمس كاله ثانـوي

في بقية المناطق • ويبدو ذلك نتيجـة للاختلاط مع شمال الجزيرة • وللتأثير المتبادل مع تلك الممالك • كما ان طبيعة المناخ في تلك المنطقـة التي قامت عليهـا الدولة السبئية كـان يتطلب التودد الى الشمس لتهب الحيـاة للمناطق الجبلية الباردة • وكما أورد الاخباريون ها هي بلقيس وهي ملكة سبأ تعبدها • وسبأ يسمي باسمها (سبأ عبد شمس) تقديسا وتقربا منها بالرغم من ان سبأ ورد هناك كاسم ملك الا انه من المحتمـل ان يكون القصد بهذه التسمية أقوام مملكـة سبأ الذين عبدوا الشمس فنسبوا اليها •

الكواكب الثلاث

يعتقد بعض علماء التاريخ ان تلك الاسماء الكثـيرة التي وردت للآلهة ، ما هي الا صفات للثالوث الكوكبي المقدس (الزهرة) (الشمس) (القمر) • وتمثل (الزهرة) الابن • كما تمثل (الشمس) الام ، أمـا (القمر) فيمثل الأب القوي وهو أصل الاشياء وصانعها ، لقد لفت القمر والشمس نظر الانسان لما لهما من أثر على حياته ولما لـه من مصلحـة اقتصادية مباشرة معها • فللشمس دور كبير في تربية ماشيته وحيوانـه وعمله الزراعي والتجاري وفي صحوه ومعرفته فصول السنة • اما القمر فقد احتل المنزلة الاولى والأساسية عند اليمنيين فهـو الأب الاكبر لأن عطاياه كثيرة ومتعددة والمرشد الوحيد لقوافلهم التجارية في رحلاتها الى الشام وفلسطين وبابل • وهو السمير والانيس في الليالي الجميلة بعد حر الشمس المحرقة في صحرائهم المترامية الاطراف طـوال نهارهم الشـاق المضني من تلك الرمال اللاهبة اللاسعة في الصيف ، لذا فقد مثل القمر مصدرا للخير ، فاعطوه من الاسماء والصفات بقدر عطاياه • فسمي الرخ • والسن • والسين • والشهر • وصوروه على هيئة ثور له قرون معقوفة وعبدوا الثور حبا وتقربا للقمر • ولم يخاطبه باسمه مباشرة فقد كان أقدس من السماء واعظم وكان لا بد مـن واسطة بينه وبـين عبدته ، فخوطب بالنعوت الكثيرة التي عرفوه بها ، كسين عند الحضارم والمقه عند

السبئيين (وود) عند المعنيين و (عم) عند القتبانيين ويقوم مقام الاب •

وفي نصوص جنوبية لقب القمر باكهلن وبنعوت وصفات اخرى كالحكيم ، والصديق ، والعليم • وهذه النعوت هي نفسها التي استخدمت في صفات الله ونعوته في الدين الاسلامي • وقد خاطبه القتبانيون (كعم) فقد ورد في النصوص الجنوبية انهم نادوا الاله (ود) ب (ابم ودم) أي (اب ود) •

اذن فقد مثل القمر الاله الرئيسي لليمنيين وذلك لأنه اكثر عطفا ومودة عليهم ورحمة بهم ورعاية لهم ومساعدة على احتمال شدائد نهارهم •

اما الشمس فقد مثلت عند اليمنيين اله ثانويا • فقد كان لها في نظر الانسان اليمني مضار كثيرة لأن الارض اليمنية وجزء كبير من ارض الممالك اليمنية القديمة كانت تخضع لمناخ الصحراء الجاف والحار والذي لعبت الشمس دورا كبيرا في خلقه ، فسماها (ذات الحميم) وعبدها لجملة من الاسباب التي جعلته يعبدها وذلك للتضرع اليها للتخفيف من لهيبها حتى لا تقتل زراعته في الصيف والتي كانت تتحول الى اخشاب يابسة من شدة حرارة الشمس الا انهم كما تذكر حوادث التاريخ قد كرموها في مرحلة من مراحل تاريخهم خاصة ابان حكم بلقيس • فقد ورد في سورة النمل « اني وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا يسجدوا لله الذي يخرج النجب في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » •

لقد فضل اليمنيون القمر على الشمس الا انهم عبدوا الاثنين كما ورد في القرآن سورة النمل فترة طويلة من الزمن امتدت الى عشرات من القرون خاصة في تلك المناطق الجبلية التيكانت بحاجة الى حرارة الشمس

للدفء والتي يعد مناخها مقاربا لمناخ شمال الجزيرة العربية في المرتفعات الجبلية وقد وردت في كتب التاريخ اخبار كثيرة عن هذه العبادة . فالاخباريون يذكرون ان سبأ الاكبر عبدها وتسمى باسمها (عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان) كما اشار القرآن الى ذلك « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر : لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم تعبدون » لقد حاول الانسان استرضاءها بشتى الطرق والوسائل . ومهدها بالطرق والوسائل فعبدها بالطرق التي رآها مناسبة وسجد على يديه وسبح وقدس باسمها .

وقد أحلها أقوام شمال الجزيرة العربية والعبرانيون محل الصدارة نتيجة لطبيعة أرضهم ومناخهم الجغرافي . فعبدوها كاله رئيسي ، كما أشار العهد القديم الى ذلك . (واباد الخيل التي اعطاها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت الرب ... ومركبات الشمس احرقها بالنار) . وهدموا امامه مذابح البعليم وتماثيل الشمس التي عليها من فوق قطعها وكسر السواري والتماثيل والمسبوكات . وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض اسرائيل ثم رجع الى (اورشليم) هذا ما فعله يوشيا عندما وجد اورشليم مليئة بتماثيل الشمس والناس يعبدونها بدلا من رب أبيه داود وسميت أماكن عبادتها في مدن يهوذا (بيت شمس) .

أما الزهرة فقد لفتت نظر الانسان اليمني بجمالها وحسن ألوانها فسميت كما ورد في النصوص العربية الجنوبية ب (عثتر) وهي الابنة للشمس والقمر وعطاياها بالدرجة الاولى جمالية ونفسية .

الاسباب التي دعت الى التوحيد (١) النظام المركزي

١ ــ ان الاسباب التي دعت اليمانيين الى التوحيد عديدة خلقتها ظروف بلدهم الطبيعية وأوضاع حياتهم الاجتماعية ذلك ان العوامل الفيزيائية كما يقول مونتسكيو وبالذات المناخ والتربة والأرض ، هي التي

تحدد بسيكولوجيا وعادات وأعراف الناس بل وروح الجماعات الخاصة في تلك البيئة وبالتالي بنية حياتهم الاجتماعية والفكرية • ولن تتطرف هنا كعالم الاجتماع الفرنسي لنجعل من البيئة الجغرافيـــة كل شيء في تحديد قضية التوحيد اليماني والتمسك بوحدانيـــة اله سموه (رب السمـــاء) • الا اننا نرى ان ذلك العامل الجغرافي الى جانب العوامل الاخرى والتي سوف تتطرق اليها ، قد لعبت دورا كبيرا في خلق الاله الواحد عند اليمانيين • لانهم كانوا في حاجة الى عطاياه المتقطعة مـــن رياح غير مدمرة حبلى بالغيوم ، وتلد القطر والمطر وطقس معتدل يسمح ببقاء الزراعة طوال السنة دون صيف شديد القيظ يدحر ويحرق الزرع والنخيل • ومثل هذا الوسط الطبيعي غير المعتمد على الانهار الجاريـــة كدجلة والنيل طوال السنة والامطار غير المتقطعة والمعتمد اعتمادا كبيرا على جهود الانسان الذي جسدته طرق الري الاصطناعي كما يقول انجلز في رسالته الى ماركس « في مثل هذه الاقاليم يغدو نظام الري الاصطناعي هو أهم متطلبات قيام الحياة الزراعية ، وان نظاما مثل هذا ليقوم على المجهودات الجماعية او المديريات اللامركزية او توجيه الحكومة المركزية »• مثل هذا الوضع المناخي المتقلب وغير المنتظم هو الذي دفع الناس الى توحيد جهودهم فخلقت الدولة تلبية لحاجياتها وحاجيات مجتمعاتهـــا • والنظام المركزي الذي كان يطلب محورا روحيا تتجمع حوله الطاقـــات والامكانيات البشرية للاستمرار في خلـــق وضعية لائقـــة بانسان تلك الحضارة • فخلق رب السماء كمحور يجمع الطاقات من ناحية وكمعين للانسان على الطبيعة المتقلبة من ناحية اخرى وترى الماركسية (ان في مرحلة اكثر تقدما وتطورا تنقل جملة الصفات الطبيعية والاجتماعية للالهة الكثيرة العدد الى اله واحـــد كلي القدرة ليس سوى انعكاس للانسان المجرد) •

ان الايمان باله واحد جاء كحاجة ملبية لمتطلبات الواقع الموضوعي والاجتماعي منه والطبيعي وقد عكس بصورة صادقة صافيـــة الواقـــع الموضوعي الذي عاشه الانسان اليمني في ذهنه ووعيه •

ان ازدهار الحضارة اليمنيـــة والتي قامت على الانتـــاج الزراعي والتجاري والصناعي وبالدرجة الاولى والذي كان يتطلب نوعين مـــن العلاقات ــ علاقات الناس بالطبيعة ، وعلاقات الناس ببعضهم البعض • كان لا بد من ان يحدد بصورة مركزية سواء أكان في رب السماء كممثل للطبيعة او في شخص الملك كممثل للمجتمع من جهة ، ومن جهة اخرى ممثل لرب السماء الواحد • فتم الايمان بالاله الواحد الكلي القدرة . بعد تلك الآلهة الكثيرة العدد كانعكاس لذات الواقع الطبيعي والاجتماعي وتمكنت هذه الفكرة من حل التناقض الذي كان بين الانسان اليمني وبين قوى الطبيعة من ناحية وبين الانسان اليمني والدولة من ناحية ثانية •

(٢) المساواة القبلية

ان فكرة المساواة للجماعات المطلوبة مع الجماعات والقبائل الغالبة في تلك الحروب الطويلة التي كانت تنشب بين القبائل اليمنية بين الحين والآخر والتي كانت نتائجها انتصار قبيلة وهزيمة الاخرى ، وجمع افراد القبيلة المغلوبة كأسرى حرب ، ثم العمل على اذابتهم في بطن القبيلـــة الغالبة • وقد فرضت وبالضرورة عبادة آلهة القبيلة الغالبة كما حصـــل عندما عبد الحضارمة اله سبأ (المقه) وكما عبده كذلك القتبانيون • لقد كان من الضروري نتيجة للوضعية القبلية ، وهم ابناء قبائل اخرى لا تقل شدة ولا قوة بل ولا كرامة وانفة ، ان يسلكوا مسلكا يؤدي بهم الى المساواة في الحقوق والواجبات الاجتماعية مع ابناء القبائل او القبيلـــة الآسرة لهم • فقد كان الاحساس باللا مساواة بينهم ، رغم انهم جميعـــا ابناء قبائل ، مصدر قلق روحي ونفسي لهم فكيف الوصول الى ردم هذه الفجوة الاجتماعية التي وجدت نتيجة لانكسارهم الحربي امام القبيلـــة الاخرى ؟ • وكيف يستعيد الفرد فيهم كرامته الشخصية ومكانته القبلية• لذا فقد كان التوجه الى الآلهة ــ آلهة المنتصرين اول الطريق الى احتلال مكانته الاجتماعية ، وكان لا بد من التسليم لآلهه المنتصر • ولذا فقد كان في أحيان كثيرة يتحامل على آلهته وآلهة اجـــداده فيحطمهـــا لتصوره

واعتقاده انها لم تعد تصلح لأن تعبد فهي سبب انكساره العسكري وانتصار اعدائه عليه • فعبد تلك الآلهة وعندما تطورت عبادة الآلهة الى اله واحد (القمر) في بداية ذات التطور • وهو اله الدولة الغالبة عبد هو هذا الاله الذي اصبح فيما بعد (بعل سين) ثم (ذي سموي) أي رب السماء ، رغبة منه في المساواة مع افراد القبيلة المنتصرة امام الاله كخطوة اولى للدخول الى المساواه الاجتماعية • فاستطاع بذلك ان يضمن لنفسه وضعا اجتماعيا في المجتمع الجديد الذي انتقل اليه • لأن الناس امام الاله الجديد سواسيه من حيث اوضاعهم الاجتماعية والدينية على الرغم من الاستثناء الذي كان حاصلا بالنسبة للمكرب أو الملك أو الكهنة والوسطاء أي الصف الاول في الدولة والذي تمتع بامتيازات كثيرة اجتماعية كانت ام دينية •

ان التقاء الناس حول اله واحد سيكون ولا شك عاملا حاسما في اذابة كثير من الفوارق الاجتماعية • فجميعهم يعبدون الغيب وجميعهم يؤدون نفس الشعائر والطقوس • وليس هناك الها كبيرا ضخما مرصعا بالاحجار الكريمة والمجوهرات يمثل فئة اجتماعية ذات مكانة رفيعة بين القوم وليس هناك الها صغيرا تدل هيئته على فقره وفقر عبدته من الناس• بل اصبح الجميع في الحال الجديدة لا يشعرون بالتمايز فقد تحولت الآلهة الى اله واحد رحيم رحمن يعطف عليهم فينزل لهم المطر ليسقي الزرع ويحيي الأرض • وعطاياه كعبادته ملك لكل الناس بدون أية محاباة لفئة اجتماعية دون الاخرى أو لفرد دون آخر • ومن هنا استطاع اولئك الاسرى ان يجدوا لهم مكانة اجتماعية بين القبيلة الآسرة فيتمتعوا بنفس الحقوق الدينية على الأقل ، والتي عكست نفسها كمسيرة فعلية في تلك الفترة للحياة الاجتماعية فتساووا بواسطة المساواة الدينية في الحقوق الاجتماعية وأحس الانسان بانسانيته وآدميته والتي كان قد فقدها بحكم الاسر •

(٣) تزايد السكان عامل آخر

ونتيجة للتطور الذي استطاع الشعب اليمني الحصول عليه ابان حضارته ، فقد حصل تطور من ناحية الكثافة السكانية قبل تلك الهجرات التي حدثت في التاريخ وأدى هذا التطور الى تطور في الانتاج الزراعي والصناعي والتعديني والتجاري • ولقد كانت تلك الزيادة في السكان نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وطبيعية اقتصادية • للانتعاش التجاري والتعديني الذي حصلت عليه الممالك ابان استقرارها واجتماعي للهدوء والاستقرار الداخلي وتوفر الحاجات الضرورية للانسان وطبيعي حين تمكن من قهر تقلبات الطقس والمناخ ببناء السدود التي حفظت له زراعة دائمة طوال السنة ، كما أدت الزيادة في عدد السكان الى تطور الانتاج الاجتماعي الا ان هذه الزيادة بالرغم من ايجابياتها الكثيرة فقد ظهرت لها جوانب اخرى سلبية على الصعيد الاجتماعي العقائدي • فلقد خلقت كل فئة اجتماعية من تلك الفئات الكثيرة التي تعايشت في اليمن آلهة تعبدها وتتقرب اليها بالقرابين والذبائح • وأحس القائمون بالامر ـ الدولة والملك بخطورة مثل هذه الظواهر على التماسك الاجتماعي والذي كان قائماً قبيل الزيادة المطردة للسكان وتعدد فئاتهم الاجتماعية وكثرة طوائفهم الدينية • حيث عبدت كل طائفة الها حتى قيل انه كان في تسنا وحدها حوالي ٦٥ معبدا لمختلف الآلهة التي عبدتها مختلف الفئات فأصبحت وحدة المجتمع وتماسكه مهددة بالانهيار • وقدس الناس الآلهة التي خلقوها بأنفسهم • فأصبحت منافسة لاله الدولة الكبير في مكانتها الروحية عند الانسان مما اضطر الدولة الى اعادة النظر في هذه الوضعية الدينية الجديدة التي قللت من شأن اله الدولة الكبير واصبحت ناقوس خطر يهدد سلطة الدولة وهيبتها المعنوية لدى مواطنيها فكان لا بد من حسم لمثل هذه الامور قبل ان تستفحل وتفقد الدولة سلطتها كلية على مواطنيها وان ضبط الامور وانهاء تلك الملابسات والمداخلات الدينية والدنيوية ضرورة تحتمها مصلحة الدولة السياسية ولم يكن في الامكان في تلك الفترة منع الناس من عبادة الالهة أو حتى الحد منها • ولذا

فملاءمة للظروف والاوضاع السائدة كان لا بد من مخرج لمثل تلك الازمة الاجتماعية السياسية دون اتاحة الفرصة لاعداء الدولة في استغلال مثل هذه القضايا ليحولوها الى مشاكل معقدة في وجه السلطة • ولم يكن هناك حل افضل من ذاك الحل الديني • فخلق الاله الواحد تلبية لتلك الحاجة الضرورية لدى الدولة واستجابة لظروفها السياسية وأوضاع المجتمع العقائدي الممزقة • فحصل هذا التطور على ما يبدو عند المعينين والحضارمة أول ما حصل •

(٤) نظام الحكم

ملكية الدولة لوسائل الانتاج (اقطاعية الدولة)

لا أريد هنا ان اتسرع بطرح رأي حول نوعية نظام الحكم في الممالك اليمنية القديمة الا ان كتب التاريخ تشير جميعها الى ان حضارات الشرق لم تتعرف على النظام العبودي والى ان هذا النظام كان فقط سائدا في الشرق واثينا وروما • نتيجة لوجود مصادر كثيرة للرقيق في تلك المجتمعات فما هو نوع النظام اذن في اليمن بالذات ؟ • يرى ماركس ان هـذا المجتمع كغيره من مجتمعات الشرق لـم يتعرف على الملكيـة الخاصة للارض نتيجة لنـوع منـاخ الاقاليم وأثره على طبيعة الأرض وعلى تربتها ، حتى النظام الاقطاعي الفردي كان يبدو من المستحيل قيامه في ظروف طبيعية كهذه • فما هو نوع النظام اذن في اليمن التي كانت تبدو في طبيعة مناخها متقلبة متغيرة كما ان طبيعة تضاريسها الجغرافيـة التي كانت لا تسمح لقيام ملكية اقطاعية كبيرة للارض هي المتحكمة فـي نوعية النظام ؟ ويتساءل ماركس اذن كيف تم وأمكـن ان لا يتوصـل الشرقيون الى وعي قضية الملكية الفردية للارض •• حتى ولو بشكلهـا الاقطاعي وهذا يعني ان نوعية النظام ستكون نتاجا طبيعيا لهذه الأوضاع الطبيعية • ولنضع ذلك جانبا لنتعرف بصورة موجزة على طبيعة المشاريع التي كانت تنفذ في تلك الفترة • لقد شق اليمنيون الطرق التجارية الطويلة والتي اوصلت اليمن جنوب الجزيرة العربية بشمالها فوق الجبال الوعرة

والصحاري الرملية الشاسعة كما قاموا بشق الانفاق لتكملة هذه المهمة الاقتصادية • وحفروا المناجم في بطون الجبل واستخرجوا منها المعادن ــ الرخيص ومنها الثمين وقاموا ببناء السدود لتخزين المياه وتطويع الطبيعة بدلا من الاستسلام لها ولتقلبات الجو والمناخ • ورووا الصحراء بماء السدود فحولوها الى جنات خضراء وارفة الظلال في وسط صحراء محرقة ملتهبة • وبنوا المدرجات العظيمة فوق الجبال لقلة الأرض الزراعية في المناطق الجبلية وحصنوا المدن بأسوار عالية • وبنوا المعابد العظيمة • من كل هذه الاعمال نشتم رائحة الجهد الجماعي والذي لا شك ان دولة مركزية قد نظمته • وقد اثبتنا في السابق انها ليست ذات صفة عبودية • كما ان هذه الاعمال العظيمة لا يمكن ان يقوم بها الاقطاع الفردي والذي لم تتعرف عليه اليمن عبر تاريخها الطويل في الماضي كما يؤكد ماركس (لم تتعرف على الملكية الخاصة للارض) وكما يقول في مكان آخر : (ان دول الشرق رفضت هذا النوع من النظام • فما هو النظام اذن) دولة مركزية غير عبودية واعمال عظيمة لا يقوم بها الاقطاع الفردي ان ذلك سيوصلنا الى قناعة بأن اليمن في تلك الفترة قد تعرف على شكل متقدم من النظام فوسائل الانتاج من سدود وخزانات وطرق تجارة ومناجم تعد من ملكية الدولة وطالما تشير الدلائل كلها على ان النظام لم يكن عبوديا فهو اقطاعي الا ان غياب الملكية الخاصة التي يشير اليها ماركس وأنجلز في رسائلهما المتبادلة يجعل من النظام اقطاعيا غير فرديا يمكننا ان نطلق عليه تسمية (اقطاعية الدولة) ذلك ان كل وسائل الانتاج ملكية الدولة الغير عبودية وقد فرضت طبيعية الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية آنذاك ان تستحوذ الدولة على كل المرافق العامة فافتراض هذا الوضع وبالضرورة وحدانية العبادة حتى تتمكن الدولة من انجاز مهماتها على اساس من رعاية الاله الواحد والملك الواحد والدولة المركزية الواحدة •

(٥) تعدد التضاريس وقسوتها

لقد لعبت التقسيمات الجغرافية التي احتوتها الارض اليمنية دورا كبيرا في عملية خلق الاله الواحد والتعلق به وبشيئته القدسية بل وفي عبادته عندما اقتضت الضرورة ذلك •

فالارض اليمنية احتوت الساحل والجبل والسهل والصحراء هذا التعدد في التضاريس الطبيعية كان يتطلب التوحد الروحاني في نفس الانسان اليمني ووعيه ومشاعره • فالساحل الذي عاش فيه تجثم بالقرب منه أمواج متزعة تهدده في لقمة عيشه وفي قوته اليومي في صيده وفي تجارته وعلاقته ببلدان ما وراء البحار بالهند والصين وشرق افريقيا التي تاجر معها وأخذ منها وتأثر بها في معتقداته وأفكاره • فكيف يقهر تلك الأمواج ويسير سفنه وهو لا يملك الا ادوات ابحار لا تتجاوز السفينة الشراعية والمجذاف ؟ وهل يضحي بعلاقته بعالم الحضارة والتجارة ؟ وماذا يأكل ان استسلم لأمواج المحيط ؟ والبحر يمده بما يحتاج اليه من صيد لا بد ان يقاوم ليأكل ولا بد ان يخضع أمواج البحر ليتاجر • ولا بد ان يرتبط بعلاقات مع دول العالم المتحضر • ولم يكن يملك حينها أدوات وآليات متقدمة لينفذ مشيئته ورغبته في البقاء والتجارة والازدهار ولم يكن أمامه سوى اللجوء الى الغيبيات بعد ان عجزت الآلهة المتعددة على ضبط مثل هذه الامور المعقدة والصعبة وتذليلها بقوة انسانية بذلها هو ونسبها الى الآلهة العاجزة فالتجأ الى تلك القوة الروحانية لعلها تذلل الصعوبات امامه وتساعده على القيام بتلك المهمة •

اما قسوة الجبل اليمني بارتفاعه الشاهق ورؤوسه المدببة فقد منعته من الزراعة عليها • وصحيح انه قهر جزء منها فبنى المدرجات الضيقة والتي لا تتجاوز امتار عدة في كثير من المرتفعات الجبلية وبقي يزرعها بصعوبة بالغة وكانت الامطار تسحبها فتحرمه من منتوجه الذي بذل الجهد فيه طوال السنة • أوليس هذا الانسان بحاجة الى اله غيبي

يساعده مع أدواته البسيطة على شق الجبال وتسطيحها وتحويلها الى أراضي زراعية بعد ان عجزت الآلهة الكثيرة بل وعجزت حتى الشمس بضوئها وحرارتها وكل عظمتها ان تساعده في الحصول على لقمة عيشه فاتجه اليه هو الاله القادر على كل شيء .

والصحراء المترامية الاطراف المتسعة طولا وعرضا والقاسية الحرارة الشحيحة العطاء هي جزء من أرضه عاش فيها وسكن في قلبها وسير قوافله بها ، وهو يعاني من حرارة شمسها وجفاف جوها وشحة عطائها . أليس بحاجة الى اله غيبي بعد ان عجز حتى القمر رغم تخفيفه لكثير من معاناة انسان الصحراء من نهارها القاسي ؟

وبالرغم من ان القمر قد أدى واجبه في حدود وضعه الطبيعي فساعده كذلك على تسيير قوافله التجارية وآنسه في رحلته الطويلة بين الشام وفلسطين ومصر والعراق واليمن . الا انه لم يستطع ان يتدخل في وظيفة الشمس مما حز في نفسه فذهب يبحث عن اله غيبي يخضع الشمس ويخفف من حرارتها وينعش الارض ويرعى القوافل التجارية فيحرسها من لصوص الصحراء ويضللها بغمائم سحب في النهار من الشمس المحرقة ويساعد المسافر في رحلته المتعبة المضنية فيوقف الرياح وهبوب الرمال والأعاصير في وجهه ، حيث كانت الصحراء تلتهمه عندما يتوه فيها .

انه بحاجة الى اله باذنه تنبت الارض الجافة وترعى الابل والماشية وينمو النخيل ويعطي ثماره . ولن يكون سوى اله كلي القدرة قادر على التحكم في هذه الظواهر الطبيعية . فيخلق المعجزات ويأتي بعظائم الامور فليكن (رب السماء) التي يسقط منها المطر ويتعلق بها الشمس والقمر ويزحف منها الليل والنهار .

اما السهول حيث تجري الأودية وتعد من أخصب المناطق اليمنية ، فقد كانت في بعض الأحيان عرضة للجفاف نتيجة لانقطاع المطر ونضب

المياه في العيون • ورغم جهوده العظيمة الذي بذلها في سبيل بناء السدود حتى لا يقع كلية تحت رحمة الجو المناخ ومواسم المطر ، الا انه كان كذلك بحاجة الى من يضبط الامور اكثر فيسقط المطر بانتظام كي لا تخف الاودية ولا تفرغ السدود وخزانات المياه فتصاب الارض بالقحط والزرع بالجفاف والحيوان بالموت والهلاك ولن يكون بهذه القدرة الا الاله الواحد فليخلقه في ذهنه وفكره ومن يدري لعله فعلا يعينه وينجده وقت الحاجة والضرورة الا ان انسان السهل كان أقل حاجة الى هذا الاله لأن طبيعة أرضه أقل صعوبة من طبيعة الاراضي الاخرى الجبلية والساحلية والصحراوية لذا فقد كان حماسه لهذا الاله أقل حرارة من حماسة بقية ابناء المناطق الاخرى فلقد مكنته طبيعة ارضه من ان يتغلب على بعض الصعوبات كقلة الامطار بناء الخزانات والسدود لحفظها لوقت الحاجة •

ان اله (رب السماء) الذي خلقته الضرورة والحاجة في ذهن مجموعة متميزة اجتماعيا فرضته في بداية الامر ثم لقي قبولا عند عامة الناس فيما بعد لكونه حسب تصوراتهم مصدر العطاء والرزق فأقاموا صلواتهم وطقوسهم الدينية لتحقيق تلك المطالب الحياتية وصب الاهتمام (برب السماء) من أجل العطايا بالدرجة الاولى أما فكرة الحساب والجزاء والآخرة وغيرها مما لم يكن مفهوما لديهم وغير قادر على تخفيف مشاكلهم وقضاياهم اليومية فليس هنالك ما يشير اليها في النقوش الا اننا لا نستطيع ان نجازف بعدم ورودها في معتقدات اليمنية آنذاك فما زال الكثير من النقوش مجهولا وما زالت المنطقة بحاجة الى المسح الجيولوجي وما زلنا بحاجة الى استنباط الوسائل للتعرف على كثير من جوانب الحضارة اليمنية بصورة خاصة •

(٦) التمزق السياسي

ان الاوضاع السياسية الممزقة التي عانى منها اليمنيون وكانت هي الصورة الشاذة في واقع طبيعي اجتماعي واحد قد حملت اليمنيين على

التفكير بها وصب كل جهودهم لانهاء هذه الوضعية المخالفة والمضادة مع أمانيهم وطموحاتهم في تحقيق وحدة الامة اليمنية حيث دعت الضرورة المعيشية والواقع الحياتي للانسان اليمني وللجماعات الى فرض نوع من الهدوء والاستقرار بين الممالك .

لقد شهدت الممالك اليمنية حروب كثيرة اشعلتها بالدرجة الاولى المصالح الاقتصادية لكل مملكة على حدة وللقبائل التابعة لها فالرغبة في تأمين طرق التجارة للقوافل من جهة والاستحواذ على ممتلكات الممالك الاخرى من جهة اخرى سواء أكانت زراعة المر واللبان او الاتجار بـه او الاستيلاء على مناطق المعادن الثمينة كالذهب والعقيق او تحويل مجرى الأودية الى أراضيها كل هذه الامور كانت مصدر اشعال الفتن والحروب بين الممالك اليمنية بل وفي أحيان كثيرة بين القبائل التابعة لنفس المملكة او الخاضعة لعدة ممالك متجاورة فها هي مثلا جماعة من المغيريين السبئيين يعترضون طريق قافلة معينة وينهبون كل ما بها من أموال ولا يتركونها الا شذر بذر فتضطر الى الالتجاء الى دولتها وتشتعل بين المملكتين حروب مدمرة كما حصل عندما قامت الحرب بين (ذي يمنت) و (ذ شامت) .

ان تتبع الأحداث السياسية والحروب العسكرية بين تلك الممالك اليمنية يتطلب منا وضع دراسة خاصة بذلك ولذا سأكتفي هنا باشارة بسيطة الى تلك الحروب التي قامت بينهم فقط من أجل استخلاص النتيجة التي أرغب في وضعها وهي قضية التوحيد الالهي لقد قامت عدة حروب بينهم كلها بسبب مصالح اقتصادية او اطماع سياسية بقصد التوسع على حساب المملكة المجاورة فها هي مملكة قتبان تضم وتنشأ في مفترق طرق التجارة بين حضرموت ومعين لتشطر معين وحضرموت وتضرب العلاقات الودية التي كانت بينهما وتحتل مسافة واسعة من الصحراء والسهل وتحاول ان تجد لها منفذ بحري فتتوسع وتصل في غزواتها وحروبها الى ساحل عدن كما ورد عند (ياقوت الحموي) . وها هي مملكة

حضرموت تزيل (تمنا) عاصمة قتبان من على خارطة جنوب الجزيرة وتتوسع في غزواتها وتتسع مساحتها حتى تصل الى جوف اليمن وتمد سبأ حدودها الى تخوم الحجاز ونجد وتلتهم معين باسرها تنشأ مملكة وتتحطم الاخرى ويبزغ نور حضارة في بقعة معينة ويأفل نجم اخرى في مكان آخر وتستمر هذه الحالة المؤلمة لنفسية الانسان اليمني حين يقاتل بسبب تلك الحروب أهله وذويه فقد تنشطر قبيلته الى شطرين كل جماعة منها تابعة لمملكة ، وللملك فيتحفز لقتال أهله ويتحفز أهله لقتاله ويشهد التاريخ اليمني حتى يومنا هذا ببؤس هذا المشهد اب يقتل ابنه وابن يقتل أباه او أخ يطعن في قلب أخ له كل تلك المآسي تسببها الاطماع السياسية للسكاربة والملوك والذي أدى الى تمزق المنطقة سياسيا رغم الواقع الطبيعي والاجتماعي الذي يشهد على وحدتها .

ولقد آلمت هذه الوضعية الانسان اليمني الفرد والجماعات ، وقد بدأ يبحث عن مخرج يعود اليه في الشدائد فيخفف من ذاك التمزق والضياع انه بحاجة الى سلطة واحدة ذي قدرة خارقة تقهر التمزق وتعيد وحدة ارضه وبيته وتبعد عنه شبح الحرب مع أهله واستغل هذه الرغبة المكربين والملوك استغلتها الدولة فجهزت الحملات الكبيرة باسم اله واحد (رب السماء) وبالرغم من ان هذا الموضوع بحاجة الى بحث تاريخ منفرد الا اني اميل الى الاعتقاد ان تلك الحملات الكبيرة التي شهدتها الممالك اليمنية قد كانت باسم تثبيت سلطة الاله المتعددة ثم اله الواحد لحاجة الناس الملحة اليه بعد ان استطاعت السلطة ان توجه شعور الناس وتمكنت من اخضاعهم بواسطة هذا الاله لسلطتها المركزية العليا ودخول الملك لنفسه مسئولية التحدث باسم الاله الأكبر واصدار التشريعات والقوانين الموافق عليها من قبله وتمكن بذلك من السيطرة على اطراف مملكته ولقي عند الناس الرغبة الملحة والتقبل النفسي والذي هيئته له تلك الاوضاع مجتمعة الطبيعية والاجتماعية والسياسية فأقبل الناس على (بعل سمن) يتوددون اليه ويقدمون ولاء الطاعة (لذي

يسمونه) (رب السماء) دون ان يتعرفوا عليه كما تعرفوا من قبل على تلك الآلهة الكثيرة ثم على الكواكب الثلاثة لاعتقاده بأن تلك القوة المجهولة هي التي تمسك وتحرك كل شيء بيدها •

(٧) الاوضاع الاقتصادية

تشير كتب التاريخ الى ان القاعدة المادية للاقتصاد اليمني آنذاك قد قامت على الزراعة بالدرجة الاولى والتجارة والتعدين • ولقد اعتمد الانسان اليمني في انتاجه على وسائل الري الاصطناعي حين بنى السدود التي اوصلت كل مملكة بالاخرى لامتدادها على طول وعرض الممالك فكانت عامل مهم من عوامل الربط بين الممالك كما كانت عامل من عوامل الحروب والفتن بينهم عندما كانت تتم عملية حجز المياه عن مملكة اخرى او تحويلها او استحواذ قبائل دولة من تلك الدول على مياه الامطار دون قبيلة اخرى وقد يجعلها ذلك تضطر الى الاذعان لمطالب القبيلة المجاورة فتسلم بما تريد خوفا من الموت جوعا وعطشا وقد تتودد اليها بتقديم ولاء الطاعة الى آلهتها •

ان توفير المناخ الملائم لازدهار التجارة كان يتطلب وبالضرورة استقرار وأمن بين تلك الممالك المتحاربة فيما بينها على الدوام لاعتقاد كل مملكة بالاحقية التاريخية في أراضي مملكة اخرى وفي انتزاع ذالك العرش من مكانه وتثبيت عرش آخر محله واخضاع اطراف المملكة المتمردة والمطالب بالانفصال بل وفي اوقات كثيرة المنفصل والمؤسس مملكة اخرى اخضاعه للمملكة الشرعية واعادته الى الحظيرة حتى لا يهدد القوافل التجارية بالدرجة الاولى التي كانت في داخل أراضي كثير من الممالك اليمنية فالطريق التجاري الذي يمتد الى شمال الجزيرة العربية كان يمتد من قنا (بئر علي) على الساحل الحضرمي الى (تمنع) عاصمة قتبان (فمأرب) داخل الاراضي السبئية (فقرناو) • المعينية ثم (الديدان) (العلا) وهناك يتفرع في عدة اتجاهات يجري كل طريق منها الى

مملكة من ممالك الشمال ولقد كان على هذه الممالك ان تؤمن سلامة هذه القوافل داخل اراضيها وفي اطراف مملكتها من لصوص الصحراء تثبيتا لقوتها العسكرية وهيبتها السياسية من جهة ومن جهة ثانية حتى يتم تأمين قوافلها هي كذلك والتي كانت تشترك في تلك الرحل الطويلة بين جنوب الجزيرة وشمالها ولقد كان لتجار كل مملكة مصالح في أراضي الممالك الاخرى من هنا فقد تداخلت المصالح التجارية ببعضها وتطلب ذلك حام أعلى يقوم بعملية الحراسة للقوافل والاشراف على التجارة المتحركة من الممالك وما كان يستطيع ان يوفر تلك الحماية غير اله قوي أمين جبار كلي القدرة .

ان مناطق المعادن الثمينة في بعض الممالك اليمنية كالحضرمية والمعينية والسبئية قد ولد اطماع ملوك الممالك المجاورة فرغبت في الاستحواذ عليه ووضع يدها على مناطق استخراجه فجهزت لذلك الحملات الكبيرة وشنت الحروب الطويلة المنهكة باسم الاله التي رغبت في امتلاك تلك المعادن وفرضتها على القبائل المهزومة وتأثرت بعبادات الاقوام المهزومين كما حصل عندما عبد الحضارمة المقه وعبد القتبانيون (عم) آلهة معين وتسمى ملوك حضرموت بأسماء ملوك معين التي تبدأ أو تنتهي باسم الاله (ايل) (صدق ايل) اول ملوك حضرموت كل ذلك التقارب في عبادات الآلهة كان العامل الحاسم فيه اشتعال الحروب التي كانت العوامل الاقتصادية هي المتحكمة فيها المؤججة احيانا والمهدئة حين آخر . ولقد وجدوا في الاله الواحد عامل حاسم لاشعال الحماس في النفوس وللالتفاف حول الملك الراغب في غزوة او معركة فدعو باسمه وتبنت الدولة هذه الدعوة وقام عليها الملك وروج لها كهنة المعابد خدمة لمصالحهم الخاصة ومصالح الملك والدولة ثم لقبائلهم وأقوامهم . والتفت جماهير الناس حول الشعار وراحوا يحولونه الى واقع ملموس بتجسيده في صلواتهم وعباداتهم والتمسك به في حروبهم بل وشن الحروب باسمه لغرض سيطرته وسطوته على المناطق التي رغبوا في احتلالها لأجل استخراج معدن ثمين او الاستيلاء على زراعة معينة خاصة تلك الزراعة

التي اشتهرت في ذاك الوقت المر واللبان او المتحكم في منفذ تجاري كل هذه الحوافز والدوافع الاقتصادية هي التي حركت الاطماع السياسية تحت شعار فرض اله القبيلة على بقية القبائل او تحويل عبادة تملك القبيلة من اله الى الـه آخر فيما بعد فرض (ذي سموي) (رب السماء) والذي عثر على اسمه في نصوص المسند في ثمود كما يورد ذلك الدكتور جواد علي في موسوعته التاريخية « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » .

التوحيد اليماني أساس التوحيد العبري .

ان تطور الاديان والذي بدأ بتقديس الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والمفاهيم العامة المجردة كالخير والشر ثم نزح عليها الى عبادة الاصنام المتعددة الاشكال والاسماء والتي ترمز في النهاية الى الكواكب البائنة في السماء كالزهرة والشمس والقمر ثم المتوصل الى التوحيد باله مجهول الهوية غيبي يسكن فوق السماء قد شهدته اليمن ابان حضارتها قبل الميلاد .

ولقد تعبد اليمانيون للالهة فتقربوا اليها واسترضوها بشتى الوسائل والطرق كما اشرت سابقا واختاروا لها الاسماء والصفات وتيمنوا بها فوردت اسمائهم بعد اسم الصنم او الاله مثل (ايل يشرح) (ايل يفع) (ايل يثع) او (يدع ايل) (يسمع ايل) او (سعد ود) (عبد شمس) ويبدو من نقطة ايل المتكررة في اسماء ملوك اليمانيين انها صفة لالـه وتعني القادر (صدق ايل) أي صدق القادر او القوي الجبار . ثم جاءت عقيدة التوحيد باله واحد يسير الحياة والعالم . ولقد اختلفت الآراء في مفهوم كلمة الله ولم ترد اللفظة في العبرانية وورد لفظة اله (ايلوه) بالرغم من ان كثيرا من علماء المسلمين ومؤرخيهم من الاخباريين وعلى رأسهم الرازي يعتقدون ان اصل الكلمة سرياني او عبراني ويذهب بعض المستشرقين ان لفظة (الله) التي استخدمت في الاسلام انما هي من بقايا الوثنية وهو اسم صنم كان بمكة يعبد من قبل القرشيين ووردت

في الخط المسند كلمة (بعل) معناها مالك او صاحب او رب وكلها كلمات ترمز الى الاله (بعل غمدان) التي يراها (روبرتسن سمث) انها مقتبسة من الاقوام السامية التي سكنت طور سيناء • ويراها (نولدكه) و (ولهوزف) انها عبادة سامية قديمة عرفت عند قدماء العرب منذ عهود سحيقة في جنوب الجزيرة العربية وقد اطلقت هذه اللفظة على الارض التي تعتمد في زراعتها على الامطار والري الصناعي وان الساميين سكان الجزيرة العربية بالذات قد خصصوا للالهة المتعددة قطع من أخصب أراضيهم كوقف لتسن عليهم بالخير والبركة فلقد تحكمت بيئتهم الجغرافية في هذه القضية الى حد كبير فخصصوا للآلهة جزء منها لتكون الارض في حماها وبالتالي حياتهم وازدهارهم وحضارتهم فتحولت كلمة (بعل فلان) عندما انذرها الأهلون للاله الى (بعل سمين) والتي تعني (رب السماء) يقصد بهذا ان تلك الارض هي في ملكوت اله غيبي هو الذي ينزل المطر عليها ليسقيها ذلك انه اله البركة والخصب الا انها تصب في النهاية في مفهوم واحد هو السقي بالامطار المتقطع والتي كانت تتحكم فيه آنذاك بالنسبة لانسان تلك الفترة قوة واحدة تسقطه متى ما رضيته عنه أي بدون انتظام كما يشهد بذلك الوضع الجغرافي والمناخي في جنوب الجزيرة العربية •

فلقد حاول اليمانيون ان يرجعوا الكثر في الآلهة الى مفهوم الوحدانية لها فكان التدرج الذي تم في عبادة الاله من شتات عديدة في الاله بلغ اكثر من مئة اسم رغم ان جزء كبير منها نعت وصفات للاله الى حصر لها في كواكب ثلاث ذات تأثير على الانسان الى مفهوم لاله جديد هو (بعل سمين) الى اله سمي ذي سموى (أي رب السماء) ويبدو ان اللفظة متطورة من (بعل سمن) كما ان فكرة جديدة قد وردت في اللفظة الجديدة فكما يذكر علماء اللغة ان (الرب) هو الله وهو رب كل شيء أي مالكه وليس فقط رب ومالك لقطعة ارض صغيرة انذرت له وباسمه وان هذا الرب له حق الربوبية على جميع الخلق لا شريك له وهو رب الارباب ومالك الارض والسماء كلها وعلى الانسان ان يسلم مشيئته

اليه والى مشليه على الارض المتسجد في الملك او المكرب • كما وردت في نصوص المسند كلمة (الرحمن) وهي صفة لرب السماء (ذي سموي) حتى ان أبرهة الحبشي قد استعملها في نص سد مأرب الشهير ولقد قدم له اليمانيون النذور والعطايا فتعبدت له قبيلة (امر) ليرسل المطر وينشر الخير للناس كما ورد في نص بالمسند (وذ سموي ليزا مقضي شعبهو) أي أن معناها (وليمتع رب السماء شعبه) كما وردت في نصوص قتبانية كلمة (ال تعلى) ومعناها حسب تفسير علماء الآثار والتاريخ (الله تعالى) •

ان كل هذه الالفاظ التي وردت في النقوش الى جانب التطور الذي حصل في عبادة الآلهات ومفاهيم الكلمات التي تطورت هي بدورها بحسب ما اقتضته الضرورة تدل دلالة أكيدة على ان التعاليم الوطنية اليمنية قد شكلت بالفعل الخلفية الفكرية والفلسفية للديانات التوحيدية ابتداء بالابراهيمية وانتهاء بالاسلام وان جميع هذه الاديان قد تطورت من المفهوم الاولى للتوحيد اليماني فهي لم تفتعل ولم تخترع ولم تخلق تلك الفكرة بل وجدتها كمناد اولي وأساس في العقيدة التوحيدية واضافة عليها ما أرادت ان تضيفه ليتناسب مع طبيعة ظروفها وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • فقد كانت العقائد وكما هي ستبقى الملبي الذهني لحاجيات المجتمع وظروفه ذلك ان التوحيد اليماني قد أدى دوره حسب المتطلبات الاجتماعية للقبائل اليمنية بمرونة لا تحد وكان عليه بعدما انتقل الى شمال الجزيرة ان يتكيف بحسب حاجة أقوام تلك المنطقة ويتغير ويتطور مع نشوء التوحيد المصري (اخناتون) ومع طلوع الشمس اليهودية ليلبي حاجيات المجتمع الاسرائيلي (العبراني) ثم مع المسيحية وعيسى وأخيرا مع مجتمع الجزيرة العربية في نجد والحجاز من ثم في طول وعرض الجزيرة مع الدعوة المحمدية •

وبحكم العلاقات الاقتصادية التجارية المتبادلة بين شعبي جنوب الجزيرة العربية وشمالها حيث عاش الآراميون هناك والذين ينتمي اليهم

ابراهيم الحنيف فقد حدثت تأثيرات متبادلة سواء أكانت اجتماعية أو فكرية او سياسية وتأثر الآراميون بفكرة التوحيد اليمانية فاحتضنها وتبناها ابراهيم الحنيف واريد هنا ان اعرج تعريجا طفيفا على كلمة حنيف وأصلها التاريخي كما وردت في كتب التاريخ يرى بعض المستشرقين ان لفظة (حنيف) اطلقت على القائلين بالتوحيد في الجزيرة وقد ظهروا أول ما ظهروا في اليمن ونادوا بالتسليم لرب السماء ودعوا الى عبادة الرحمن وقد تأثرت اليهودية والنصرانية بهذه الديانة اليمنية حيث يراها انجلز انها من التقاليد الوطنية العريقة للشعب اليمني وان جزءا صغيرا منها كان العمود الفقري للديانة اليهودية فيقول بالحرف الواحد (لقد تبين لي بما لا يقبل الشك فيه من الادلة ان كتب اليهود ليست سوى سجل للاعراف والتقاليد الدينية من القبلية اليمنية) ويعتقد ان اليهود قاموا بتحريفها ونسبها اليهم وانكار أهلها الشرعيين ولقد وجدوا في الكوارث التي حلت بالشعب اليمني نتيجة للفتن الداخلية والاهمال لكثير من جوانب الحياة الاقتصادية والرفاهية الزائدة التي أدت الى الانهيار الاجتماعي وتحول طرق التجارة والهجرات الجماعية قبل الغزو الحبشي الذي أكمل ما تبقى لتلك الحضارة من حياة وجدوا في كل ذلك المدخل للاستلاب التاريخي الذي حل بالحضارة اليمنية وتقاليد شعبها العريقة ليزوروها وينسبوها لأنفسهم فيقول انجلز (وقد حرفت بعد ان شط المزار باليهودية عن اقرباء عصبتهم وجيرتهم بعد تشردهم وانفصالهم عنهم) ويؤكد (على ان مادة النقوش اليمنية بالمأثورات التي اشتملت عليها وكذلك القرآن كل هذه تميط اللثام عن ان اهم محتوياتها الاساسية عربية أصيلة) . لقد انصف ماركس وانجلز التاريخ اليمني برأيهما ذلك والذي كان دراسة عميقة ومستفيضة للتاريخ الانساني عامة وللتاريخ اليمني هنا بصورة خاصة وبالرغم من محاولات اليهودية انكار اقتباسهما للتقاليد اليمنية تلك الا ان حوادث التاريخ والترتيب الزمني الصحيح لها يؤكد ان القبائل والاقوام التي عاشت في اليمن تعرفت على الحضارة قبل ان يكون لليهود كيان بعشرات من القرون وبالرغم من ذلك فانه يمكننا ان

نلمس من التورات اعتراف ضمني بتلك الحضـارة وتقاليدهـا تكوين (ويطعان ولد الوداد وشالفا وحضرموت ويارح وهدورام واوزال ودقله وعوبال وابيمايل وشبا واوفير وحويله ديوباب جميع هؤلاء بنو يقطعان وكان مسكنهم من ميشا حينما تجيء سفار جبل المشرق هؤلاء بنو سالم حسب قبائلهم كالسنتهم باراضيهم حسب امسهم (هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم باسمهم ومن هؤلاء تفرقت الامم في الارض بعد الطوفان حسب مواليدهم باسمهم ومن هؤلاء تفرقت الامم في الارض بعـد الطوفان)اذن فهؤلاء القوم لا شك وانهم حملوا معهم تقاليدهم واعرافهم الى الامم التي اختلطوا بها وتعايشوا معها فأثروا عليها كما تأثروا بهـا وكانت فكرة التوحيد حسب اخبار الكتب المقدسة موجودة وقائمـة وبالرغم من ان الماضي البعيـد صعب التحري والتحقيـق لذا فالبحث سيشمل الفترة التي بدأت فيها الكتابة بالنقوش والتي ترينا ان لفظة حنفاء قد وردت بالخط المسند وانها تعني التسليم لاله غيبي .

فالاحناف اذن هم الذين سلموا اوجههم (لرب السمـا) او بالمعنى الاسلامي (لله) حيث ورد في القرآن سورة ابراهيم (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخـذ الله ابراهيم خليلا) . والمتحفي كما وردت عند الزبيـدي في تاج العروس هو المتعبـد المتدين وهو بمعنى التوحيد أي اثبات الفاعلية الدينوي لله.

وأكد القرآن على ان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا حيث وردت سورة آل عمران (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفـا مسلما وما كان من المشركين) . وتدعم كتب التاريخ رأي القرآن في قضية ابراهيم ومحاولة اليهود تهديده رغم ان كـل مؤشرات التاريـخ وأحدا ووقائعه تريا ان ابراهيم من أصل آرامي ولد في منطقة الكوفة في العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ويقال ان أهله وذويه قد نزحوا من جزيرة العرب ولا يعرف بالتحديد في أي موضع من الجزيرة عاش آبائه وأجداده الا انه مما لا شك فيه انه قد تأثر بالحضارة اليمنيـة

والافكار والمعتقدات الوحدانية التي آمن بها اليمانيون ويدعم قولي هذا ببراهين وردت في القرآن (ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) ومن المستشرقين من آكد عبر دراسته للنقوش وجهة نظر الاسلام حيث يقول (نولدكه) ان حنف من أصل عربي وقد وردت لفظة (حنف) في العربية الجنوبية وردت بمعنى (صبأ) أي مال وتأثر بشيء ما وقد اطلقها الاسلام على نابذي عبادة الاصنام ومن وجهة نظر الاسلام وعلماء الاسلام ان هناك من دعي الى نبذ هذه العبادة والتوجه الى (رب السماء) من جنوب الجزيرة العربية وهم اتباع هود وصالح والذين ارسلا الى قوم عاد وثمود قبل ابراهيم الحنيف بقرون عديدة سورة الاعراف (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم اله غيره أفلا تتقون) هود (والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالك من اله غيره ان انتم الا فاقدون يا قوم لا أسألكم عليه اجرا ان اجري الاعلى الذي فطرني أفلا تعقلون) قد افلح (ثم انشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون هيهات هيهات لما توعدون ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) •

يبدو سكان جنوب الجزيرة قد عرفوا البذخ في حياتهم وعاشوا في نعمة من العيش وفي حضارة لا يضارعها في الجزيرة العربية حضارة وقد ذكر القرآن هذه النعم وهذا البذخ الذي عاشوا فيه حتى بلغ بهم الحد ان استكبروا وعاثوا في الارض فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) ويذكر القرآن بعد ذلك العذاب الذي انزل بهم وهو نوع من التخويف لسكان الجزيرة العربية الذين اراد محمد ان يألف منهم امة واحدة ودولة واحدة وحضارة متماسكة ذات بأس شديد وقوة • (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد) وعاد وثمود قبيلتين سكنت جنوب الجزيرة وأرسل اليها هود وهو كما تذكر كتب الاخباريين انه ابن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر ابن ثمود بن عابرين ارم بن سام ابن نوح • فقد ورد في سورة النمل (ولقد ارسلنا ثمود اخاهم صالح ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون) ويبدو من هذه الآية ان فتنة

قد نشبت بين اليمنيين الموحدين ومن بقي على عبادة الاصنام او الكواكب أما في نسب ابراهيم فتورد كتب الاخباريين والتوراة ان ابراهيم هو ابن شارخ بن ناحور بن ساردع بن راغوا ابن فالح بن عابر بن شالخ بـن ارفخشو بن سام بن نوح) اذن فكتب الاخباريين التي أوردت الاسماء والنسب الى جانب اخبار التوراة وأحاديث القرآن كلها تثبت ان انبياء جنوب الجزيرة العربية منهم هود وصالح قد جاءوا ودعوا الى التوحيد قبل ابراهيم وبصرف النظر عن دقـة اخبارهم والانساب الدينيـة التي وردت عندهم ولم ترد في النقوش الا ان ما يهمنا هو ان ندعم وجهـة نظرنا مستفيدين من المصادر في عملية التحليل للواقع اليمني في تلك الفترة التي أدت الى خلق ديانة التوحيد عند اليمنيين قبل غيرهم مـن الاقوام وقد ورد في الماركسية ما يدعم أخبار القرآن بل (ولقـد اولت لهذه الظاهرة عند اليمنيين اهتماما بالغا حيث وردت في رسالة انجلـز الى ماركس (عام ١٨٥٣) آراء وأقوال تدعم وجهة نظرنا هو « ان التعاليم التي اشتملت عليها النقوش يشكل مجرد جزء صغير منها قوام الديانة اليهودية •• والاســلام) •

ويقول انجلز عن الدين الاسلامي الحنيف الذي انتهج منهج ابراهيم (وفيما يخص الدين الاسلامي يبدو انه ذو صلة واشجة وطيدة بالتعاليم التي جاءت في النقوش اليمنية القديمة وهي التي لا يزال الموجود منها يشير الى ان التقاليد الوطنية العريقة والقائمة على التوحيد هي الطابع السائد)• اذن فالاسلام الذي يعتز انه على دين ابراهيم حنيفا انما فكرته التوحيدية من اصل يماني ذلك ان العقيدة الحنفية يمانية • الا ان سقوط الحضارة اليمنية الذي جر الى خراب قضية التوحيد من جنوب الجزيرة وتحولها الى شمالها وليس قتل الناقة ولا عصيان أوامر صالح ولا تمرد الناس على طاعة رب السماء هو الذي جر الى سقوط الممالك اليمنية وتلك الحضارة وتحولها بما فيها من عقائد الى الشمال ونسيان الناس لها كلية •

ان وقائع التاريخ التي اوردناها سابقا والاثباتات المادية التي وردت

هي التي تشهد على صحة ما نذهب اليه ولنسر مع تطور الحوادث التاريخية خطوة خطوة فيبدو لنا من تسمية ابراهيم الخليل وهو المعروف في التوراة (ابرام) وصفة الخليل مقسمة قسمين (الخل ايل) أي المقرب الى الآلهة ايل • والمعروف ان ايل اله معيني عبد في معين قبل الميلاد بما يزيد عن عشرين قرنا وتيمن به اليمنيون في اسمائهم فورد كحام لهذه الاسماء اما بعد او قبل الاسم (صدق ايل) (ايل صدق) في تلك الفترة امتدت سيطرة المعينين حتى تخوم الحجاز بل وتجاوزتها الى المستوطنة (الديدان أي العلا في مفترق طريق الشام وفلسطين) وغني كابراهيم صاحب تجارة واسعة لا بد ان تكون اليمن بلاد المر واللبان قد لفتت نظره كتاجر لذا فمن المحتمل قيامه بسفرات الى هذه المنطقة • وقد تكشف لنا النقوش العربية سواء المدفونة في باطن ارض الجنوب أو الشمال مثل هذه الرحلات وعلى كل اذا سلمنا بعدم زيارته للمنطقة الا اننا نجزم بأن ابراهيم قد سمع عن جنوب الجزيرة كثيرا بل واحتك بمن جاء الى ارض الشام وفلسطين منها متاجرا او داعيا لفكرة ــ وانه قد تأثر بهم وحمل عنهم بعض الافكار والمعتقدات وانتقال اسماء اليمنية والمعينية بالذات الى الشمال وقد ورد في التورات تك (٢٤ / ٣) ذكر الاله (ايل) الذي دعى ابراهيم الى عبادته قبل ان يتعرف على عبادة الكواكب وقبل ان يحس بالانشطار الروحي الذي عانى منه في نفسه الآية الانعام (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ اصناما آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رآى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكون من القوم الضالين)ولاختلاف طبيعة المناخ بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها فقد اعطيت الشمس الأهمية العظمى والكبرى في الشمال وعبدت كأعظم الكواكب السماوية لما كان للانسان هناك من فوائد ومصالح مرتبطة بها

وأخيرا رأى ابراهيم الشمس (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم أني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) كخاتمة المطاف بعد الحيرة في الكواكب الثلاثة .

وتقول كتب التاريخ ان ابراهيم كان يتمتع بمكانة رفيعة بين قومه فها هو يتحدى ملكة النمرود ويحطم الاصنام التي سخرها الملك لخدمة أهدافه ومطامحه في السياسة والحكم (ولقد أتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) . ويستمر الحوار في تحد بين الطرفين ويتهكم ابراهيم على قومه بعد ان اهتدى هو الى رب السموات والأرض سورة الانبياء (قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق ام انت من اللعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهم وانا على ذلكم من الشاهدين) . ويستمر التحدي بقوة تدل على ثقة ابراهيم بنفسه . لما له من ثقل بينهم وتحديه مع سابق الاصرار على تسفيه عبادة قومه انما تدل على انه كان صاحب جاه ومال كما تشهد بذلك جميع الكتب التاريخية (والله لأكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون) . اما التوراة فتؤكد على غنى ابراهيم والذي ينتمي الى طبقة الملوك والامراء وان الخلاف الذي حصل بينه وبين الملك نمرود على ما يبدو انه خلاف على المصالح المادية في نفس الطبقة (فصعد ابرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه الى الجنوب وكان ابرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب وسار في رحلاته من الجنوب الى بيت ايل) .

لقد احتلت رحلات ابراهيم وسفراته الطويلة مكانا كبيرا من التوراة لاهميتها بالنسبة لدعوته التوحيدية ولاقامة دولة مركزية لشمال الجزيرة العربية فلقد ترحل بين بابل وفلسطين ومصر في بداية حياته كتاجر ، ونتيجة للظروف السياسية آنذاك والعلاقات الخارجية القائمة بين تلك المماليك

(البابلية ـ والكلدانية والكنعانية والآشورية) فقد اصبحت الدعوة التوحيدية ضرورة للتوحيديين اولئك الأقوام فما كان يصيب هذه العلاقات من توتر بسبب الحروب التي كانت تنشب بين الحين والآخر بين تلك الممالك فتعكس نفسها على الامن فينعكس على تجارته وتجارة غيره وتتعرض للخطر • من هنا فقد دفعته الرغبة في التنقل بحرية وتأمين اجارته وازالة الحواجز والمكوس بين تلك الممالك ولاختمار الفكرة اليمنية من حيث كونها تخدم اهداف سياسية وتسخر الرب الواحد لخدمة المصالح والاغراض الاقتصادية والاجتماعية فهب يدعو الى الوحدانية في المنطقة الواقعة بين النيل والفرات تكوين ١٥ و ١٦ آية (في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير الفرات • القينيين والقنزيين والقدموغيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والاحوريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسين) ان تلك الدعوة التوحيدية لا شك انها انطلقت من ارضية مادية اقتصادية واجتماعية اوحتها اليه المصلحة الشخصية والجماعية الرغبة في التنقل بحرية وتوفير الامان بغرض الهدوء والاستقرار في ربوع المنطقة وبناء كيان موحد للاقوام المتعايشين هناك تحت ظل ممالك مشتته موزعة فمثل تلك الاوضاع الممزقة تقهر طموحات واحلام ابناءها وتمزق حياتهم الاجتماعية والفكرية وليس هناك أي حل الا بجمع ذاك الشقاق واعادة بنائه في كيان موحد ويشعر انسانه بانسانيته وينهي الضياع • الا انه كان لا بد ان تأخذ الدعوة الى الوحدة الاقتصادية والسياسية طابع ديني يتلائم مع تلك المرحلة فدعى الى عبادة الاله الواحد على غرار الدعوة لتوحيد الممالك اليمنية وبناء الدولة المركزية تحت شعار ديني بالرغم من ان الهدف دينوي محلي يتولى السلطة العليا فيها ملك مقرب الى الآلهة والى رب السماء (مكرب) •

ويبدو ان الفكرة اليمانية تلك كانت قد استهوته واستحوذت على مشاعره وأفكاره وهو المنحدر من نفس الطبقة التي كان ينتمي اليها مكارب وملوك اليمن فأخذ يعمل طوال بقية حياته على تحقيق تلك

الوحدة واقامة تلك الدولة التي يأتي هو زعيما او ملكا فوق قمة بناءها الهرمي الا ان ابراهيم لم يستطع ان يكمل تلك المهمة ويقيم الدولة المركزية الواحدة نتيجة لطبيعة الظروف التي عاشتها المنطقة آنذاك والتي جعلت من حكم ابراهيم ها وامنيته الوطنية مهمة شاقة وصعبة وحولت الناس من الأخذ بالفكرة الدينوية التي نادى بها متسترا تحت شعار الوحدانية الى الأخذ بفكرة الوحدانية وعبادة الموضوع الذي خلقوه بأيديهم والذي حاول ابراهيم ان يتخذه كوسيلة فقط لتحقيق ذلك الغرض وذاك الطموح المادي الملموس وهو تحقيق وحدة المنطقة اقتصاديا وسياسيا وازالة شبح الحروب المدمرة بين مملكاتها الكثيرة ان خلق تشكيلة واحدة اقتصادية واجتماعية لبناء تلك المنطقة سيذيب ولا شك كل الظواهر السياسية المشتته والممزقة في وحدة عضوية يقوم التأثير فيما بينها الا على اساس الافضلية العرقية وانما على أساس مادي يعتمد على الانتاج والقدرة على الحركة التجارية في طول المنطقة وعرضها .

ان خلق كيان اقتصادي واجتماعي موحد يزيح شبح الفتن والحروب بين اقوام تلك المنطقة كانت اعظم طموحات ابراهيم الخليل الوطنية فعمل من اجل تحقيقها بخلق مفهوم عقائدي واحد يجمع مثل هؤلاء القوام الشتات في وحدة اقتصادية واجتماعية فخلق الاله الواحد تأثرا بالفكرة اليمنية كفكرة لاهوتية لم تستطع ان تحقق حينها الغرض الذي وجدت من اجله الا انها بقية تختمر وتتطور بواسطة الرسل حتى جاء بعد الفي وخمسة عام من بزوغ فجرها في الجزيرة العربية من استطاع ان يحقق ذاك الطموح المشروع ويبني الدولة العربية المركزية الواحدة لأقوام المنطقة العربية لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية فيتحول شتات اولئك الاقوام الى وحدة امة متماسكة قوية ويخلق من اولئك البدو تلك الدولة العظيمة التي أطاحت بالنفوذ الاجنبي الفارسي البيزنطي من الوطن العربي الى غير رجعة ذلك هو محمد بن عبدالله في ثورته الاسلامية تلك التي سارت على

هدى مبادىء ابراهيم الحنيف في التوحيد اليماني •

ان أهمية ابراهيم التاريخية بالنسبة لاقوام تلك المنطقة بل لسكان الجزيرة العربية كلها تكمن في محاولاته العظيمة في توحيدها وبناء دولة مركزية قوية يجد الانسان فيها انسانيته بعد ان بقي ضائعا فوق أرضها الصحراوية بين أنظمتها الكثيرة العديدة المختلفة النوعية ان ابراهيم يعد بطلا قوميا أراد أن يبني كيانا لأقوام ممزقين متحاربين رغم وحدة طبيعة أرضهم الجغرافية وتقارب لغاتهم من بعض وقد كان هناك التركيز على شخصيته في الديانات الثلاث اليهودية (أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا الجمهور من الامم فلا يدعي اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهيم، لأني اجعلك ابا لجمهور من الامم واثمرك كثيرا جدا واجعلك امما وملوك منك يخرجون) •

واما المسيحية فقد ارجعت جميع الانبياء الى نسل ابراهيم (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم : ابراهيم ولد اسحق واسحق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهوذا واخوته ويهوذا ولد فارص وزار من تامار وفارص ولد حصرون وحصرون ولد آرام) الى آخره اما الاسلام فيرى فيه الدين الصحيح والخلفية الروحانية والفكرية (يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التورات والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) • وهذه الآيات القرآنية تؤكد على زعامة ابراهيم لأقوام الجزيرة العربية كلها ولا شعوبية الدعوة الابراهيمية وليس كما يحاول البعض ان يجعلوا منه زعيما روحيا فقط • ولا بد لنا ان نزيل الوهم الذي يسيطر على اذهان الناس وعقولهم حتى نتمكن ان نقيم حقيقة هذا العالم كما هي وان نكشف الاشكال المقدسة لأوهام الناس وتخيلاتهم حتى نخدم التاريخ بحق وحقيقة وان ننزع القناع عن المفاهيم الدينية الغيبية التي غلفت التاريخ والحقائق والوقائع المادية بغلافها لفترة تاريخية طويلة وحتى نتمكن من ان نمزق تلك القديسة التي لا تمس والتي

شوهت الحقائق التاريخية وحولتها الى تجريدات ضبابية الرؤيا فلم تتمكن من ان تتعرف على التاريخ كما هو في تطوره المادي •

ان التوحيد اليماني والذي شكل الرافد الحقيقي لفكرة الوحدانية الابراهيمية عليها القوام شمال الجزيرة لما كان لابراهيم من مكانة اجتماعية بينهم • هذه الوحدانية التي شكلت الخلفية الفكرية للعقائد السماوية تتطلب معرفتها معرفة للفكرة اليمانية هل اكتفت بالتوحيد الغيبي (لرب السماء) ام تجاوزتها الى فكرة العقاب والمحاكمة التي ستتم خلف هذا العالم المادي كما بشرت بها وحدانية ابراهيم ومن جاء من بعده من الرسل والمعتقدات الدينية ثم كيف كانت تتم عملية اخضاع الانسان بالوحدانية الغيبية هل تلقاها منذ البداية بلا مقاومة وهل حاجته الى الحاجات الضرورية هو الذي شكل المدخل لهذا الايمان وبالرغم من اني أميل الى ان تلك الفكرة قد فرضت عليه من قبل الملك والدولة الا انها جاءت مستجيبة لبعض من حاجياته الضرورية لذا فقد وجدت في نفسه صدى عميقا مكنها من ان تعيش وتنتشر في ربوع اليمن • اذن فالمجتمع والدولة في اليمن هما اللذين انتجا هذه الفكرة والتي مثلت الوعي المقلوب للواقع الموضوعي اليمني والذي يعد عالما مقلوبا بالنسبة لوعي الانسان المجرد والذي لم يكن يستطيع ان يحاكي الواقع الا بفكره فلم يكن قد تمكن بعد من اخضاع الطبيعة وقواها •

ان التوحيد اليماني يعد النظرية العامة للتوحيد في جميع الاديان الموحدة ولقد اصبح موضوع اعتزاز لها لذا فانصافا لهذه النظرية وتقديرا لاهلها والذين كانوا المبدعين الحقيقيين لتقاليدها والقيم المتعلقة بها لا بد من اعطائها الاهتمام التاريخي ولتكن هذه الدراسة مجرد مدخل الى دراسات تاريخية عميقة مدعمة بكثير من الحقائق المادية والوقائع التاريخية والأحداث الحياتية وان استنباط وسائل حديثة من أجل الحفاظ على آثار الشعوب وتاريخها سوف يساعدنا في المستقبل كثيرا في دراساتنا وبحوثنا والتي نريد بها ان نخدم التاريخ والتاريخ اليمني بصورة خاصة

يتطلب منا التحليل ماديا للاحداث والوقائع واتهاج منهج المادية التاريخية حتى لا نقع في الضبابيات وتضيع منا الرؤيا الواقعية اوضوعية للامور فلا نستفيد من الوسائل الجديدة التي نطمح الى خلقها والابداع لها لـذا لا بد من ربط العلم والمنهج العلمي المادي في تحليل التاريخ حتى تسهل أمامنا كثير من الصعوبات وتتخطى جميع العقبات التي سوف تواجهنـا ونحن نقوم بهذه المهمة التاريخية •

مصادر تاريخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومباي

الدكتور عبدالأمير محمد أمين
كلية التربية / جامعة بغداد

تحتوي دار السجلات الحكومية في بومباي على وثائق لعلها تشل أهم وأغزر المواد التاريخية الخاصة بالعراق والخليج العربي في العالم أجمع وسجلات دار الوثائق الحكومية في بومباي هي في الاساس سجلات « شركة الهند الشرقية الانكليزية » The English East India Co. وسجلات السلطات البريطانية التي ورثت تلك الشركة وتولت مسؤولياتها (١) .

لقد اجازت الملكة اليزابث الاولى هذه الشركة في ١٥٩٩/١٢/٣١ ومنحتها حق احتكار التجارة الانكليزية في « الهند والاقطار المجاورة لها The East Indies » وما هي الا سنوات قلائل حتى ظهرت سفن الشركة في مياه الشرق ، واستقر ممثلوها في أماكن عدة من الهند لرعاية مصالح الشركة وادارة تجارتها .

واتخذت (سورات) مقر رئيسي للشركة في غرب الهند . وفي نهاية القرن السابع عشر حلت بومباي محل سورات وأصبحت مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق . وانيط بها الاشراف على مقرات الشركة الى الغرب من شبه القارة الهندية كتلك التي في منطقتي البحر الاحمر والخليج العربي وكانت الشركة قد مدت نشاطها الى الخليج العربي بعد سنوات قليلة من

قيامها ففي عام ١٦١٦ أسست لها مقرا تجاريا « Factory » في (جاسك) على الساحل الشرقي للخليج العربي • ثم اختارت « كمبرون Gombroon » على الساحل نفسه لتحل محل جاسك • وابد اسم كمبرون باسم آخر هو « بندر عباس » وازدادت أهمية هذا الميناء الجديد بمرور السنين ، بل صار محورا للنشاط الاقتصادي والسياسي في منطقة الخليج العربي خلال المئة والخمسين سنة التالية [٢] •

ولم ينحصر النشاط الانكليزي في بندر عباس ، بل عمدت شركة الهند الشرقية الانكليزية في بعض الاحيان الى فتح « مقيميات Residencies » في أماكن اخرى مثل البصرة وبوشهر واصفهان وبغداد وشيراز ، تابعة الى مقر الشركة الرئيسي « الوكالة The Agency » في بندر عباس •

وترجع صلات شركة الهند الشرقية الانكليزية بالبصرة الى عام ١٦٤٠ [٣] • فقد دفعت المنافسة الهولندية في بندر عباس الانكليزية الى ارسال بعض سفنهم الى البصرة لعرض بضاعتهم في اسواقها • ثم أخذت السفن الانكليزية منذ ذلك الحين تتردد على الميناء دون ان تؤسس الشركة فيها مقرا دائمة حتى عام ١٧٢٣ •

وفي عام ١٧٦٣ رفعت مقيمية البصرة الى وكالة وحلت بذلك محل بندر عباس • واستمر هذا الوضع الى عام ١٧٧٨ حيث خفضت البصرة مرة اخرى الى مقيمية [٤] •

وكانت تجارة الخليج هي موضع الاهتمام الاول بالنسبة لشركة الهند الشرقية الانكليزية خاصة خلال المئة والخمسين عاما الاولى من تاريخها • ولكن فعاليات الشركة لم تقتصر على التجارة في أية فترة من فترات تاريخها الطويل ، بل كثيرا ما تعدتها الى مجالات سياسية وعسكرية • بحجة الرغبة في توسيع تلك التجارة وحمايتها [٥] •

وعلى أثر غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ وتحركاته المريبة في منطقة الخليج العربي والعراق وفارس . تبدلت نظرة البريطانيين الى كل هذه المناطق . فلم تعد التجارة هي موضع الاهتمام الأول لهم ، بل طغت وبشكل واضح الاعتبارات السياسية والاستراتيجية على الاعتبارات التجارية . وتشبث البريطانيون منذ ذلك الوقت بمنطقة الخليج العربي كاحدى الطرق المهمة المؤدية الى امبراطوريتهم الواسعة في الهند .

وتخلت شركة الهند الشرقية الهندية في منتصف القرن التاسع عشر عن مسؤولياتها في الهند . وتولت الحكومة البريطانية مباشرة هذه المسؤولية . ولكن هذا لم يغير من الوضع في الخليج العربي ، فقد واصل البريطانيون سياستهم الرامية الى احكام سيطرتهم على الخليج العربي . وقاوموا بكل اصرار طيلة القرن التاسع عشر جميع محاولات الفرنسيين والروس والالمان الرامية الى الاقتراب من الخليج واتخاذ موقع قدم فيه . وما ان أشرف القرن التاسع عشر على نهايته ، حتى كانت منطقة الخليج العربي برمتها ضمن مجال النفوذ البريطاني . وقد وقع رؤساء المنطقة وشيوخها معاهدات مع البريطانيين ضمنت لهؤلاء السيطرة والنفوذ .

ان صلات البريطانيين الطويلة بمنطقة الخليج العربي واهتماماتهم التجارية والسياسية والاستراتيجية ساعدت في تراكم السجلات التي تحتفظ بها في الوقت الحاضر دور الوثائق في كل من بريطانية والهند ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فان شركة الهند الشرقية جبلت منذ بداية تأسيسها على ابداء اهتمام بالغ بأوراقها . لقد بذلت الشركة عناية قد تفوق حد التصور في تنظيم سجلاتها وفي المحافظة على تلك السجلات وعدم التفريط بها مهما تقادم عهدها وتضاءلت أهميتها . ومهما انتفت الحاجة المباشرة اليها . لقد كانت الشركة تصر على تدوين كل شأن من شؤونها على الورق ، وبلغ هذا الأمر حدا وصفت الشركة معه بأنها « حكومة أوراق » (٦) ، وكثيرا ما أكدت لمستخدميها ضرورة تدوين كل صغيرة وكبيرة من شؤونهم . كما كانت تعبر الى أولئك المستخدمين عن

حاجتها الى المعلومات والى مزيد من المعلومات عن كل حدث وعن كل موقع في اماكن تواجدهم مهما كانت صلة ذلك كبيرة أم صغيرة مباشرة أم غير مباشرة بأعمالهم •

وبعد هذا كله فلا عجب ان تبلغ سجلات الشركة الملايين من المجلدات والاضابيروحصة بومباي منها كبيرة جدا قد تبلغ ربع مليون من هذه وتلك [٧] من هذه اعداد كبيرة جدا تحتوي على معلومات ثمينة تتصل بكل نواحي النشاط الانساني في العراق ومنطقة الخليج العربي لفترة الثلاثة قرون الماضية وعلى الرغم من هذه الأهمية البالغة لسجلات بومباي فان ما فيها من ثروة لم تستخدم كما يبدو ، من قبل البحاثة والمؤرخين العرب بأي شكل من الاشكال وأرجو ان يوفق هذا البحث في اعطاء فكرة واضحة ومجملة عن هذه « السجلات • ان الوصف الذي تضمنته هذه الدراسة والملاحق الكثيرة التي تضمنتها قد تمهد الطريق للباحث العربي الراغب في الاستفادة من وثائق بومباي كما انها قد تعطيه فكرة مسبقة عما يتوقع الحصول عليه في حالة قيامه بزيارة دار السجلات هناك » •

والمعلومات ذات الصلة بالعراق خاصة ومنطقة الخليج العربي عامة يمكن الحصول عليها في طيات الاصناف التالية من سجلات دار الوثائق الحكومية في بومباي :

١) يوميات البصرة •

٢) يوميات بوشهر •

٣) يوميات بندر عباس •

٤) سجلات مديرية بومباي الخاصة بالعراق والخليج العربي •

أ ـ القسم العام والقسم السياسي والسري حتى عام ١٨٢٠ •

ب ـ القسم السياسي والسري بعد عام ١٨٢٠ •

٥) سجلات البعثات واللجان •

أ ــ بعثة كاردن الى الخليج العربي •

ب ــ بعثة بغداد •

٦) مختارات مطبوعة من سجلات بومباي :

أ ــ مختارات مطبوعة خاصة بالعراق •

ب ــ مختارات مطبوعة خاصة بالخليج العربي •

يوميات البصرة :

ويوميات البصرة هذه تتألف من عشرين مجلدا فقطي الفترة من عام ١٧٦٣ والى على عام ١٨١١ مع كثير من الفجوات • وليوميات البصرة في دار الوثائق الحكومية في بومباي أهمية خاصة وذلك لعدم وجود نظائر لها في أي محل آخر في العالم «فمكتبة دائرة الهند India Office Library» تفتقر ايها تماما • بل انها تمثل حلقـــة مفقودة بالنسبة لهذه المكتبـــة • ويوميات البصرة بدورها ترد في صنفين :

١) يوميات مقر البصرة التجاري •

٢) يوميات مقيمية البصرة •

وتتألف الاولى من أحد عشر مجلدا تحمل ارقامـــا ١٩٣ ــ ٢٠٣ وتغطي الفترة من كانون الثاني عام ١٧٦٣ لغاية عام ١٧٧٥ • وهذه فترة الوكالة الانكليزية في البصرة • وتتميز تلك الفترة بدقتها وأهميتها وذلك من حيث تطور المصالح البريطانية ونموها في منطقة الخليـــج العربي ، وتضاؤل الوجود الهولندي فيها ، وازدياد نشاط القبائل العربية واشتداد قواها البحرية والصراع بين تلك القبائـــل العربية من جهـــة ، والفرس والعثمانيين وحلفائهم البريطانيين والهولنديين من جهة اخرى • فمجلـــد

رقم ١٩٣ تسجيل للاحداث التي صحبت عمليـة الانسحاب الانكليزي من بندر عباس عام ١٧٦٣ والاستقرار في البصرة المقر الجديد للوكالة • وحالة التجارة وسق الاقمشة الصوفية الانكليزية وتحركات قبائل المنتفك وتمردها على السلطات العثمانية [٩] •

والمجلد الذي يليه (مجلد رقم ١٩٤) يحتوي على معلومات تجارية قيمة وعلى مراسلات الوكيل الانكليزي في البصرة مع باشا بغداد ومـع السفير الانكليزي في اسطنبول وكان الموضوع الاساسي لتلك المراسلات هو محاولة السفير الانكليزي الحصول على موافقة السلطـان العثماني لحصـــول البصرة على « البــراءة » أي شمولهـا « بالامتيـــازات Capitulations » [١٠] •

وتغطي معلومات مجلد رقم ١٩٥ مقدمات الصراع بين الانكليز وقبيلة كعب التي كانت متمركزة في شط العرب • ثم الحرب المريرة التي وقعت بين الفريقين والمفاوضات التي سبقتها وقيام التحالف الانكليزي العثماني لتحطيم هذه القبيلة القوية الشكيمة الشديدة البأس • وقد جاء في احدى اليوميات وصف ممتع لغلافات* كعب فهي كبيرة جدا « Very Great » وتحمل الواحدة منها ما بين ستة وثمانية مدافع [١١] •

وتغطي وقائع الحرب مع كعب معظم اجزاء المجلد التالي (مجلد رقم ١٩٦) وقد اعطيت كثير من التفاصيل الخاصة بالقتال وبالقوات البريـة والمائية للفرقاء المتحاربين (الانكليز والعثمانيين وكعب) [١٢] •

ويعطي المجلد رقم ١٩٧ تفاصيل المفاوضات والمراسلات والنشاط الدبلوماسي الذي صحب الحرب بشكل خاص المفاوضات مـع كريم‌خان الذي تدخل في صالح كعب واجبر الانكليز وحلفاؤهم العثمانيين علـى

---

* الفلافة نوع خاص من السفن للتفاصيل انظر عبد الامير محمد امين القوى البحرية في الخليج العربي ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٥٦ .

الانسحاب من أراضي كعب • كما ان هناك مراسلات اخرى مع باشا بغداد ومع بعض الشيوخ العرب (١٣) •

وتستمر قبيلة كعب تحتل مركز الصدارة في الاحداث ، فتغطي المجلدات رقم ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ اخبار تحركاتها ، وفعاليتها وعلاقتها بالانكليز وكذلك تغطي تطور العلاقات بين الانكليز وكريم خان وفيها كذلك اخبار تجارية ومحلية متفرقة (١٤) •

أما المجلدات الاخرى (١٥) : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ففيها معلومات مفصلة عن أحوال البصرة وولاية بغداد وتفشي وباء الطاعون وتهديدات قبائل المنتفك للسلطات العثمانية وتأزم العلاقات بين الانكليز وكريم خان وتطور العلاقات بين الانكليز والعثمانيين وقبيلة كعب وتدهور أحوال البصرة وكساد التجارة فيها ومقدمات للغزو الفارسي لها •

يوميات مقيمية البصرة :

ويوميات مقيمية البصرة هي تسعة مجلدات تغطي الفترة من عام ١٧٩٨ والى عام ١٨١١ (١٦) (مجلد رقم ٢٠٤ الى مجلد رقم ٢١٢) • وأغلب هذه المجلدات التسع منتظمة تبدأ في ١ كانون الثاني وتغلق في ٣١ كانون الاول من العام نفسه •

والمعلومات التي تحتويها كثيرة ومتنوعة • تحتل انباء نقل البريد بين أوروبا والشرق عن طريق البصرة مركز الصدارة فيها • فقد تطلب الامر خلال الحروب النابوليونية ازدياد أهمية الطريق المذكور وزيادة في عدد الوسائل المارة به •

كما ان يوميات مقيمية البصرة تحتوي على نسخ من الرسائل المتبادلة بين سلطات الشركة في لندن ومقراتها في شبه القارة الهندية • وبين سلطات تلك الشركة وممثليها في الخليج العربي وبغداد والبصرة واسطنبول وطهران • فقد شهدت جميع هذه المناطق نشاطا سياسيا انكليزيا

ودبلوماسيا متميزا خلال الفترة التي تغطيها هذه اليوميات وذلك نتيجة للغزو الفرنسي الى مصر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق •

وبالاضافة الى تلك الجوانب السياسية والدبلوماسية فان يوميات مقيمية البصرة تحتوي على معلومات مهمة عن التجارة وأسعار الحاجيات وعن القبائل العربية في العراق ومنطقة الخليج العربي وحركة السفن وأنباء اخرى متفرقة كثيرة •

ومما تجدر الاشارة اليه ان مجلدات مقيمية البصرة بصورة عامة في حالة رديئة للغاية وقد عملت الرطوبة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتمزقها وطمس بعض معالم الكتابة فيها (١٧) •

رسائل البصرة Outwards or Orderbooks

وهناك مجلد واحد من هذا النوع وهو يحمل رقم ٣٠ ويعتبر الاوراق التي يحتويها هذا المجلد من اقدام الأوراق الخاصة بالبصرة فهي ترجع الى عام ١٧٢٥ • ولكن هذا المجلد في حالة سيئة للغاية فالغلاف مهترىء والأوراق تكاد تتبعثر بمجرد لمسها وتصفحها (١٨) •

يوميات بوشهر (١٩) :

وهناك مجلد واحد خاص ببوشهر ويحمل رقم ٣٥ ويضم مجموعة من الرسائل المتفرقة الصادرة والواردة Outwards and Inwards Letters للفترة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٨ •

يوميات بندر عباس (المقر التجاري أو المقيمية) Gombroon Factory or Residency Diories

وهذه سبعة مجلدات تحمل ارقاما ١١٢ الى ١١٨ وتغطي الفترة ١٧٤١

الى آب ١٧٥٧ مع فجوات كثيرة ، فلا توجد يوميات لعام ١٧٤٣ الى جانب فجوات اخرى .

ويوميات بندر عباس مهمة من نواحي عدة فخلال الفترة التي تغطيها هذه المجلدات السبع كانت بندر عباس مقرا رئيسا لكل من الانكليز والهولنديين في منطقة الخليج العربي لذا كانت محورا للنشاط الاقتصادي والسياسي ، كما كانت قاعدة للاسطول الفارسي الذي بناه نادر شاه ومنها انطلقت قطعاته في غزوها لعمان وللشاطيء الغربي للخليج [٢٠] . وحول بندر عباس وفي هذه الفترة بالذات نشطت القبائل العربية مثل القواسم وبني معين والحولة [٢١] .

ومعلومات هذه المجلدات السبع تغطي كل هذه الجوانب من النشاطات السياسية والاقتصادية : العربية والفارسية والاوروبية [٢٢] .

رسائل بندر عباس [٢٣] :

وهناك مجلدان من هذه هما مجلد رقم ٣١ وهو يحتوي على Outwards Letters للفترة ١٧٤٤ ومجلد رقم ٤٠ ويحتوي على Inwards Letters للفترة ١٧٣٤ ـ ١٧٤٤ .

سجلات مديرية بومباي Bombay Presidency Records

١) سجلات مديرية بومباي لغاية ١٨٢٠ .

تتوافر معلومات كثيرة تخص العراق والخليج العربي من اقسام مديرية بومباي المختلفة ولكن المادة الرئيسية نجدها في القسم العام Public Department للفترة السابقة لعام ١٧٥٥ وفي القسم السياسي والسري Political and Secret Dept. السنين التالية [٢٤] .

ووردت المعلومات في سجلات كلا القسمين القسم العام والقسم

السياسي والسري ضمن وقائع اجتماعات مجلس المديرية (يوميات ومداولات Consultaions) وهناك ما لا يقل عن مئتين مجلد من مجلدات هذين القسمين تحتوي يومياتها على معلومات تخص ولاية بغداد [٢٥] والبحرين ومسقط والوهابيين والقواسم والخ [٢٦] .

وقد غطت تلك المعلومات فعاليات القبائل العربية في الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر . والنشاط الفرنسي في الخليج خلال حروب الثورة الفرنسية ونابليون والصراع الانكليزي الفرنسي في العراق وفارس ومنطقة الخليج العربي والعلاقات البريطانية مع القوى المحلية (حكام فارس وباشا بغداد والامير السعودي وسلطان مسقط ورؤوساء القبائل العربية) [٢٧] .

كما انها تغطي بشكل مفصل جدا ذلك الصراع الطويل والمرير بين البريطانيين والقواسم الذي استغرق اربعة عشر عاما (من عام ١٨٠٥ الى عام ١٨١٩) وتطلب الامر ارسال ثلاث حملات بحرية وبرية انكليزية كبيرة الى الخليج العربي . الاولى في عام ١٨٠٥ والثانية في عام ١٨٠٩ ــ ١٨١٠ والثالثة في عام ١٨١٩ [٢٨] .

لقد اجبرت هذه الحملة الاخيرة رؤساء القواسم على القاء السلاح واضطروا الى توقيع معاهدات مع البريطانيين ألزموا بموجبها بانهاء حالة الحرب وبعدم التعرض للسفن الانكليزية في الخليج العربي وفي كانون الثاني عام١٨٢٠ وقع جميع رؤساء القواسم على ما سمي « بالمعاهدة العامة » جعل البريطانيون أنفسهم بموجبها مسؤولين عن حماية الامن في الخليج وحكما بين قبائله . ودفعت بريطانيا في السنوات التالية بقية رؤساء القبائل العربية الى توقيع تلك « المعاهدة العامة » وتغطي سجلات القسم السياسي والسري جميع هذه الجوانب السياسية والعسكرية من ذلك الصراع وتلك التسويات [٢٩] .

سجلات مديرية بومباي (القسم السياسي والسري) بعد عـام ١٨٢٠ :

ابطل نظام اليوميات في عام ١٨٢٠ ، ولم يعد المجلد الواحد في القسم السياسي والسري يضم موضوعات عديدة كما كان سابقا ، بل افرد مجلد خاص لكل موضوع ذى شأن وغالبا ما يكون مجلد واحد لكل عام ولكن كثيرا ما يكون للموضوع المهم أكثر من مجلد واحد خلال العام . وقد صنفت الموضوعات الخاصة بالعراق والخليج العربي تحت عناوين كثيرة منها الخليـج العربي ، البصرة ، بغـداد ، العراق التركي ، البحرين ، الوهابيين ، رأس الخيمة ، فارس ، تجارة الرقيق ، الاسلحة والخ .

ويجد الباحث أوسع المعلومات وأغزرها في هذه المجلدات الخاصـة بكـل قطر من اقطـار الخليـج العربي والمتعلقـة بكل موضوع من مواضيعه (٣٠) .

وقد يقال بشيء قليل من التردد ان هذه الثروة من المعلومات المتصلة بكـل جانب من جوانب النشـاط الانساني ـ السياسي والاقتصادي والاجتماعي قد لا يكون لها مثيل في أي دار من دور الوثائق في العالـم وفي آي مكتبة فيه .

فبالنسبة للعراق توجد هناك اثنان وثلاثون مجلدا جاءت تحت عنوان « العراق التركي Turkish Arabia » (٣١) وخمسة وأربعـون مجلدا وردت تحت عنوان « رسائل البصرة Bussora Despatches (٣٢) وثلاثون مجلدا بعنوان رسائل بغداد « Bagdad Despatches » (٣٣) ، وهناك عـدد من المجلدات وردت بعناوين اخـرى منها حملـة الفرات Euphrates Expeditions ومنها «بواخر الفرات Euphrates Steamers » وحملة النهروان Nahrawan Expeditions (٣٤)

سجلات البعثات واللجان والمعاهدة الخ :

Particulars of Records of Missions Committees, Institutions etc.

وفي هذا الصنف من السجلات نجد بعثتين تخص منطقة الخليج العربي وهما :

١ ـ بعثة الخليج العربي Persian Gulf Mission

٢ ـ بعثة بغداد Bagdad Mission

١ ـ بعثة الخليج العربي : وقد دونت وقائع هذه البعثة في مجلدين يحملان رقم ٢٨٣ ورقم ٢٨٤ • وكانت مديرية بومباي قد انتدبت في عام ١٧٧٥ كاردن الى الخليج العربي لتسوية الخلافات بين كريم خان والبريطانيين • وكانت قد توترت العلاقات جدا بين الفريقين خلال السنوات القليلة الماضية وكاد ان يؤدي الامر الى حرب شاملة بين الطرفين خاصة بعد ان تعرض حلفاء كريم خان الى السفن الانكليزية في الخليج العربي وأسروا من فيها واحتفظوا بهم رهائن في شيراز •

لقد وصل كاردن الى بوشهر في نيسان عام ١٧٧٥ وبدأ فورا مفاوضاته مع السلطات الفارسية • ونجح كاردن في حمل الفرس على اطلاق سراح المحتجزين البريطانيين وعلى التعهد بحماية الممتلكات البريطانية في البصرة في حالة احتلالها من قبل الفرس وكانوا يحاصرونها في ذلك الوقت • كما تم الاتفاق على اعادة فتح المقر التجاري البريطاني في بوشهر وكان قد اغلق قبلا (٣٦) •

٢ ـ بعثة بغداد :

وهذه هي رحلة السر هارفارد جونز الى بغداد وتقع في ثمانية مجلدات (مجلد رقم ٣٠٠ الى مجلد رقم ٣٠٧) (٣٧) • وكان الغزو الفرنسي لمصر قد أدى الى ردود فعل كثيرة لدى البريطانيين ومن ردود

الفعل لتلك القرار الذي اتخذ في عام ١٧٩٨ بفتح مقيمية بريطانية في بغداد وكان الهدف منها تأكيد النفوذ البريطاني في هذه المدينة والحفاظ على العلاقات الطيبة مع الباشا ومقاومة النفوذ الفرنسي .

وقد تم الاتفاق بين الحكومة البريطانية وشركة الهند الشرقية الانكليزية على اختيار هارفرد جونز ليرأس المقيمية ودونت وقائع تعيينه ووقائع ادارته لتلك المقيمية خلال فترة مكوثه في بغداد (١٨٠١ ــ ١٨٠٧) في تلك المجلدات الثمانية • وبالاضافة الى ذلك فهي تحوي معلومات محلية كثيرة •

ولعل أهم ما فيها نسخ الرسائل المتبادلة بين هارفرد جونز والباشا وغيره من الرؤوساء المحليين • ومراسلاته مع السفير البريطاني في اسطنبول ومع الممثل البريطاني في طهران جون مالكولم ومع المقيم الانكليزي في البصرة مانوئيل مونستي[٣٨] وهي بهذا سجل حافل لجزء مهم من النشاط الدبلوماسي الذي شهدته المنطقة خلال تلك السنين الدقيقة والحافلة بالاحداث •

مختارات مطبوعة من سجلات بومباي :

والذي يهمنا من هذه المختارات المطبوعة جزئين احداهما عن العراق والآخر عن الخليج العربي اما الجزء الخاص بالعراق فهو عبارة عن مجموعة من البحوث الشيقة للغاية كان قد اختارها وجمعها ضابط البحرية الهندية جيمس فلكس James Felix ونشرت تحت عنوان : Memoirs وهي ٥٠٠ صفحة[٣٩] • وتحتوي اكثر البحوث على خرائط واشكال ملونة وجميلة •

أما البحوث التي ضمنها هذا المجلد الثمين فهي :

Steam-trip to the North of Baghdad, in April 1846; with notes on various objects of interest en route

Journey for the purpose of determining the tract of the ancient Nahrwan Canal, undertaken in April 1848; with a glance at the past history of the territory of the Nahrwan.

Journey to the Frontier of Turkey and Persia, through a part of Kurdistan.

Researches in the vicinity of the Median Wall of Xenophon, and along the old course of the river Tigris; and discovery of the site of the ancient opis.

Memoir on the Province of Baghdad.

Notes on the Topography of Nineveh, and the other cities of Assyria; and on the General Geography of the Country between the Tigris and the Upper Zab. (1857).

Memoir on the Ruins of Babylon, by William Beaumont Selby, Commander, Indian Navy, and Surveyor in Mesopotamia, with plans (1859).

اما تلك المختارات المطبوعة والخاصة بالخليج العربي فتشتمل على بحوث قيمة جدا تخص عمان وقبائل العتوب والجواسم والبحرين والكويت وعلاقات البريطانيين بقبائل الخليج العربي وجدول باهم الاحداث السياسية الخاصة بمسقط والقبائل العربية ابتداء من ١٧١٦ والى عام ١٨٤٣ ومعلومات وتقارير متنوعة اخرى [٤٠] . ولعل هذه المحتويات تمثل أقدم وأوسع البحوث الخاصة بمنطقة الخليج العربي . للاحاطة بها جميعا نورد عناوينها :

Information connected with the possessions, Revenues, Families, etc., of the Imaum of Muskat; the Ruler of Bahrein; and the Chiefs of the Maritime Arab States in the Persian Gulf.

Historical sketches of the Joasmee, Uttubi, Wahabi, Beniyas, Bee felasa, Ejman and Amulgavine tribes of Arabs, from the year 1716 to the year 1853.

Memoir descriptive of the navigation of the Gulf of Persia; accompanied by brief notices of the manners, customs,

religion, commerce, and resources of the people inhabiting its shores.

Historical and other information connected with the province of Oman, Muskat, Bahrein, and other places in the Persian Gulf.

Report on the Island of Kenn, on Bassadore; the Harbour of Grane; and the Island of Pheleechi.

The rise and progress of and past policy of the British Government towards, the Arab tribes of the Persian Gulf; their resources, localities, etc.

Chronological Table of events from 1716 to 1843 connected with the Government of Muskat and the Arab Tribes of the Persian Gulf.

Rise and progress of the Government of Muskat; and miscellaneous information connected with that Government, from 1694 to 1853.

Treaties, engagements, etc. with the Imaum of Muskat, etc. Notes of a visit to Zanzibar in the year 1834.

المراجع

(١) سبق للباحث ان كتب بحثا بعنوان « مصادر تاريخ الجزيرة العربية في دار السجلات الحكومية في بومباي » قدمه الى الندوة العالمية الاولى لتاريخ الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في ربيع عام ١٩٧٧ م . ويحاول الباحث تجنب تكرار ما ورد في ذلك البحث ؛ لذا يفضل الرجوع اليه لاتمام الفائدة علما بانه في مرحلة الاعداد للنشر في مجلة المؤرخ العربي عدد ٥ .

(٢) للاطلاع على المزيد من تاريخ الخليج العربي خلال هذه المئة والخمسين عاما انظر ج.ج لورمو ؛ دليل الخليج ؛ طبعة جديدة معدلة ومنقحة ، ج ١٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ . ص ٢٠ .

(٤) للاطلاع على المزيد من تاريخ الخليج العربي خلال هذه الفترة انظر الدكتور عبد الامير محمد امين : المصالح البريطانية في الخليج العربي ١٧٤٧ـ ١٧٧٨ منشورات مركز دراسات الخليج العربي (١٤) ، بغداد ١٩٧٧ .

(٥) نفس المصدر .

6) See Guide to the Records in the National Archives of India, Part I (Introductory), National Archives of India, New Delhi 1959, p. 10.

7) V. G. Digha, Descriptive Catalogue of the Secret and Political Dept. Series 1755-1820. Bombay: 1954.

(٨) اليوميات سجلات دون ممثلو الشركة فيها كل المراسلات المتبادلة بين بعضهم البعض وبين مدراء الشركة في لندن وبينهم وبين الحكام المحليين . كما سجلوا فيها المناقشات والمشاورات التي تجري في مجلس المديرية ومجالس الوكالات والقرارات التي تتخذ تبعا لذلك . واعتاد ممثلو الشركة تدوين كل ما يقع لهم ، وما يقع في المنطقة التي يقيمون بها من أحداث في يومياتهم وكثيرا ما كتبوا في تلك اليوميات أنباء واخبارا تطرقت الى سمعهم في أماكن بعيدة نسبيا من اماكن اقامتهم .

9) Bombay Government Records, Bussora Factory Diaries vol. 193.

وانظر الملحق رقم (١)

10. Bussora Factory Diaries Vol. 194.

11) » » » » 195.

12) » » » » 196.

13) » » » » 197.

14) » » » » 198.

15) » » » » 199.

16) A. F. Kindersley, A Handbook of Bombay Govt. Records, Bombay: 1921.

ان هذا هو الدليل الوحيد الشامل لسجلات بومباي وهو غير وافي بالغرض ومليىء بالاخطاء ويتميز بعدم الدقة والمعلومات التي اوردها عن مقيمية البصرة ، بشكل خاص ، مرتبكة ولا تتفق مع واقع تلك السجلات ، انظر ملحق رقم (٢) .

(١٧) انظر على سبيل المثال يوميات مقيمية البصرة المجلدات ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

18) Bombay Government Records, Outwards or order books vol. 30.

19) Ibid., Outwards or Orderbook, vol. 35.

20) Ibid. Gombroon Diares, vol. 112-115.

31) Ibid. vols. 113, 115, 116.

وفي مجلد رقم (١١٣) معلومات كثيرة عن حالة الفوضى التي كانت سائدة في أواخر عهد نادر شاه وعن نشاط القبائل العربيـة في الاماكـن المجاورة لبندر عباس ، ولعل امتـع ما فيه وصف دانفرز كريفز لمعسكـر نادر شاه في كرمان .

وكان كريفز مقيما للشركة في (كرمان) وحدث ان زار نادر شاه هذا المدينة في أوائل عام ١٧٤٧ واقـام له معسكرا فيها . وكلف كريفز من قبل رؤوسائه بالذهاب الى معسكر نادر شاه وتقديم التماس الى الشاه يناشده فيه رفع الحيف الذي نزل بتجارة الشركة وفعل المقيم ذلك وحصـل مـن الشاه على الامتياز وصف بأنه خير ما حصلت عليه الشركة خلال كل تاريخها الطويل . ولكن اتضح بعد ايام ان نادر شاه لم يكن في وضع اعتيادي ولم يكن يدري ما يفعل وما يقول وقد بلغ حدا من القسوة والعنف لم يسبق له مثيل . لقد ترك لنا كريفز وصفا ممتعـا للغايـة لنادر شاه قبيل اغتياله وجاء هذا الوصف يوما بيوم وساعة بساعـة وباسلوب رائع وصغير الـى أبعد الحدود .

33) Bombay Government Records or Order books, vol. 31; Inwards or Letter books vol. No. 40.

(٢٤) كان القسم السياسي والسري قد انشىء في عام ١٧٥٥ على أثر الصراع بين البريطانيين والامراء الهنود واحتمال تجـدد الحرب مـع الفرنسيين في الهند . وفي عام ١٨٠٩ فصل الى قسمين مستقلين هما القسم السياسي والقسم السري . وعولجت قضايا الخليـج في القسم السياسي حتى عام ١٨١٨ وفي العام المذكور تحولت هذه القضايا الى القسم السري بعد القرار الذي اتخذ بارسال حملة بريطانية ضد القواسم . واستمـر الوضع الى عام ١٨٢٣ حيث ارجع الى القسم السياسي وبقي كذلك حتى عام ١٨٣٧ . وعلى اثر تحرك المصريين والمشاكل مع الفرس . اعتبرت قضايا الخليج العربي خطيرة فنقلت الى القسم السري حتى عام ١٨٤٣ . وبعد هذا العام عولجت قضايا الخليج بشكل عام في القسم السياسي ، ما لم تكن تخص العلاقات مع فارس والدولة العثمانية والقوى المحلية في الخليـج العربي ، والتي تتميز بأهمية خاصة فانها عولجت بالقسم السري .

(٢٥) انظر الملحق رقم (٣) القسم الخاص ببغداد والبصرة .

(٢٦) انظر ملحق رقم (٣) القسم الخاص بالبحرين ومسقط والوهابيين والقواسـم .

(٢٧) نفس المصدر .

(٢٨) انظر ملحق رقم (٣) خاصة ذلك الجزء الخاص برأس الخيمة .

(٢٩) نفس المصدر .

(٣٠) انظر ملحق رقم (٥) والمجلدات الخاصة بالبحرين ومسقط ، وبوشهر وفارس وتجارة الاسلحة وراس والخليج العربي ، والقبائل العربية ، والقرصنة .

(٣١) انظر المجلدات الواردة تحت اسم Turkish Arabia

(٣٢) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان Bussora Despatches

(٣٣) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان Bagdad Despatches

(٣٤) انظر المجلدات الواردة تحت عنوان Euphrates Expeditions

والمقصود بالحملة هو حملة استكشافية وليست عسكرية .

35) See **Bombay Government** Records: Particulars of Records of Missions, **Committees, Institutions** etc. Persian Gulf Mission, vols. **283 - 285.**

(٣٦) نفس المصدر .

37) Ibid. **Bagdad Mission**. **vol. No.** 300-307.

38) **Ibid.**

39) Bombay **Government** Records, Memoirs by Comandes Jones Felix, connected **with** Bagdad, Nahrawon Canal etc. Bombay: Education Society **Press: 1857.**

اما الرقم الذي يطلب به فهو $\frac{3857}{9}$ اما تلك الارقام التي وردت في Kendersley فلا يمكن ان تساعد في هذا المجال .

40) Bombay **Government Records,** Miscellaneous Information Connected **with the Persian Gulf,** Bombay: Education Society Press: 1856.

اما الرقم الذي يطلب به فهو $\frac{3306}{1}$ اما تلك الارقام التي وردت في فلا يمكن ان تساعد في هذا المجال .

توينبي

الأستاذ الدكتور جواد علي
بغداد

امتاز توينبي عن نظرائه من مؤرخي التاريخ الحضاري العالمي بميزتين بسعة علمه بمفردات تاريخ العالم ، وبقوله الحق ودفاعه عنه فيما يثبت عنده انه الحق .

وتتجلى الميزة الاولى في هذا السيل المدون في متن كتابه [1] وفي حواشي صفحاته بالاستشهاد بالحوادث والنقول التي اقتبسها من موارد لا يعرفها عادة الا اصحاب الاختصاص ، وبالمامه بالقضايا الفرعية والجزئية الدقيقة من تواريخ شعوب العالم واستخدامه اياها في دراسته المقارنة للحضارات وفي مقابلاته بينها ، مقابلة لا اعرف لها مثيلا في كتب غيره من المؤرخين المشتغلين بدراسة الحضارات وبنائها « Kulturmorphologie » « Culturemorphology » فأنت اذا قرأت كتاب « افول الغرب » « Der Untergang des Abendlandes » [2] للمؤرخ الفيلسوف « اوسوالد شبنكلر » « Oswald Spengler » وهو في بنيات الحضارات وفي ادوار حياتها وتركيبها وقارنته بكتاب توينبي وهو صنوه في هذا الموضوع وفي تأثيره في الناس ، تجد البون بينهما شاسعا جدا في قضية المادة التي عرضها توينبي لتأييده رأيه ، وفي وقوفه على كنه ما أورده من أمثلة واقتباسات واسماء تجدها منثورة في المتن وفي حاشية

---

(١) صدر في اثني عشر جزءا ، طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٣٤ م .
(٢) صدر الجزء الاول منه سنة ١٩١٨ م ،

كل صفحة ، بصورة مذهلة أثارت دهشة جميع قراء الكتاب ، بما فيهم نقاده [1] وأقر الجميع بسعة علمه المدهش بتاريخ العالم .

اما ميزته الثانية ، فتظهر الك في نزعته الانسانية وفي اخلاقيته المتجلية من الانسان على أخيه الانسان منذ أقدم الايام الى يومنا هذا ، وفي سخريته من هذا الغرور حمل الانسان على تسخير ابدع وأسمى ما اعطى وهو عقله في خدمة حماقاته بالعمل منذ نشوئه على توسيع وتعقيد أجهزة الحرب التي خلقها بيده ، لتدمير ما خلقه الله وما خلقه الانسان بنفسه ، بدلا من ان يستخدمه في خدمة الانسانية وفي تطويرها نحو حياة أفضل ، وفي العمل على نشر مبادىء المحبة والتعاون بين الناس والترويج لمبادىء الحياة المسالمة والاخوة المؤدية الى تكوين عالمية تزيل عن بني الانسان الافكار الغرورية التي تولدت عنده من تقدمه التقني الهائل ، ومن صرفه هذه البلايين من الدولارات التي يجمعها من مجهود البشر ، على قنابل يهدد بها ضعفاء الناس ، بدلا من ان يعرفها على المحتاجين من الناس لرفع مستواهم وعلى مساعدة الشعوب الضعيفة لرفع مستواها معاشيا وعلميا وتقنيا .

ولما نشر « برتراندرسل » كتابه « Has Man a Future » أي «هل للانسان مستقبل؟» علق عليه توينبي في جريدة « Sunday Observer » [2] تعليقا وصف فيه جيلنا هذا بـ « الجيل المجرم » وقال فيه ان رغبتنا في القتال ترسبت من العصور الخالية حين كان الانسان يقاتل الوحوش حتى يكتسب لنفسه البقاء ، ولما أصبح سيد هذه الوحوش أخذ يشبع عادة القتال في حرب يحارب فيها الاخ اخاه ، انها عادة قديمة وشريرة ، بيد ان من الممكن تغيير العادة اذا صمم الانسان على بذل المجهود الاخلاقي

---

(1) Y. J., Renier, History its Purpose and Method, p., 216, R. G. Collingwood, The Idea of History, pp., 181, 223, 225, 264.

(٢) عدد الاحد يوم ٢٦ تشرين الثاني من سنة ١٩٦١ م ، وقد عرّب الكتاب ، عرّبه سمير عبده ونشره سنة ١٩٦٩ .

المطلوب ، ان جيلنا يدرك ان علينا في عصر الذرة ان نعالج غرورنا مـن عادة شن الحرب اذا أردنا بقاء الانسان ، ولكننا لا زلنا منذ انتهى القـاء قنبلة هيروشيما نقول بويلات الحرب الذريـة . ثم لا نـزال نقتر على المواطنين لندخر المال في سبيل اكتشافه قنابل تكون أشد فتكا بالانسان من تلك القنبلة .

ومن حماقات هذا الانسان وبربريته تصوره انه على منازل ودرجات، وان الله قد خلقه متفاوتا في القابليات وفي العقل ، وهي حماقات قديمة . لا تزال تعيش وقد حمل عليها توينبي وعدها بربرية وثنية ، تعيد الانسان الى همجيته الاولى ، فسخف رأي « كوبينو » « Count de yobineau » القائل بتفوق الانسان « الآري » ولا سيما « النوردي » أي الشمالي منه على بقية الشعوب (١) ، وبعدم تكافؤ الاجناس البشرية وسخر من رأى « هوستن ستيوارت شبرلن » « Hauston Stewart Chamberlain » الانكليزي المتجر من الذي أخذ برأي « كوبينو » في كتابه : « أسس القرن التاسع عشر « Die yrundlégen des 19 Jahrhunderts » ١٨٩٩م وجعل الحضارات حاصل عمل « الرس » « Race » والرس درجات . اعلاها الجرمان : « الجنس المختار » . والجنس النوردي خالق الحضارات الاصيلة (٢) ومهد بذلك النازية مثلها « Weltamschauung » التي تجسست في شهادة ايمانها التي يجب ان يعمل بها كل نازي هي شهادة الـ « Blut und Boden » (٣) أي الاعتقاد بشرف « الدم والارض » ، والدم هو الرس الجرماني والأرض تربـة الوطـن ، أرض الجرمان .

وهي فلسفة اقرها «هتلر» في انجيله « Mein Kampf » «كفاحي»

(1) Toynbee, A study of History, Vol. 7, p. 49, 8, p. 81, p., 429, 437, Abridgement, by somerwell, vol., 1, pp., 216.

(2) Schmidt, Philosophes Worterbuch, S., 95

(3) Schmidt, S., 83.

كتاب النازية المقدس ، وعمل فيلسوفه : « الفريد روزنبرك »
Alfred Rosenberg على نشرها بين الالمان في كتابه :
« Der Mythus des 20 Jahrhunderts » اسطورة القرن العشرين ،
وفي مؤلفاته الاخرى التي نادى فيها الى تقديس الرس ، واحياء تراثه ،
وابقائه صافيا نقيا ، ونادى مع من نادى قبله بفصل العنصر الجرماني عن
العناصر الاخرى حتى تم ذلك باصدار قوانين الفصل العنصري المعروفة
بقوانين نورنبرك لحماية الدم الالماني وشرف الدم المقدس ، وبجمع شمله
من كل مكان بضمه الى ارضه ، التي فيها مجال حياته « Lebens Raum »
وبضم كل ما يعده الالمان أرضا المانية اليهم « Anschluss » والتوجه
نحو الجبهة الشرقية بصورة خاصة : « Drang nach dem osten » .

وبين هذه الديانة التي تدين بالعنصرية [1] ، وبوثنية القرن العشرين ، وبالبربرية الجديدة كما نعتها المؤرخ «توينبي» [2] وبالاجرامية ، ليقتلها اليهود [3] ، وبالفصل العنصري المتجلي في قانون نورنبرك ، وباعمدة العقيدة الاخرى التي حرمها الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية : وبين الصهيونية المتحكمة اليوم في السياسة الدولية نسب وصلة بل هي في الواقع « نازية » اليهودية ، تقول بالرس ، وبالدين وبالتربة وبالفصل العنصري ، وبالتوسع لاحياء الـ « Lebens Raum » التي هي « اسرائيل الكبرى » « من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات »[4] ، عرضا ، ومن الجنوب الى مدخل حماة « وجميع لبنان جهة مشرق الشمس

---

(1) A Study, Vol., 8, pp. 288, 576, 604, 9, 437.

(2) A Study, Vol., 8, pp., 13, 81, Vol., 9, p., 450.

(3) A Study., Vol., 8, 288.

(٤) التكوين ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٤ ، الاصحاح ٢٨ ، الآية ١٣ ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٨ ، الاصحاح الثاني عشر ، الآية ٢٧ الاصحاح ٢٥ ، الآية ١٠ وما بعدها الخروج ، الاصحاح السادس ، الآية ٢ وما بعدها الاصحاح السابع عشر ، الآية ١ وما بعدها .

من بعل جاد تحت جبل حرمون الى مدخل حماة (١) ، مع طرد كل الساكنين بهذه الارضين لان الرب قال : « سأطردهم من وجه بني اسرائيل ، وانت تقسمها بالقرعة لاسرائيل ميراثا كما امرتك (٢) »

يتحدث الصهاينة في الوقت الحاضر عن حدود آمنة ، وهي حدود لا حد لها في المستقبل ، ما دامت اسرائيل هي دولة فوق الدول . تسير اميركا حسب مشيئتها ، فيقول « بن كوريون » في مقدمته عام ١٩٥٤ لكتاب : « تاريخ الهاكناه » ، في الوقت الحالي تتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده ، لكننا سنقول المعرب : ابتعدوا ، فليس في بلادنا مكان الا لليهود ، فاذا لم يوافقوا فسنبعدهم بالقوة وفي آب سنة ١٩٦٧ ، صرح موشى دايان . اننا اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل ان نمتلك ارض الكتاب المقدس (٣) ، فلا بد اذن من التوسع التدريجي كما فعل هتلر من قبل ، ولا بد من خلق اسرائيل الكبرى ، ولا بد من التوسع ومن التدخل في شؤون الدول الاخرى لحملها على اخراج يهودها للنزوح الى اسرائيل .

ونرى « ليفي اشكول » رئيس وزراء اسرائيل السابق ، يقرر ان كل يهود العالم في « الشتات » أي خارج اسرائيل ، هم مواطنون اسرائيليون ، وتحت رعاية وحماية اسرائيل وهذا مما آثار ثائرة اليهود الاميركان الذين يعيشون في الولايات عيشة يحسدها عليهم الاسرائيليون (٣) ، وجعل وزارة الخارجية الاميركية توضح موقفها من هذا القرار الذي يعرض اخلاص اليهود في العالم لأوطانهم الى الامتحان ، ويهدد العرب في أرضهم (٤) .

---

(١) التثنية ، الاصحاح الاول ، الآية ٦ وما بعدها .

(٢) سفر يشوع ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية الاولى وما بعدها ، سفر القضاة ، الاصحاح الثالث ، آية ٣ وما بعدها .

(٣) روجيه جارودي ، « عن الذرائع الدينيةوالتاريخيةالصهيونية » ، بحث القاه ببغداد .

(٤) Levi Eshkol, Israel & the Diaspora, Issues, Winter, 1965-66 pp., 13.

ولهذه العقيدة المشتركة ، عدها قوم من اليهود من صنيع النازية[1]، فالعوامل التي خلقت النازية هي نفسها العوامل التي عملت على خلق الصهيونية ، وعلى رأسها الشعور بالقومية المتطرفة ، وبالجنس الخاص المختار [2] . فنادت بغربة اليهود عن الأقوام التي يعيشون بينها ، وشجعت على ظهور اللاسامية وعلى اثارتها ، لحمل اليهود على مغادرة ارض الشتات « Diaspora » الى ارض فلسطين[3] ، واشتركت وتعاونت مع النازيين في اخراج اليهود من المانيا وهذا ما كان يريده الالمان ، للتخلص منهم ، ولاحراج البريطانيين بذلك ، اصحاب الانتداب على فلسطين ، بل اتهم بعضهم مثل « كستنر » « Kastner » وغيرهم بمعاونة النازيين في قتل اليهود [4] وقد اتضح بعد الحرب العالمية الثانية ومن الوثائق السرية ان جماعة من يهود المانية كانت تتعاون مع «هملر» رئيس الـ « SS » « اس اس» في امور اليهود وفي خلق جو مرعب من اللاسامية يدفع اليهود على ترك المانية الى فلسطين ولن يسمح لي الوقت للدخول الى تفاصيل ذلك[5] ، وهكذا ساهم الصهاينة انفسهم بخلق اللاسامية لتحقيق هدفهم في خلق اسرائيل جديدة على نمط دنيوي لا يتفق مع تعاليم التوراة ، وقد عارض « اكودات يسرئيل » « Agudath Israel » وغيرهم من المتدينين الصهيونية لأن مملكة الله لا تكون باعمال الانسان بل بارادة الله [6] وبالمسيح الموعود من نسل داوود ، فلما ظهر المسيح ، المخلص زال الوعد المعطى في التوراة بظهوره وبعدم ايمان اليهودية به ، كما جاء

(1) The Zionist Wish & the Nami Deed, By Benyamin Matovu, in Issues, Winter 1966-1967, pp., 1.

(2) A Study, Vol., 8, pp. 290.

(3) A Study, Vol., 7, pp., 530, 579, 8, 274, Vol. 9, 24, Vol., 10, p. 322.

(4) Issues, Winter, 1966-1967, p., 1.

(5) Heimy Hohne, The Order of the Death's Head, pp. 305, 318, Helmut Krausnick, Martin Brosmat, Anatomy of the State, pp. 35.

(6) Study, Vol., 8, pp. 300, 600.

ذلك في الاناجيل [1] لأن الايمان به أبطل العهد بالختان ، وجعله في المحبة وفي القلب ، ختان القلب [2] ، وعقيدة الشعب المختار عقيدة تذكرنا بنشيد النازية الذي حرم الحلفاء مطلعه Deutschland Deutschland uberalles المانيا فوق كل شيء في العالم لما فيه من نزعة القومية المتطرفة ، وهي عند توينبي من حاصل الانانية ويقول : « أنا لا اؤمن بأن الاها ، هو في نفس الوقت محب وقادر على كل شيء يفضل بعض ابنائه على بعض تفضيلا يثير في نفوسهم الحسد والبغضاء ، ان هذا التمييز لم يصنعه الله »، وانما يعود الى خطيئة عبادة الذات أي الأنانية والقومية وهو خطأ اخلاقي مثلما هو خطأ علمي ، و « انا لا اعتقد بأن اليهود او الاسرائيليين البريطانيين هم شعب الله المختار ، وأنا لا اؤمن بالاحرى بأن اعادة اسكان اليهود في فلسطين هو الكمال الذي دأب على انجازه جميع التاريخ البشري منذ العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد » [3] وقد دأبت الكنيسة متأثرة بالتوراة على ان كل شيء في هذا العالم قد صنع من أجل الامة اليهودية ، كما قال ذلك « فولتير » في رده على الاسقف « بوسيه » في تاريخه عن العالم [4] ، وهذه العقيدة هي سر تكتل اليهود واستعلائهم عن الغرباء الارجاس ، ونفور الغرباء منهم ، النفور المعروف باللاسامية .

وكما عارض توينبي النازية لعقيدتها البربرية ، عارض الصهيونية للسبب نفسه ، فانها بعقيدتها هذه صارت وريثة للتراث النازي ، فقد اجرمت كما اجرم النازيون حين فصلوا اليهود عن المجتمع الالماني لعرقهم ، وساقوهم الى غرفة الغاز اما الصهيونية ، فقد شردت أكثرية أهل فلسطين

---

(١) رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية ، الاصحاح الثالث ، اعمال الرسل ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٣ وما بعدها ، ٣٢ وما بعدها .

(٢) التثنية ، الاصحاح العاشر ، الآية ١٦ ارميا ، الاصحاح الرابع ، الآية ٤ .

(٣) آفاق عربية ، العدد ٧ ، آذار ١٩٧٦ م (ص ٢٤) نقل الاستاذ محمد توفيق حسين من كتاب تجارب (ص ١٣٥ وما بعدها) .

(٤) Emery Neff, The Poetry Of History, pp., 11.

هذه الارض من قبل مجيء اليهود مشردين الى فلسطين فيما قبل الميلاد ، وشتت شملهم تشتيتا « Diaspora » فكأنها ارادت بذلك تمثيل دور الذين شتتوهم قبل الميلاد ، وبدلا من ان تحاكي الصهيونية فعل معلمتها النازية بادخال اهل فلسطين غرف الغاز استعملت البنادق والرشاشات في قتل الفلاحين العزل حين عودتهم الى بيوتهم بدير ياسين وبغير هذا المكان[1] وشتت شمل عوائلهم فأثبتت بما فعلته مع أهل فلسطين وبمباغتتها للدول العربية المجاورة لفلسطين انها ليست أقل شرورا من النازية في تصرفاتها وفي سلوكها ، وقد اثبتت عصابة « اركون » « Irgun »[2] و « الهكانا » و « شتيرن »[3] : ان سادتها قد اجادوا دروسهم التي تعلموهـــا من الـ « اس اس » « SS » فرقة « هملر » رئيس «الكستابو» بارتكابهم أعمالا فضيعة مع الفلسطينيين استبشعها عدد من اليهود مثل الفيلسوف الفيزيائي « البرت انشتاين » وجماعة من كبار علماء اليهود وبينهم حملة جائزة نوبل ، فلما جاء نبأ قدوم « مناحم بيكـن » « Menahim Begin » رئيس وزراء اسرائيل الحالي ، الى الولايات المتحدة عام (١٩٤٨) ، احتج هؤلاء العلماء على مجيئه ونشروا احتجاجهم في جريدة نيويورك تايمس في اليوم الرابع من كانون الاول من سنة ١٩٤٨ ، لأنه ارهابي وفاشي ونازي وله حزب سياسي يشبه في تنظيمه وأساليبه وفلسفتـه السياسية وتكوينه الاجتماعي الاحزاب النازية والفاغية ويتكون الحزب من اعضاء ومناصري ايركون زوي ليومي ، وهي منظمة ارهابية يمينية متعصبة قوميا ، وقد مزج في الاوساط اليهودية مزيجا من التعصب القومي وأفكار التفوق العنصري ، والمثال على تصرف هذا الحزب ما جرى في قرية دير ياسين من تقتيل ومـن السير بالفلسطينيين اسرى في شوارع

---

(1) A Study, Vol. 8, pp. 290.

(2) A Study, Vol. 8, p. 290.

(٣) فلسطين ، جريمة ودفاع (ص ٩٠) .

القدس،لارعاب العرب وحملهم على ترك فلسطين والهجرة الى الخارج[1].

و « بيكن » هذا الارهابي « Terrorist » الذي خجل اولئك العلماء الكبار من مجيئه الى الولايات المتحدة لانه سفاك ، هو نفس « بيكن » الذي دخل القصر الابيض ، باستقبال مهيب عاطفي من رئيس الحكومة الاميركية السيد « كارتر » وقابل زعماء المجلسين ، مع انه لا زال ارهابيا مصمم على اعتبار الضفة الغربية من ارض اسرائيل التاريخية وعلى احياء مملكة اسرائيل الكبرى وعلى منع الفلسطينيين من استرداد وطنهم ، والمجيء الى ديارهم ، وهم اهل البلاد قبل اليهود ، يجري كل ذلك بينما تصر الولايات المتحدة على اعتبار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمة من الارهابيين وهي الام ، تسمح لنفسها بمصافحة الارهابيين ، ذلك لأن لليهود كما هو معلوم نفوذ قوي في الولايات وعدد يزيد على عدد يهود فلسطين بأكثر من الضعف ، ولهم نفوذ قوي هناك تحدث عنه توينبي في مواضع متعددة من كتابه[2] .

كان تشكيل الوطن القومي لليهود للتخلص من الشتات ومن خطى اللاسامية اعظم حجة تمسكت بها الصهيونية في ادعائها بالوطن القومي ، ولما صدر ما يسمى بوعد بلفور لم يهاجر الى فلسطين ما كان يتصوره الصهاينة ، فأخذوا يستعينون بالوسائل المختلفة وفيها الوسائل السرية ، مثل الهجوم على معابد اليهود والحملة عليهم ، لحملهم على الهجرة ، والاتفاق مع النازيين وعلى رأسهم « هتلر » على تهجيرهم الى فلسطين ومع ذلك فقد بقي عدد كبير منهم في المانيا ، وبعد تأسيس الكيان الصهيوني بتدخل شركة « فايرستون » بقي أكثر اليهود مع ذلك في الشتات ولم يتجنس

---

(1) The New York Times, 4 December 1948.

وقد استعنت بالنص العربي المنشور في (صفحة ١١) من مجلة الف باء ، العدد ٤٦٠ من السنة العاشرة ، ١٣ تموز ١٩٧٧ .

(2) A Study, Vol. 8, p. 292, 303, 307, Vol. 9, p. 586.

منهم بالجنسية اليهودية الا الاقلية منهم ، تماما كما وقع في أيام « عزرا » يوم أمره ملك فارس باخراج قومه من سبي بابل الى فلسطين ، فلم يخرج منهم معه الا القلة وبقيت الكثرة في بابل وفي بقية الشتات [١] .

وتجاه هذا الوضع البغيض للصهيونية ، ستسعى الصهيونية العالمية بكل وسائلها وامكانياتها كما نوه بذلك توينبي ايضا في مقال نشره في نشرة « Issues » لصيف ١٩٦٠ ، الى خلق لا سامية جديدة تدبرها هي بنفسها ، وتؤجر عليها رجالا من المرتزقة لاثارة الرعب بين اليهـــود لحملهم الى الهجرة ، وجمع شتاتهم في فلسطين ، لتتمكن من احياء ارض الجنس المختار [٢] ، فان من الاجرام ترك ما يزيد على ثلاثة ملايين يهودي في مدينة نيويورك مع غنائهم الهائل ، وفلسطين في حاجة اليهم وهذا ما قاله « اخدهام » أحد زعماء الصهيونية في سنة ١٩٢١ م [٣] .

وتجاه مناقشة توينبي الصهيونية في موضوع الجنس المختار والزرع المقدس ، وارجاعه هذه العقيدة الى خطيئة عبادة الذات ، لأن الخالق لا يفضل بعض ابنائه على بعض تفضيلا يثير في نفوسهم الحسد والبغضاء [٤] ، وتجاه قوله بتحجي اليهودية بوقوفها حيث وقفت [٥] ، وبقواله بانتهاء وعد الرب لابراهيم بظهور المسيح يسوع الناصري [٦] وبما ذكرته مـــن امور رمي باللاسامية وبمعادات اليهودية [٧] ، وبعدم الفهم [٨] ونست

---

(١) راجع اسفار عزرا ، ونحميا Issues, Summer 1960,

(٢) راجع مقاله في Issues, Summer 1960, نشرة يصدرها المجلس الاميركي لليهودية .

(٣) Judische Rundschau, 1921, Nr: 83, Alfred Rosenberg, Der Staatsfeindliche Zionismus, 1938, S. 69.

(٤) توينبي ، Experiences, pp., 125.

(٥) أرنولد توينبي ، فلسطين ، جريمة ودفاع (ص ١٥١ وما بعدها).

(٦) A Study, Vol. 12, pp. 484.

(٧) Jewish Chronicle, 31 Oct., 1975.

(٨) Rahinowicy, O. K., Arnold Toynbee On Judaism & Zionism, 1974.

الصهيونية ان توينبي هو من اعدى اعداء اللاسامية بكل اشكالها من قديمة ومن حديثة ، حتى انه انتقد النصرانية لما ظهر منها من عداء نحو اليهود ، ولقولها بخطيئة اليهود في قتلها السيد المسيح ، وحمل على الاوربيين وغيرهم لتعصبهم على اليهود [1] . نست كل ذلك وغسلته لأنها ترى ان الناس آحرار في مدح الصهيونية ولكن لا حق لأحد منهم حتى ان كان يهوديا من التعرض لها بالنقد ، لأن نقد الصهيونية هو عمل نازي ، معاد للسامية ومعاداة السامية جريمة حرمها القانون الدولي ، وادخلت عدد ا من مفكري اليهود الاحرار في عداد اللاساميين [2] ، وحكمت على « المجلس الاميركي لليهودية » The American Council for Judaism ومقره نيويورك بمعاداة اليهود لانه لا يقي الآراء الفلسفية القائمة على فلسفة القول بالرس والقومية وبالشتات وبعودة اليهود الى اسرائيل [3]، فليس اليهود رسا بالمعنى العلمي الانتروبولوجي [4] .

وقد اتهمه « يا ماكوف هدتزوك » سفير الكيان الاسرائيلي في كندا بتحامله على الصهيونية ، وذلك بحواره معه في مدينة « مونتريال » وحاول السفير اظهار ان توينبي من المتحاملين على الاسرائيليين ومن المتعاطفين مع العرب ، وجرى في هذا الحوار كل المواضع التي أخذتها الصهيونية عليه ، وحاول باسلوب الدبلوماسية افحامه امام الناس ، فكان جوابه عليه جواب العالم الهادىء الرصين [5] .

والواقع ان توينبي كان كما قلت من أشد الناس عداوة للمعادين

---

(1) A Study, Vol., 8, pp. 281.

(2) Zionist & Anti-Semite, Issues, Spring, 1966, pp. 20.

(3) The Challenges of Freedom, In Issues, Summer 1935, pp. 16.

(4) Are Jews A Race ?, Issues, Winter 1961, pp. 34.

(٥) وقد نقلت هذه المحاورة الى العربية بعنوان : فلسطين جريمة ودفاع ، تعريب : عمر الديراوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ م .

لليهود ، كما كان من أشد الناس كرها للظلم ، ولهذا ندد بمهاجمة بلاده لمصر مع فرنسا واسرائيل سنة ١٩٥٦ م ، وعاب على قومه في سيرتهم الاستعمارية ، وانتقد الولايات المتحدة لسياستها الامبريالية مع انها كانت من المستعمرات في الاصل وكان من اللازم عليها مساعدة الشعوب المستعبدة ودافع عن حقوق السود في الولايات المتحدة وعن الأفارقة ودان تدخل الولايات المتحدة بفيتنام وبالمواضع الاخرى من جنوب شرقي آسيا، فهو رجل انساني العقيدة ، يدين بالسلم ولا يقبل صدور الظلم من أحد .

ومن هذه العقيدة الانسانية دافع عن الفلسطينيين لا عن عداوة للصهيونية وعن حب للعرب وانا متأكد من قولي هذا اعتمادا على اتصالي به ومجالساتي معه في لندن وفي بغداد وفي الولايات المتحدة ، وما كان في طبع توينبي النفاق والدجل فقد كان صريحا يجاهر بما يعتقد ولا يبالي بأحد وقد كلمته في مخاصمة الصهيونية له لا سيما بعد ظهور الجزء السابع والاجزاء التالية له من الكتاب فلم اجد منه ما يشير الى حنقه على الصهاينة او ما يشير الى حقده عليهم ، فقد كان جوابه لي جواب المؤمن الصادق في لهجته : لقد كتبت ما كتبت لا لأجل اثارة حقيقة ، او عن كره وعداء ، او عن طمع في مال اكسبه من رواج الكتاب والذي هاجم النازية مثلي وهاجم قومه وهاجم فرنسا وغيرها لا يصدر منه كره لليهودية ولا يمكن ان يعاديها ، ولكن الصهيونية نازية في ثوب يهودي انها عبادة جديدة تؤمن بالمثل التي اوجدت الديانة النازية وهي كما قال عنها بعد ذلك في كتابه : تجارب استعمار اسرائيلي وجريمة بالاضافة الى كونه مفارقة اخلاقية تنافي مفاهيم عصرنا » (١) .

---

(١) مقتبس من مقال الاستاذ محمد توفيق حسين ، المنشور في مجلة : آفاق عربية عدد (٧) لسنة ١٩٧٦ . (ص ٣٠) .

من هذه الروح الانسانية الضحية تظهر عظمة توينبي ، نصير الشعوب المظلومة لقد كان لدفاعه اثر مهم في رأي العالم لعلمه ولمكانته ولشهرته ، دافع تطوعا ، فلم يذكر اعداؤه عنه انه هاجم الصهيونية لأن العرب شروه بالمال ولو علموا ذلك لما سكتوا وانما الذي اغراه على الدفاع عن اهل فلسطين هو شعوره بأن المؤرخ يجب ان يكون في خدمة الحقيقة والحق.

التراث الطبي العربي بين الأصالة والتجديد

للأستاذ الدكتور مرسي محمد عرب
الاسكندرية

مقدمـــة

تتداعى أمام الباحث في موضوع الحضارة العربية بين الأصالـــة والتجديد مجموعة من التساؤلات رأيت أن تكون مدخلا لهذا البحث الخاص بالتراث الطبي العربي باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة العربية، وموقف هذا التراث من قضية الأصالة والتجديد •

وبادىء ذي بدىء فانه لا بد من تحديد العلاقة بين الجزء والكل ، أي علاقة الطب العربي بالحضارة العربية • فعلم الطب جزء من المعرفـــة الانسانية ، نشأ منذ بداية خلق الانسان ، ومن تراكم المعرفة الانسانيـــة عبر العصور نشأت الحضارة ولا بد أن الانسان منذ ان سكن الأرض قد فكر في وجوده ، وتأمل ظاهرة الحياة والموت والمرض ، ثم أعمل عقله في الملاحظة والتجربة فحصل على معلومات بدائية في العلاج الذي أمكن اكتشافه فيما يحيط به من أعشاب ونباتات • ثم تجمعت المعلومات وتناقلها الناس عبر الأجيال حتى توفر بعضهم على مزيد من التأمل ثم ممارســة صناعة الطب والعلاج مكتشفين قواعد لهما وباحثين عن المسببات والعلل•

هكذا نجد ان الطب كان ولا يزال أمرا مرتبطا بالحياة والحضارة نشأ بقيامها ، وارتبطت علوم الطب بظواهر المعرفة الاخرى ، ولعل هذا

الارتباط كان أكثر وضوحا عندما كان العلم يمارس بطريقة موسوعية ، أي عندما كان على العالم أن يكون ملما بعلوم الفلسفة والآداب والتاريخ والكيمياء والفلك والطب وغيرها معا ، ثم استلزم التوسع الهائل في كل من هذه العلوم أن يمارس كل فرع منها بعد ذلك ممارسة مستقلة •

ثم تأتي هذه التساؤلات التي نحتاج اليها لتحديد معنى الاصالة والتجديد فيما يتعلق بالتراث الطبي العربي ، ويجدر بنا أن نقسمها الى قسمين : الأول يتعلق بالتراث الطبي من حيث تقييم ماضيه ، والثاني يتعلق بقيمة هذا التراث في حياتنا الحاضرة والمستقبلية •

فالتراث الطبي العربي من حيث هو تاريخ يدفعنا للتساؤل عما اذا كان الطب العربي أصيلا حقا ؟ وهل المقصود بالاصالة هنا أن يكون الطب العربي نابعا من صميم وجدان الامة العربية التي أقامت تلك الحضارة العظمى أم انه كان دخيلا عليها أو منقولا عن غيرها من الامم ، ثم هل تتعارض الاصالة مع التجديد بحيث لا يمكن أن يجتمعا معا في وصفنا لتاريخ هذا التراث •

أما القسم الثاني الذي يتعلق بالحاضر والمستقبل فان معنى الأصالة والتجديد بالنسبة للطب العربي باعتباره عنصرا من عناصر التكوين الحضاري العربي يستدعي البحث عن ماهية الأصالة في هذا التراث ، ذلك أن العرف السليم لدى كل أهل حضارة هو الابقاء على كل ما هو أصيل من تراثها والعمل على أحيائه والانتفاع به ، وهم على العكس من ذلك لا يفعلون ذلك بما هو دخيل غث • والطب بوجه عام من علوم الحياة المتجددة والمتطورة وقد يكون ما يصلح منه لزمان معين أبعد ما يكون عن ان يجوز لزمان تال ، ومن ثم تنشأ الحاجة الى عملية تجديد لا ينقطع •

هل نشأ الطب العربي أصيلا ؟

مما لا شك فيه ان الطب العربي شأنه شأن سائر الآفاق للمعرفة لم ينشأ من فراغ ، بل كانت له جذورا استمد منها نشأته الاولى •

ولقد نشأ الطب العربي شأنه في ذلك شأن كل مظاهر الحضارة العربية الاسلامية مع قيام الدولة الاسلامية وفي محيط الامة العربية ، غير أنه من الصعب أن نقول ان ذلك الطب العربي الزاهر الذي بلغ أوج عظمته كان هو التطور الزمني الطبيعي لذلك الطب البدائي الذي كان معروفا لدى العرب قبل الاسلام ، فلقد كان للطب العربي جذورا أخرى متعددة استمد منها عناصر حياته عن طريق النقل من طب الحضارات القديمة والمعاصرة وهي الطب المصري القديم والطب اليوناني وما كان معروفا لدى البابليين والآشوريين ثم الفرس والهنود والصينيين ، والحق أن الجذور المنقولة عن هذه المصادر كانت أقوى بكثير واخصب من تجارب العرب في الطب قبل الاسلام •

وفي ذلك يختلف الطب العربي مثلا عن الأدب العربي الذي تمثل جذوره الأقوى ما كان متصلا بحياة العرب ذاتها قبل الاسلام •

ومع ذلك فانه ما من شك في أن الاسلام ذاته كان العنصر الحاسم في بداية تكوين التراث الطبي العربي • غير أن هذا الدور يختلف في مجال الطب باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة العربية عن غيره من عناصر هذه الحضارة كالتشريع والفلسفة مثلا فهذه العناصر وجدت في الدين موردها الأساسي المباشر أما في الطب وغيره من سائر العلوم الدنيوية فقد كان للاسلام دوره العظيم بصورة غير مباشرة ، اذ ان قدرا هائلا من المعارف التي نقلها المسلمون عن غيرهم من الشعوب المختلفة ما كان يمكن ان يعبر عن طريق حركة هائلة للنقل والترجمة بدأت في ظل النهضة الاسلامية ثم ينصهر في بوتقة واحدة ، ويعاد تشكيله ، ثم يضاف اليه في مراحل تالية الكثير مما هو أصيل وخلاق لولا مبادىء أتى بها الاسلام ورسخت مع نشأة الدولة العربية الاسلامية • واتسمت هذه

المبادىء نفسها بالاصالة ، فقد قامت هي من صميم الأمة العربية ولم تكن منقولة عن أحد •

وهكذا يمكن القول أن الطب العربي نشأ منقولا بدرجة كبيرة ، غير أنه تم تشكيله ونما في التربة العربية ذاتها . تغذيه وترعاه مبادىء أصيلة دعا اليها الاسلام وتحميه تقاليد نابعة في داخل الدولة العربية ، حتى اذا استطاع بعد وقت قصير أن يعبر مرحلة النقل والترجمة الى مرحلة الخلق الاصيل حيث ابداع العلماء والاطباء العرب امكانات هائلة من تجاربهم الشخصية أكثر من اعتمادهم على النقل عمن سبقهم من الامم •

وعلى ذلك فاننا نرى أن معالجة قضية الأصالـة في الطب العربي تستدعي البحث في اتجاهين :

الاول : هو دراسة عميقة لتلك التربة الصالحة التي سمحت باحتضان العلوم القديمة ثم بنمو الطب العربي ورعايته ، وذلك عن طريق القـاء الضوء على المبادىء والتقاليد والقيم السائدة التي تكون في ظلها ذلـك التراث الطبي العظيم الذي كان له أثره الواضح في قيام الطب الحديث •

الثاني : هو القاء الضوء على تلك الانجازات الخلاقة التي أضافها العلماء والاطباء العرب في فروع الطب المختلفة فاستحقـوا بذلك أن توصف أعمالهم بالاصالة •

ومن ناحية اخرى فان معالجة قضية الاصالة بهدف البحث عما في تراثنا الطبي من أصيل يستدعي الحرص على احيائه ، دون غيره ما لـم يعد يتفق من منطق التفكير العلمي والذي لا تقع في كثير أو قليل من التمسك به وبذل الجهد في احيائه ــ نقول ان هذا الجانب من البحث سوف يسوقنا مرة اخرى الى اكتشاف اصالة التقاليد العلمية العربية التي كما كانت هي الأساس المتين لبناء التراث الطبي في الماضي فانها أيضـا هي التي ما تزال تصلح بعد احيائها ووضعها موضع الدراسة الدقيقـة

لكي تكون المنطلق لحركة تجديد شامل في الطب العربي المعاصرليس فقط لبلوغ مرحلة مسايرة ركب التطور العلمي بل لاستعادة مركز الريادة بين شعوب الأرض .

ولعلنا من هذه الدراسة أن نلتزم باسلوب ومنهج طالما دعا اليهما الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين أحد رواد البحث العلمي في التراث الطبي العربي من ضرورة البعد عن المبالغة التي شابت كثيرا من الدراسات السابقة ، أو أن تلوى الحقائق قسرا لتحقيق نزعة قومية عن طريق الاصرار مثلا على أن تكشف بالضرورة في علوم السابقين شيئا نجهله اليوم ، فلا يليق في رأيه بمؤرخي العلوم العربية ان يلتمسوا عند العلماء العرب ما يدل على أنهم فاقوا العلماء المحدثين . فان ذلك لا يستقيم مع منطق الامور ، اذ أن لكل علم قديم ملاحظات دقيقة وبه حقائق كثيرة كما أن بـه أيضا من خرافات البدائيين ما لا يستطيع الصمود امام تيار المعرفة والتقدم ، كما أن من رأي الدكتور محمد كامل حسين ان المؤلفات العربية ليست كلها سواء في أصالتها ، ومن ثم فانه لا بد من التدقيق في اختيار ما نعمل على احيائه من هذا التراث ، فبعض المؤلفات العربية لم تزد على أن تكون مذكرات يدون فيها المؤلف كل ما يعن له أن يدونه مما يسمع ويقرأ ويعلم ، ومن هنا كان بعضها مجرد مجموعة من المعلومات المتناثرة التي لا تربطها وحدة في التأليف ، ولهذا فان نشر مثل هذه المخطوطات التي لا تزيد على كونها كشكولا وضعه المؤلف لنفسه قد لا يكون بذي جدوى للتراث العربي . ولا يصدق هذا بالطبع بالنسبة للمؤلفات ذات الموضوع المحدد ، المنسقة الخالية من التكرار والاضطراد .

أصالة التقاليد العربية :

كانت الدعوة الاسلامية هي المفجر الاول للحضارة العربيةالاسلامية، ولقد دعا الاسلام الى الأخذ بالعلم بوجه عام بما في ذلك بالطبع ما يتصل بأمور الطب ، ولم يقف منه موقف العداء كما وقفت بعض العقائد

في بعض العصور ، بل رفع من قدر العلم والعلماء . ولعل في آيــات القرآن الكريم أبلغ دلالــة على ذلك فأول القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك ... » وفيه : « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « ويرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » ...

وفي أحاديث الرسول الكريم حث للمؤمنين على طلب العلــم : (غدوة في طلب العلم أحب الى الله من مائة غزوة) و (اطلبوا العلــم ولو في الصين) وهو يكرم العلماء أبلغ تكريم فيقول : (يوزن يــوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء) و (موت قبيلة أفضل من موت عالم) ثم قوله : (لا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم ولا متعلم) ..

وهكذا وجدت العلوم المنقولة من الحضارات القديمة الى الامــة العربية ذرعا ممدودة بالترحيب ، تباركها تعاليم الدين وسنة الرسول .

واستمرت رعاية الاسلام للعلم . ولم نسمع عن اضطهاد أصــاب عالما في ظل الدولة الاسلامية لشأن من شئون العلم ، ويمكننا القول بوجه عام ان العمل بالشريعة الاسلامية وما أفضت اليــه من اسلوب في الحياة وعلاقــة الأفراد بعضهم ببعض يكسب الانسان أسمى مراتب السعادة الصحية والجسمية والعقلية .

وعندما انتقلت ولاية الدولة الى الخلفاء كان هؤلاء حريصين على أن يكونوا أيضا حماة للعلم والعلماء ، فكانت قصورهم مراكز تشع منها الثقافة ، وكعبة يحج اليها العلماء ، وتعقد فيها مجالس العلم . وقد بــدأ ذلك بقصر معاوية وازدهر في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بــن عبد الملك في العصر الأموي ، ثم بلغ هذا التقليد العظيم ذروته في عهد الدولة العباسية ، وبخاصة في عهد المأمون ، الذي يعتبر عصره أزهى فترة تاريخ النهضة العربية ، فقد كان بلاطه يموج ، بجمهرة غفيرة من رجال العلم والأدب والاطباء والفلاسفة الذين شملهم جميعا برعايته .

وعندما انتقل ثقل الحكومات الى الممالك شبه المستقلة لم يكن حكام هذه البلاد في المشرق العربي او المغرب العربي بأقل حرصا على تلك التقاليد الموروثة من أسلافهم •

ثم ان الامراء والوزراء في الدولة الاسلامية كان لهم أيضا شغف بمجالس العلم ورعايتها ، ومن اشهر هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات في عشرينات القرن الرابع الهجري ، ومجلس ابي عبدالله الحسين في سبعينات القرن نفسه • ولعلنا ان نتساءل بعد كل هذا هل كان يمكن أن تكون هناك أرضا أكثر خصبا لاحتضان العلوم وازدهارها من مثل هذا المجتمع الذي يحرص ولاة الامر فيه كل هذا الحرص على رعاية العلم والعلماء •

وفي ظل تلك النظرة السامية للعلم والعلماء اتفقت تقاليد العرب على احترام مهنة الطب باعتباره علما له أصوله بعد أن انفصلت ممارسته عما كان يخالطها قبل الاسلام من السحر والخرافات ، فارتفعت مكانة الأطباء الى أعلى المراتب ، ولم يستثن من ذلك من بقي منهم على غير الاسلام بل شملت هذه الرعاية العلماء والأطباء من مسلمين ومسيحيين ويهود على حد سواء ، فقد دعا الرسول الكريم الى التطبيب على يدي الحارث بن كلدة ، واستعان خلفاء بني امية بالأطباء أمثال « ابن أثال » الذي كان نصرانيا وكان طبيبا لمعاوية الذي كرمه وقربه ، وأبو الحكم الدمشقي وابنه الحكم وحفيده عيسى ، وكان « ابن ماسرجويه » الطبيب المصري سريانيا يهوديا في زمن عمر بن عبدالعزيز ، أما خلفاء العباسيين فقد كرموا أطباء أسرة بختيشوع الفارسية الأصل ، كما اشتهر في زمنهم أيضا كثير من الأطباء غير المسلمين امثال حنين بن اسحق ، يوحنا ابن ماسويه ، وقد بلغوا أسمى مراتب التكريم في زمانهم • وكان من الولاة العرب أيضا من اتخذ طبيب بلاطه من الأطباء اليهود ، كما فعل صلاح الدين الايوبي مع موسى بن ميمون الذي كان رئيسا للطائفة اليهودية في مصر ثم دخل في خدمة السلطان صلاح الدين • ولو لم يكرم الولاة المسلمون العلماء

اليهود لما نبغ منهم احد ، اذ ان كثيرا من الاطباء اليهـود كانوا يلاقون الاضطهاد الشديد في أوروبا ولم يكن لهم حق الدخول في الجامعات حتى وقت قيام الثورة الفرنسية ، ولم يذكر التاريخ شيئا عن نبوغ أطباء من اليهود في أوروبا في العصـور الوسطى بل وفي الجـزء الاكبر مـن عصر النهضة .

لقد بلغ من تكريم مهنة الطب أن وصل ممارسوها الى أعلى مراتب وظائف الدولة الى جانب اشتغالهم فكان منهم من ولي الوزارة ــ ولعـل أشهرهم ابن سينا ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغا عظيما ، ومنهم من ولي القضاء ببغداد أمثال القاضي ابن المرخم يحيى بـن سعد الـذي أصبح قاضي القضاة أيام الخليفة المقتضي ، وأفضـل الدين ابو عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر ، كما صار سعد الدين بن البطريق بطريركا بالاسكندرية .

ولقد سمحت تقاليد العرب للنساء بممارسة مهنة الطب والمداواة ، ولم يقف الدين ضد اشتراك المرأة في هذا العمل ، وقد جاء في تاريخ الاسلام الذهبي ان أم عطوة الأنصارية قالت « غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهـم واداوي الجرحى وأقوم على المرضى » . وكانت رفيدة الأسلمية تداوي الجرحى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبرعت زينب طبيبة بني أود في صناعة الكحالة ومداواة آلام العيون واشتهرت بذلك بين العرب وكانت أخت الحفيد ابي بكر بن زهر وابنتهـا عالمتين في صناعة الطب ومداواة النساء .

ومع أن الأطبـاء العرب مارسوا الطب الى جانب علوم الشريعـة والفلسفة والكيمياء والصيدلة وغيرها . فقد عرفوا أيضا مبدأ التخصص في المعالجة ، ولعل المجال قد اتسـع لذلك في ممارسة الطب داخـل البيمارستانات ، حيث كان يقوم على كل قسم من أقسام البيمارستان أطباء متخصصون من الباطنيين أو الجرائحين (الجراحين) أو الكحالين (أطباء

العيون) أو المجبرين (لعلاج الكسور) وغيرهم وكان اذا دعا الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض لاستشارته .

ولقد كان من التقاليد التي استنها العرب ما يضمن أداء الخدمات الطبية للمجتمع على خير وجه ، بحيث يحاسب الأطباء ان أخطأوا عن جهل فاضح أو عمد ، ولعل أول صورة لذلك ما جاء في الحديث الشريف من تحديد لمسئولية الطبيب في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (من تطبب ولم يعرف عنه طب فهو ضامن) أي مسئول عن عمله محاسب عليه .. ثم بلغ تنظيم الرقابة على ممارسة مهنة الطب أوج عظمته في تقاليد الاجازة في الطب ، وفي نظام الحسبة على الاطباء والصيادلة ، فقد كان الأطباء في أول عهد الدولة الاسلامية يمارسون الطب بعد قراءته على أي طبيب من مشاهير الاطباء أو في كتب الأقدمين أو يمارسونه بالوراثة ويباشرون الصناعة بعد ذلك بغير قيود ، واستمر الحال على ذلك حتى نظم الخليفة العباسي المقتدر بالله هذه الممارسة اذ فرض على من يريد ممارسة الطب أن يؤدي امتحانا لاجازته ، وأمر بأن يكف عن ممارسة الطب جميع الأطباء الا من يمتحنه سنان بن ثابت ، وفي أيام الخليفة المستنجد بالله فوضت رئاسة الطب ببغداد الى أمين الدولة بن التلميذ لامتحان المتطببين .

ولقد نظمت الرقابة على الأطباء والصيادلة ، وكان يقوم بها مأمورون يطلق على كل منهم (المحتسب) وهو الذي يأخذ على الأطباء عهد أبقراط ، وعليه أن يتأكد من أن الطبيب لديه جميع آلات الطب بما يلزم له في صناعته ، وان يمتحن الاطباء بما جاء في الكتب الطبية المعترف بها كل فيما يخصه . ونظمت أيضا عملية الحسبة على الصيدلة . بما يضمن أن يراقبوا الله عز وجل في عملهم .. وينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم بالعقوبة ويعتبر عليهم عقاقيرهم كل أسبوع .

واذا كان ابقراط هو الذي وضع العهد للطبيب بأن يلزم الطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب ، فقد التزم العرب في ممارستهم للطب

بأخذ هذا العهد على الاطباء غير انهم أضافوا تقنينا أوفى لآداب المهنة ، يظهر جليا في ما جاء عن ابن رضوان من وصف خصال الطبيب من حسن الخلق والملبس والطبع وسلامة العقل والقلب والعفــة والنزاهــة وغيرها من كامل الصفات .

واذا كان في كل ما سبق اشارة الى تقاليد الممارسة « التطبيقية » للطب العربي التي ازدهر في ظلها هذا الطب ، فانه كان للعرب أيضا تقاليد عظيمة في التناول « الأكاديمي » لشئون الطب بما مكن لهذا الطب من أن يبنى تراثا خالدا ، وأصبحوا هم معلموا الطب لكافة الشعوب وانتشرت مؤلفاتهم الطبية وبقيت لعدة قرون هي المصادر الأساسية للتعليم الطبي .

فكان التعليــم الطبي الاكلينيكي يقــوم على مشاهــدة المرضى والاستماع الى شكاواهم واستقصاء أحوالهم وزيارة منازلهم ، ولم يكتف شيوخ الاطباء بتلقين علــوم الطب لتلاميذهم من بطون الكتب ، وانمــا كانوا يقومون معهم بالمرور علــى أسرة المرضى بالبيمارستانات يفسرون أحوال المرضى ويشيرون بالعلاج ، وتلك هي وسيلة التعليم الطبي السليم حتى وقتنا الحاضر .

وكانت المناقشات العلمية أساسا أيضا من أسس التعليم ، فالاساتذة في حلقات المناقشة يجلسون وامامهم الكتب الطبية في قاعات ملحقــة بالبيمارستانات (المستشفيات) يتباحثون مع تلاميذهم ، وكان نظــام تقديم « رسالة » لمناقشتها تمهيدا لحصول الطالب على اجازة علمية مــن ابتكار العلماء العرب . فكان الطالب يناقش في كل ما يتعلــق بما في رسالته من الفن ، فاذا أحسن الاجابة اجازه الممتحن .

وعرف العرب نظاما للمؤتمرات العلمية حيث كانت تعقد الاجتماعات في « بيت الحكمة » ببغداد وهي التي أنشأها المأمون أو « دار الحكمة » بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله ، وكان على الطلبة والعلماء ان يحضروا الى تلك الدور من شتى بقاع الأرض لحضور تلك الاجتماعات .

وفي مجال التأليف العلمي التزم أغلب الأطباء العرب بتقاليد منهجية في كتاباتهم بالحرص على ذكر مصادر ما ورد فيها عمن سبقوهم من المؤلفين ، فنجد الرازي مثلا يذكر في مؤلفاته الباب او الفصل الذي استمد منه المادة ثم يميز آراءه وخبرته الشخصية بلفظة (لى) بعد ما يدونه من هذه الآراء •

أصالة الاضافات العربية :

لقد أجمعت الدراسات المنصفة للتراث الطبي العربي على أن العرب لم يكونوا فقط نقلة للتراث القديم ، وحفظة له من الاندثار بعد أن ضاعت أصوله القديمة او معبرا عبرت عليه الحضارة القديمة الى العصر الحديث• ولو أن ذلك كان فضلهم فحسب لكان فيه كل الفخر لهم ، غير أن الحقيقة الساطعة من الدراسة الامينة تظهر بجلاء أصالتهم في الابتكار والخلق والاضافة في مختلف مجالات الطب وفروعه ، ويطول بنا الحديث لو تتبعنا هذه الاضافات في شتى المجالات ولا نرى في الواقع داعيا لسرد بيان هذا البحث لتلك الاضافات العربية في التشريح ووظائف الأعضاء والطب الباطني والجراحة وأمراض العيون وأمراض النساء وابتكار الآلات الطبية ونظم الادارة للمستشفيات ورعاية المجانين وغيرها ، فقد يخرجنا ذلك التفصيل عن جوهر ما نقصده من هذه الدراسة كما أن مثل هذا التفصيل قد أفاضت فيه امهات الكتب والمؤلفات التي تناولت التراث الطبي العربي من هذه الزاوية •

أما بيت القصيد في بحثنا فهو يؤكد ان الأصالة الحقيقية والخالدة في التراث الطبي العربي انما هي في القواعد والأسس التي قام عليها هذا الطب ممارسة ، وتطويرا واضافة ، وتعليما ، وهي التقاليد التي تم في ظلها كل ذلك ، من رعاية الدين والدولة وأولى الأمر للعلم وتكريم العلماء من كل جنس ولون ، وفتح مجال الاجتهاد في هذه الصناعة أمام الرجال والنساء ، والتخصص الدقيق في فروع الطب المختلفة وتحديد المسئولية الدقيقة لعمل الأطباء ومراقبة أعمالهم ، والالتزام بآداب المهنة

والأخلاق ثم في بناء تعليمهم الطبي ووضع مؤلفاتهم العلمية من واقع المشاهدة العلمية والبحث وحرية المناقشة والأخذ بنظم الرسائل العلمية والاجازات والمؤتمرات وفي الأمانة العلمية في وضع مؤلفاتهم ..

كل هذه التقاليد العظيمة في نظرنا هي الأصالة التي سمحت بقيام التراث الطبي العربي وهي التي كانت أساسا لنشأة الحضارة العربية الشاملة ، وهي في نظرنا أيضا الأصالة الكامنة في ذلك التراث التي تدعونا دائما للعمل على احيائها والالتزام بأحكامها ، فهي صالحة لعصرنا هذا ولكل العصور وهي الكفيلة حقا بنقل الحضارة العربية بما فيها من طب وغيره . من ظلام التخلف الحاضر الى أوسع آفاق التقدم المأمول في المستقبل ان شاء الله .

المراجـــع

طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة .

تاريخ البيمارستانات في الاسلام : للدكتور احمد عيسى بك .

لمحات من تاريخ الطب : للدكتورة آمنة صبري مراد .

طب الرازي : للدكتور محمد كامل حسين .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العددالرابع) سبتمبر ١٩٦٣ .

مجالس العلم والجمعيات العلمية في مختلف العصور : للدكتور عبد الحليم منتصر .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العددالرابع) سبتمبر ١٩٦٣ .

مكانة الطب في تاريخ العلم عند العرب : للدكتور عبد الحليم منتصر .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد السابع) يناير ١٩٧٤ .

تقاليد وآداب المهنة الطبية لدى العرب : للدكتور مرسي محمد عرب .

مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم : (العدد السابع) يناير ١٩٧٤ .

هجرة القبائل العربية الى الكوفة في القرن الأول الهجري وأثرها في التنظيمات القبلية

الدكتور محمد حسين الزبيدي
كلية الآداب / جامعة بغداد

تمهيـــد

لقد بدأت طلائع هذه الهجرة الى الكوفة حينما ارسل ابو بكـــر الصديق (رض) حملتين الى العراق لمحاربة الفرس في المرحلة الاولى من الفتوحات الاسلامية • تولى الحملة الاولى خالد بن الوليد • عندمـــا أرسل ابو بكر كتابا الى خالد يأمره بالتوجه الى العراق بعد الانتهاء من حروب الردة في اليمن • وطلب ابو بكـــر من المثنى وحرملـــة وسلمى وفدعور أن ينضموا الى خالد وان يكونوا تحت قيادته فكانوا في ثمانية آلاف من ربيعة ومضر وكان هو في الفين فصار جيشه في عشرة آلاف مقاتل وأمر ابو بكر أيضا ان يفتح العراق من الجنوب على أن يبدأ بفرج الهند (الابله) (١) ثم (البصرة) (٢) وكان عدد جنوده في هذه الحملة عشرة آلاف مقاتل •

اما الحملة الثانية تولاها عياض بن غنم حين طلب اليه الخليفة ان يأتي العراق من اعلاه وان يلتقي في الحيرة مع خالد •

وقد وصل خالد الى الحيرة مبكرا ولكن عياض لقي مقاومة شديدة حالت دون وصوله الى الحيرة • فاضطر خالد ان ينقذه وان يفرق عنه

---

(١) الذهبي : الاعتدال جا ص ٣٦٤ •
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٢ •

الجيوش الفارسية المقاتلة وانصارهم من نصارى العرب ولقد كان جيش خالد بن الوليد يضم الصفوة الممتازة من المسلمين فكان هـذا الجيش خلاصة المهاجرين والانصار الذي حارب بهم اهل (الردة) في انحـاء الجزيرة العربية وكان فيه كثيرا من الصحابة والقراء • وقد أمد ابو بكر جيش العراق بسدد آخر فقد أمد خالد بن الوليد بالقعقاع بن عمر التميمي وأمد عياض بعبد الرحمن بن عوف ثم كتب اليهما ان استنفرا من قاتل من أهل الردة على الاسلام بعد رسول الله (ص) • وترك خالد هذا الجيش اذا اعطيت قيادته الى المثنى بن حارث الشيباني بعد سفره الى الشـام لنجدة المسلمين هناك •

وعندما خرج خالد الى الشام خرجت معه طائفةمن الجيش واستخلف المثنى على من بقي منه وقد خاض المثنى معركـة واحدة في بابل ضـد الجيش الفارسي •

وعندما أحس المثنى بضعف جيشه امام الجيش الفارسي طلب نجدة من ابي بكر ولما استبطىء المدد خرج الى المدينة •

ولما وصلها وجد الناس منشغلين بوفاة ابي بكر وقد ترك ابو بكر وصيته لعمر بن الخطاب ان مندب الناس مع المثنى وأن يرد أصحاب خالد الى العراق ان فتح الله على امراء الشام فانهم اهله وولاة أمره وأهـل الضراوة بهم والجرأة عليهم [1] • وقد انتدب عمر بن الخطاب من المدينة ومن حولها امدادا لجيش المثنى وكان هذا المدد الاول مكون من ألف رجل وقد أمر عليهم عمر أبا عبيد بن مسعود ثم تلاه المدد الثاني وقـد ندب عمر أهل الردة فأقبلوا عليه فأرسلهم الى الشام والعراق • أما الهجرة الثالثة يوم أعلن عمر بن الخطاب (رض) التعبئة العامة بعد مقتل ابي عبيدة ابن مسعود الثقفي في كارثة الجسر سنة ١٣ هـ والتي قتل فيها من قتل من المسلمين وغرق من غرق وهرب من هرب الى المدينة وفي قلوبهم رعب

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٣٨ .

شديد من قتال الفيلة [1] والتي بقي فيها المثنى في عاد قليل من الجند حوالي ثلاثة آلاف ومن أجل هذا نجد ان عمر قد اعلن التعبئة العامة وأخذ يمد العراق بالامدادات الكثيرة التالية :

١ ــ جرير بن عبدالله البجلي في قومه من بني بجيلة وقد اجاب عمر طلبه في جمع من بني بجيلة من قبائل العرب فلما اخرجه الى العراق حتى يلحق بالمثنى ابى الا الشام فأكرهه ثم عوضه لاكراهه ، واستصلاحا له فجعل له (ربع خمس) ما افاء الله عليهم في غزوتهم هذه له ولمن خرج اليه من القبائل [2] .

٢ ــ عصمة بن عبدالله من بني عبد بن حارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة .

٣ ــ ابن المثنى الجشمي ــ جشم سعد، فيمن قدم معه من بني سعد.

٤ ــ ربعي ابن عامر بن خالد العنود في أناس من بني عمرو .

٥ ــ قوم من بني ضبه جعلهم في فرقتين ، على احد الفرقتين ابن الهوير وعلى الاخرى المنذر بن حسانه [3] .

٦ ــ أنس بن هلال النميري في أناس من النمر [4] .

٧ ــ ابن مردى الفهر التغلبي من أناس من بني تغلب ، وهو عبدالله ابن كليب بن خالد [5] .

٨ ــ نفر من أهل الرده جاؤوا عمر (رض) فأرسلهم الى المثنى [6] .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٤٢ .
(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٤٥ ــ ٦٤٦ .
(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧
(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧
(٥) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧
(٦) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

٩ ـ وجمع من بني كنانه والأزد وعددهم سبعمائة قدموا الى المثنى (١) .

١٠ ـ هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب (٢) .

١١ ـ ترط بن جماح العبدي في عبد القس (٣) .

١٢ ـ عبدالله بن ذي السهمين في أناس من خثعم (٤) .

١٣ ـ ربعي وابنه شبث في اناس من بني حنظلة (٥) .

وقد حقق المثنى بهذه الامدادات نصر كبير في معركة (البويب) التي تأربها لمعركة الجسر .

الهجرة الرابعة :

وقد بدأ العرب والفرس استعدادا لمعركة (القادسية) الفاصلة وقد كتب عمر بن الخطاب (رض) الى عماله في المدن فقال « لا تدعوا أحد له سلاح او فرس او نجدة او رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي والعجل العجل » (٦) .

١) خرج مع سعد الى العراق اربعة آلاف فيمن جاء اليه من اليمن والسراة وعلى أهل السراة حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي . وهم بارق والمع وغامد وسائر اخوتهم في سبعمائة من أهل السراة وأهل اليمن الفان وثلاثمائة منهم النخع بن عمرو وجميعهم يومئذ اربعة آلاف مقاتلتهم وذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر في عسكرهم فأرادهم جميعا على العراق

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٥) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

(٦) الطبري ج ٢ ص ٦٤٧

فأبوا الا الشام وابى الا العراق فسرح نصفهم الى الشام ونصفهم الى العراق وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبدالله الهلالي [1] .

٢) كتب عمر الى عماله : (لا تدعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا الا اجلبتموه فان جاء طائعا والا حشرتموه) .

٣) كتب عمر الى سعد بن ابي وقاص فيمن كتب اليه عندما كان على صدقات هوازن بانتخاب ذوي الرأي والنجد ، فمن كان له سلاح أو فرس فجاءه كتاب سعد اني قد انتخبت لك الف فارس مؤد كلهم له نجده ورأي وصاحب حيطه يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم اليهم انتهت حسابهم ورأيهم فلشانك بهم [2] .

٤) كتب عمر الى عماله على القبائل ان لا تدعوا أحد له سلاح افرس او نجدة أو رأي .

ثم وجهتموه الي والعجل العجل ، فوافاه أوائل هذا الضرب من القبائل التي طرقها على قلة المدينة فاما من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق فوافاه بالمدينة مرجعه من الحج واما من كان من أسفل ذلك فقد انضموا الى المثنى فاما من واتى عمر فانهم أخبروه عمن وراءهم بالحث .

٥) انتخب سعد من بني تميم والرباب اربعة آلاف . ثلاثة آلاف تميمي والف ربي وانتخب من بين اسد ثلاثة آلاف وأمرهم ان ينزلوا على حد ارضهم بين الحزن والبسيطة فأقاموا هناك بين سعد والمثنى [3] .

٦) وامد عمر سعدا بعد خروجه بألفي يماني وألفي نجدي مؤد من

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥ ، ٦

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥ ، ٦

(٣) الطبري ج ٣ ص ٧

عطفان وسائر قيس . وقدم سعد منطقـة زرود [١] .

٧) انتخب سعد من بني تميم والرباب اربعة آلاف تميمي وألف ربي وانتخب من بني اسد ثلاثة آلاف وأمرهم ان ينزلوا على حد ارضهم بين الحزن والبسيطة فأقاموا هناك بين سعد والمثنى [٢] .

٨) كان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة : ستة آلاف من بكر بن وائل والفان من سائر ربيعة أربعة آلاف ممن كان انتخب بعد وصـول خالد واربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر وكان معه من أهل اليمن الفان من بجيلة والفان من قضاعة وطيء ممن انتخبوا الى ما كان قبل ذلك على طيء عدي بن حاتم وعلى قضاعة عمرو بن وبره وعلى بجيلة جرير بن عبدالله [٣] .

٩ ـ جاء الى سعد الاشعث بن قيس ومعه الف وسبعمائة من أهل اليمن عندما كان في شراف [٤] .

١٠) كتب عمر الى ابي عبيده بصرف اهل العراق وهم ستة آلاف ومن اشتهر أن يلحق [٥] بهم وقد بلغ هذا الجيش بضعة وثلاثون الفا . وقد اختلف في عدد هذا الامداد . فمن قـال اربعة آلاف فليخرجهم مع سعد من المدينة . وقال ثمانية آلاف فلاجتماعهم بزرود . ومن قال تسعة آلاف فللحات القيسيين ومن قال اثنى عشر الفا فلدفوف بني اسد مـن فروع الحزن بثلاثة آلاف وجميع من قسم عليه فيء القادسية نحو من ثلاثين الفا [٦] .

١١) وقد تتابعت الامداد لسعد بعد معركة القادسية فقدم هاشم بن

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٧
(٢) الطبري ج ٣ ص ٧
(٣) الطبري ج ٣ ص ٧
(٤) الطبري ج ٣ ص ٧
(٥) الطبري ج ٣ ص ٧
(٦) الطبري ج ٣ ص ٧

عتبة من قبل الشام ومعه قيس بن المكثوم الراوي في سبعمائة بعد فتح اليرموك ودمشق فتعجل في سبعين منهم سعيد بن غران الهمداني •

٦ ـ ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الايام ممدّين لأهل القادسية فتوافوا بالقادسية من الغد وبعد الغد وجاء اولهم يوم اغواث وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح وقدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن افناء الناس (١) •

وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة وستة آلاف من بكر ابن وائل وألفان من سائر ربيعة وألفان من أهل اليمن وهي قبيلة بجيلة وألفان من قضاعة وطي ، وكان على طي ، عدي بن حاتم بجيلة جرير بن عبدالله (٢) •

فاجتمع اليه من قبائل عدة منها (قبيلة ، قيس عيلان وبني تميم والرباب ، وبني اسد ، وبني بكر ، وربيعة وغيرها) وولى امر قيادتهم الى سعد بن ابي وقاص • وقد بلغ عدد هذا الجيش الذي خاض معركة القادسية حوالي (ثلاثين الفا) •

وأخذ هذا الجيش يكتسح امامه الجيوش الفارسية ويهد اسوارها حتى انتزع النصر منها في هذه المعركة ، وقد تتبع هذا الجيش فلول الجيش الفارسي الى المدائن فاستولى عليها • وأخيرا خاض هذا الجيش (معركة جلولاء) التي انتصر فيها المسلمون انتصارا مبينا جعلت الامبراطورية الفارسية بعدها حدثا من أحداث التاريخ وخبرا من أخباره •

اثر الفتح في اختلاط ودمج القبائل العربية في المدن :

ان خروج العرب في الحقيقة من الجزيرة العربية الى العراق بسبب

---

(٢) الطبري ج ٣ ص ٧

الفتح مقدمة لعملية اختلاط القبائل العربية مع بعضها البعض بعد ان ظلت محتفظة بطابعها القبلي ووحدتها قرونا عديدة ، فقد كان هذا الخروج يتخذ شكلا جديدا بعيدا كل البعد عن التجمع القبلي أو العصبية القبلية التي عاشتها القبائل في الجزيرة العربية قرونا طويلة لاول مرة في التاريخ العربي الاسلامي ، فكان الانتداب للحرب او الجهاد لا يتخذ شكلا قبليا كما كان مألوفا عندهم لان الخليفة عندما كان يستنصر القبائل على الجهاد ويرغب الناس فيه ويحثهم عليه ، كانت الجموع تتوافد على المدينة من كل حدب وصوب من انحاء الجزيرة العربية فتجتمع هذه الوفود فتعبي وتنظم ثم يرسلها الخليفة الى الجهة المطلوبة التي يراها بحاجة الى المدد فيمدها بالجنود بعد ان يعين أميرا عليهم وذكر الطبري [1] ان (أمير المؤمنين كان اذا اجتمع اليه جيش من أهل الايمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والعدة فاجتمع اليه جيش فبعث عليهم مسلمة) .

كان لهذه الفتوحات أثرا كبيرا في مزج القبائل هذه وصهرها في بودقة الاسلام انصهارا كاملا وتكوين طابع جديد لها يميزها تميزا واضحا عن طابعها القبلي القديم الذي تميزت به قرونا عدة ، وليس أدل على ذلك من قول الطبري قول (وتتابع أهل العراق من أصحاب الايام الذين شهدوا اليرموك ودمشق . ورجعوا ممهدين لأهل القادسية ، فتوافوا بالقادسية ، من الغد وبعد الغد ، وجاء أولهم يوم أغواث وآخرهم من بعد الغد من يوم الفتح قدمت امداد فيها مراد وهمدان ومن افناء الناس [2]) .

ان هذا يدلنا دلالة واضحة على ان العرب لم يخرجوا للفتح على أساس قبلي أو فردي او على نطاق القبيلة حيث ان (أهل العراق من اصحاب الايام) لم يكونوا قبيلة واحدة وانما كانت من قبائل متعددة خرجوا مؤمنين برسالة سامية جاهدين على نشرها في العالم والدفاع

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٠

(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٤

عنها • ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على الاختلاط ان المحاربين في الجيش الاسلامي كانـوا يستصحبون نساءهم الى جهات القتال نظـرا لحاجتهم الماسة اليهن ولا سيما عندما كانت تطول مدة القتال فقال الطبري (لم يكن من قبائل العرب أحدا أكثر امرأة يوم القادسية من بجيلة والنخع، وكان في النخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة الف وا نهؤلاء وهؤلاء صاهروا احياء العرب وان المهاجرين تزوجوهـن حتى استوعبوهن وان النخع وبجيلة كانت تسمى لذلك اصهار العرب او اختان المهاجرين) [1] •

ان هذا التزاوج أدى بلا شك الى توسيع روابط القبيلة الواحدة بعدد كبير من القبائل واختلاطها بعد ان كانت روابط الزواج تكاد تكون محصورة في القبيلة الواحدة • ان في هذه الحادثة صورة ناطقة لتزواج القبائل واختلاطها وتوسيع افق القبيلة حتى لا تكون وحدة قائمة بذاتها وانما تكون حلقة وصل وترابط بين بقية القبائل في تكوين هذه الامـة التي سكنت الكوفة •

وقد تتابعت مظاهر الاختلاط والتداخل بين القبائل حين استقرت في المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطا واضحا كان أعمق مدى وأبعد أثرا لاشتراكها في حياة مدينة واحدة ، حتى ان سلطة القبائل السياسية وروابطها القائمة على أساس علاقة الدم التي سادت حياة المجتمع القبلي في الجزيرة العربية تأثرت كثيرا بعـد استقرارها في العصر وخضوعهـا لسلطة الامير العليا التي لم تكن تستمد قوتها من رابطة الدم • ومـن العوامل الاخرى التي ادت الى وحدة العرب واضعاف الروابط القبلية هو الدين الاسلامي الذي كان من اعظم أسسه الدعوة الى الاخـوة والمساواة بين معتنقيه بصرف النظر عن اصلهم وجنسهم وألوانهم وهذا كان من اعظم اسسه التي قام عليها الدين • وكان هذا اسلوبا آخر للمزج بين القبائل العربية واختلاطها وتحطيم ما كان في الجاهلية من حواجـز

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٢ •

فرضتها عليهم طبيعة الحياة • وكان الدين الاسلامي سبيلا الى التآخي بين افراد المجتمع الجديد في مواجهة الحياة •

ان القاء نظرة واحدة على عدد القبائل واسمائها التي نزلت الكوفة تعطيك صورة جديدة واضحة لذلك الاختلاط • فانك تجد فيها قبائل من جنوب الجزيرة العربية وقبائل اخرى من الشمال واخرى من نجد ومن الحجاز واخرى من حضر واخرى من ربيعة وغيرها •

لقد ظلت عملية الاختلاط والدمج تسير شيئا فشيئا على الرغم من انها نكصت على عقبيها نتيجة بواعث الفتنة وسوء السياسة التي اتبعها بعض ولاة السوء ، وبذلك محت الفروق المكانية بين القبائل وأحيت العصبية القبلية •

كما انها حاولت ان تمحي الفروق الاخرى ، او تخفف من حدتها ، فربطت بين بعض القبائل ، ولم تدع كل قبيلة ان تعيش وحدها فكونت كتلا جديدة تسمى الاسباع حيث قسم سعد بن ابي وقاص سكان المدينة الى سبعة اقسام منفصلة عن بعضها ومما لا شك فيه ان هذا التقسيم الجديد ادى الى صياغة المجتمع الكوفي صياغة جديدة لم تشهدها العصور السابقة من قبل • ولقد ظل المجتمع على هذا التقسيم حتى مجيء الامام علي بن ابي طالب بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ فغير نظام الاسباع ودمج بعض القبائل التي كانت منفصلة فيما بينها •

ونتيجة لهذا الاستقرار والتجمع نجد بأن الروح القبلية بدأت تتضاءل شيئا فشيئا وان وحدة العرب بدأت تتحقق بينهم وهي تلك الغاية البعيدة التي قصد اليها الرسول الاعظم (ص) وهي ان جعل الاسلام الرابطة بين العرب بعد ان كانت العصبية القبلية والشعور الرابطة الوحيدة بينهم •

لقد ظلت الكوفة على هذا النظام حوالي اربعة عشر عاما حتى ولاية

زياد ابن ابيه الكوفة سنة ٥٠ هـ فخطى زياد خطوات واسعة اخرى .

فدمج القبائل مع بعضها بشكل اقوى بكثير مما قام به سعد ، فعدل زياد هذه الاسباع فجعلها ارباعا ، ومزج القبائل المختلفة داخل كل ربع هادفا في ذلك اضعاف الروح القبلية وصار هذا اقرب الى توحيد القبائل وتجمعها ، وقصد زيادة من هذا التقسيم أيضا الى تثبيت دعائم الحكم ونشر الامن والنظام في ربوع الكوفة والمحافظة على وحدة الجيش وتماسكه والابتعاد به عن العصبية القبلية التي تمزقه وتشتت شمله اذا ما تفشت به وسيطرت عليه [١] .

ان هذه الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مع بعضها في الكوفة كان لهما اعظم الاثر في نفوس القبائل العربية التي سكنت الكوفة حيث اخذت تهيئوها نفسيا لتدرك ان الحياة المدنية شيء آخر غير الحياة البدوية التي تعود عليها العرب في حياتهم الاولى في الجزيرة العربية ، فكانت بداية للون جديد من الحياة المدنية تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضارية الجديدة [٢] .

ان حياة العرب الاجتماعية في الكوفة لم تبق على ما تركها عليه زياد في دمج القبائل وانما أخذت تتحول الى شكل جديد آخر بحكم الحياة الجديدة المستقرة ، ان سكنى القبائل العربية في الكوفة جنبا الى جنب جعلهم يشعرون انهم ابناء مدينة واحدة تفرض عليهم نوعا من العلاقات الاجتماعية جعلتهم يشعرون بأنهم وحدة متجانسة متشابهة الملامح والسمات فبدأ يتسرب الى نفوسهم احساس بالمدينة ولكن هذا الاحساس بالمدينة لم يقض على الاحساس المتأصل بالقبيلة كليا وانما ظل رواسب لاشعورية في اعماق تفكيرها . أي تحولت العصبية القبلية الى عصبية

---

(١) يوسف خليف ـ حياة الشعر في الكوفة ص ١٥ .

(٢) يوسف خليف حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني للهجرة ص ١٦ .

للمدينة التي سكنوها [1] ومن هنا بدأت تظهر ظاهرة جديدة حيث تحولت الحياة القبلية الى حياة قبيلة تؤمن بالمدينة تستطيع ان نسميها (الاقليمية) او (التأقلم) وهي ان تسمي القبيلة باسم المدينة مثل تميم الكوفة وتميم البصرة وازد الكوفة وازد البصرة [2] وليس ادل على ذلك من قول المبرد (لقد حدثت فتنة في البصرة بين الازد وربيعة بعد وفاة يزيد وكادت ان تنشب الحرب بينهم وقد استطاع الاحنف بن قيس ان يهدأ هذه الفتنة فقال : يا معشر الازد وربيعة انتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الصهر واشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار ويدنا على العدو ، والله لازد البصرة احب الينا من تميم الكوفة وازد الكوفة احب الينا من تميم الشام) [3] !

ولم يقف تطور العرب الى هذا الحد من الشعور بالعصبية القبلية والمدينة معا وانما تعداها الى ابعد من ذلك ، حيث قطع العرب خطوات كبيرة نحو التجمع في الكوفة بعد ان ذابت الفروق المكانية بين القبائل . فصار الشعور بالمدينة وحدها فوق كل اعتبار آخر وان كتب التاريخ تذكر لنا أمثلة كثيرة .

وعلى ذلك فنقول — سار أهل الكوفة وجاء أهل البصرة . وقاتل أهل الكوفة أهل البصرة . اننا معشر اهل البصرة . وسلمى بن اليقين على أهل البصرة ونعيم بن مقرن على أهل الكوفة . وتتابع أهل العراق من أصحاب الايام [4] . الى غير ذلك من الأمثلة . دون ذكر اسم القبيلة او العشيرة التي تسكن هذا المصر او ذاك .

ان انشاء المدن في الحقيقة تجربة جديدة رائدة في حياة العرب

---

(١) احمد امين — فجر الاسلام ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) المبرد — الكامل ج ١ ص ١٢٢ . الجاحظ — البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المبرد — الكامل — ج ١ ص ١٢٢ . الجاحظ — البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) الطبري : ج ٣ ص ٣٠

الاجتماعية وكانت هذه التجربة على الرغم من كل شيء موفقة في مقاصدها ناجحة في اهدافها ومراميها • على الرغم من انها تعرضت كما تعرض غيرها من التجارب الى النكوص على عقبيها في بعض الاحيان لسوء السياسة التي اتبعها بعض الخلفاء والولاة • أو تتيجة لبواعث الفتنة والشقاق التي كانت تؤججها نار السياسة والتحزب والطائفية والمذهبية وغيرها •

أوراق البردي العربي
مصدر أصيل للتاريخ الإسلامي

الدكتور أحمد الشامي
دولة قطر / الدوحة

مقدمة عامة عن نبات البردي وأماكن تواجده وزراعته :

لا شك ان نبات البردى الذي صنعت منه أوراق البردى عرف في مصر منذ عهد الفراعنة فالنقوش المرسومة على المعابد المصرية والتي تمثل اشكالا لهذا النبات ، والسفن التي صنعت من سيقانه والتي تركت رسومها على جدران معبد الدير البحري ، والوثائق الفرعونية المكتوبة على أوراق من البردى بالهيروغليفية او الهيراطيقية او الديموطيقية ، وهي الكتابات المستعملة في اللغة المصرية القديمة ، كل هذه أدلة مادية لا تقبل الشك في أن مصر عرفت هذا النبات منذ فجر التاريخ •

كانت سيقان هذا النبات تنبت طبيعيا في مستنقعات الدلتا ومياهها الراكدة خاصة في الحجر وفي شريط ممتد بالاسكندرية ، واستمرت تربية نبات البردى في مصر مدة طويلة اختلفت المصادر العلمية في تحديدها ، فالمراجع الاوروبية تذكر ان نبات البردى ظل ينبت في مصر حتى منتصف القرن العاشر الميلادي [١] بينما المصادر العربية تقرر ان زراعة نبات البردى استمرت في مصر بعد ذلك التاريخ لعدة قرون ولكنها كانت قليلة ، فأبو العباسي النباتي يذكر ان نبات البردى كان ينمو في مصر حتى سنة ١٢١٦ م ، والقلقشندي يذكر ان هذا النبات ظل موجودا في زراعة مصر الى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، ويذكر جروهمان في مقدمة كتابه

عن علم البردي ان هذا النبات ظل ينمو في دمياط وجهات قليلة اخرى حتى سنة ١٨٢٩ ، بينما يقرر Coumbe [٢] ان المنابع المحلية لنبات البردي في مصر بدأت تجف منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو في هذا يتفق مع ما ذكره ابو العباسي النباتي ، ثم يذكر ان قلة متفرقة من هذه المنابع التي ينمو فيها نبات البردي ظلت تشاهد حتى سنة ١٥٩١ م ، ولكن منذ سنة ١٦٧٤ م انعدمت الاشارات عن وجود ذلك النبات في مصر •

والحقيقة التي أجدها اقرب ما تكون قبولا للعقل هي ان نبات البردي كانت زراعته تزداد وتقل حسب مركز مصر قوة وضعفا ، فان كانت مصر في مركز قوي ازدادت زراعة هذا النبات وتمت صناعة اوراقه التي كانت تصدر الى بلدان منطقة الشرق الادنى والى بلدان ومدن حوض البحر الابيض المتوسط باعتبار مصر مركز الاشعاع الحضاري في هذه المنطقة وهي التي تصدر مادة الكتابة الوحيدة التي عرفها العالم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ البشرية واقصد بها اوراق البردي المصنوعة في مصر والتي كانت تشكل السلعة الرئيسية في صادرات مصر حينذاك كما يشكل القطن السلعة الأساسية لصادرات مصر حاليا •

وان كانت مصر في مركز ضعيف نتيجة لما كان يصيبها احيانا من وقوعها تحت سيطرة اجنبية او بسبب ركود حياتها الاقتصادية فان زراعة وصناعة اوراق البردي كانت تتأثر بذلك وتنكمش الى حد كبير ليس في مصر فحسب بل في حوض البحر الابيض المتوسط ومنطقة الشرق الادنى بأكملها •

ومع ان استعمال ورق البردي في الكتابة قد توقف منذ حوالي ستة قرون ، فقد اعادت مصر زراعة هذا النبات في الستينات من هذا القرن ، وشيدت معهدا لتصنيع ورق البردي من جديد ، ويقوم المعهد بتقليد بعض اللوحات الفرعونية والاسلامية المنقوشة على اوراق بردية او آثار اسلامية ويعرضها على الآلاف من زوار هذا المعهد ومعظمهم من السائحين

الأجانب ، كما ان أكاديمية الفنون المصرية تمنح درجاتها العلمية على هذا الورق المصنوع حديثا من نبات البردى •

يقول بعض المؤرخين ان البردى كان يزرع على نهر الفرات عند مدينة بابل في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكان يتم تصنيعه في مدينة سامراء ، ويستبعد البعض الآخر ذلك القول ويدعم رأيه بأن مصر هي التي كانت تصدر ورق البردى الى العراق طوال فترة التاريخ قديما ووسيطا ، ولكننا نرجح ان العراق وبلدان أخرى قامت بمحاولات لزراعة هذا النبات وتصنيع ورقه واستعماله محليا بل وتصديره منافسة لمصر في جانب حيوي من اقتصادها الذي كان يعتمد على هذه السلعة المهمة جدا ، والتي كانت هي المنبع والمصدر الوحيد لها في العالم ، ودليلنا على هذا ما ذكره الغرناطي (٣) حيث يقول : « وفي سمرقند القراطيس التي عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق وهي كقراطيس مصر لاهل المغرب، وفي بلخ انها شبيهة بالعراق وخراسان والهند » •

ويذكر ابن حوقل (٤) الذي زار بالرمو Palermo فيما بين عامي ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ م أيضا انه رأى نبات البردى ينمو في جزيرة صقلية وبعض جهات اخرى في جنوب اوروبا ولكنه يقرر ان وجود نبات البردى كان هناك للزينة ولم يكن لتصنيعه ورقا للكتابة ، بينما يقرر Coumbe (٥) ان ملوك الميروفنجيين كتبوا كل وثائقهم في القرن السابع م على ورق من البردى وظلوا يستعملونه بعد ذلك الى ان بطل استعماله تماما في عهد شارلمان وخلفائه في القرن ١٢ م • ومع هذا فان هذه البلدان التي قامت بهذه المحاولات لم تتمكن من التصدي للورق المصري لما كان يمتاز به من خصائص انفرد بها عن الورق المصنوع في هذه البلدان ، ولعل أهم هذه الخصائص تتجلى فيما اثبته الخبير العالمي لصيانة البرديات انطون فاكلمان Fackelmann من أن نبات البردى المزروع في مصر يمتاز باحتوائه على مادة لزجة متشبعة بها انسجة هذا النبات ، هذه المادة اللزجة التي اكتسبها من البيئة الجغرافية التي امتازت بها مصر ومن مياه النيل

هي التي تساعد على تماسك هذه الالياف والتصاقها عند عملية التصنيع، لأن المصري القديم كان يقوم بطرق الشرائح الطولية لسيقان هـذا النبات طرقا خفيفا ثم يقابلها بشرائح اخرى مستعرضة ويكرر عملية الطرق بخفة، وكان السائـل المختزن في الانسجـة يقـوم مقام مادة اللصق حاليـا حيث يساعد على التصاق هذه الشرائح وتماسكها وقد توصل الخبير العالمي فاكلمان ــ الذي شرفت بالعمل معه ومع ابن أخيـه Junge Fackelmann (فاكلمان الصغير) اثناء وجودي بفينا في الستينات ــ الى هذه النتائج بعد ما قـام بزراعة نبات البردى في بيئات مختلفة في النمسا والمانيا الغربية موفرا للتجارب كل الوسائل العلمية التي تساعد على نمو هذا النبات وفعلا نبتت سيقان البردى ولكن عندما اختبرت المادة المختزنة بين الياف النبات وجدت خالية من خاصية اللزوجة التي يمتاز بها نبات البردى المزروع في مصر •

عرف العرب كذلك نبات البردى في عصر ما قبل الاسلام ، فقد ذكره بعض شعراء الجاهلية في أشعارهم مثل قول الاعشى يصف حبيبته بقوله :

« كبردية الغيل وسط الغريف »

ولكنهم اطلقوا على ورق البردى اسم القرطاس ، وجاء ذكره في القرآن الكريم بهذا الاسم في قوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابـا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » ، وفي قوله تعالى « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه في قراطيس تبدونها •• » (٦) •

قصة العثور على مجموعات البردى وسباق الدول الاوروبية الى اقتنائها :

ترجع قصة العثور على أوراق البردى بمجموعاته المختلفة الى سنة ١٨٢٤ م عندما عثر بعض الفلاحين في منطقة سقارة (دير ابو هرميس) على زلعة صغيرة من الفخار وجدوا بداخلها ورقتين من البردى المكتوب

باللغة العربية ، وبطريقة ما تمكن برناردو دروفيتي Bernardo Drovetti قنصل فرنسا الاسبق في مصر الذي كان مغرما بجمع الآثار المصريـة من الحصول عليهما ، ولم يلبث إن قدمهما الى البارون سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy قنصل فرنسا في ذاك الوقت ، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن هنري سالت [٧] Henry Salt قنصل انجلترا في مصر من الحصول على ورقتين اخريين قـام باهدائهما الى الملك لويس الثامن عشر ، وقد عكف سلفستر دي ساسي على بحث محتويات نصوص هذه الاوراق البردية التي تلقفتها أياديه ، وسرعان ما نشر عنها مقالا في مجلـة العلمـاء Journal des Savants الصادرة في باريس سنـة ١٨٢٥ م [٨] وبهذا المقال اصبح دي ساسي مؤسس علم البردى العربي دون ان يدري .

كان هذا المقال هو أول نبأ علم الناس منه موضوع هذه البرديات المكتوبة باللغة العربية والتي وصلت الى اوروبا ، ومنذ ذلك الوقت تنبه المستشرقون الى آهميـة اوراق البردى العربي وعكف بعضهـم علـى دراسة نصوص هاتين البرديتين الى جانب البرديتين المهداتين الى الملك لويس الثامن عشر ، وعلى بعض ما عثر عليه بعد ذلك من برديات اخرى حتى تطورت ابحاثهم في غضون الثلث الاول من هذا القرن وأصبحت دراساتهم على اوراق البردى علما ثابتا في جامعات اوروبا كمصدر اساسي لدراسة التاريخ الاسلامي وحضارته على مر العصور في مصر .

مضت فترة زمنية طويلة نسبيا لم يعثر الفلاحون في خلالها على شيء جديد من أوراق البردى الى ان كان صيف عام ١٨٧٧ م فقد عثر الفلاحون على أكوام من ورق البردى في الخرائب المهجورة لأطلال مدينة أرسينوه ومكانها الحالي كوم فارس كما ذكرها شفاين فورت Schweinfurth وعرضت هذه الاوراق البردية للبيع فاسرع جورج ترافرز G. Travers قنصل المانيا في مصر بشراء كميات كبيرة منها خلال عامي ١٨٧٧ ـــ ١٨٧٩ أرسلها من فوره الى القسم المصري بمتحف برلين [٩] وفي شتاء العام نفسه

عثر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من أوراق البردى في اطلال كوم الحرانية ظفر Travers بمعظمها كذلك . وحصل متحف اللوفر بباريس على قدر من هذه البرديات ، كما تمكن قنصـــل انجلترا في مصر روجرز E. T. Rogers من شراء بعضهـــا ومعه هـ • بروجش H. Brugsch Stern واستقرت هــذه البرديات بوديليانـــا باكسفورد ، ولم يلبث أن بذل جهده وظفر هو الآخر بما تبقى من هذه المجموعة لحساب المتحف المصري ببرلين لسنة ١٨٨١ م • اصبحت اوراق البردى سلعة رائجة يتكسب منها المعدمون من الفلاحين ويحرص تجار العاديات في القاهرة على اقتناء كل ما يجدونه لدى هؤلاء المعدمين ويعوضونهم عنه البخس القليل مـــن المال ، ولهذا كرس بعض الفلاحين كل وقتهم للبحث عن اوراق البردى في الخرائب والاطلال المهجورة وفي أكوام السباخ ونجحوا في العثـــور على مجموعات اخرى من ورق البردى في اهناسيا واخميم والاشمونين والبهنسا وكوم اشقوه و (أشقاو) ومنف ودير القديس أرميا بالقرب من سقاره ، وفي ادفو حيث عثر على مخطوط على شكل كتاب كامل من ورق البردى يتضمن كتاب الانساب للسمعاني ، وكتاب الصمت ، وكتاب الخاتم وينسب الى جامعة عبدالله بن وهب ويرجع تاريخه الـــى القرن الثالث الهجري (٩ م) وكان هذا الكتاب الفريد من البردى معروضـــا في متحف دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ٢١٢٢ حتى أواخر الستينات من هذا القرن •

أخذ التنافس يشتد بين سفراء الدول الاوروبية خاصة المانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا على شراء ما يعرض من أوراق البردى في اسواق القاهرة، ويرسلون بمندوبيهم الى أسواق مصر يجوبون محلات العاديات المختلفة بحثا عن هذه الثروة العلمية الفريدة في نوعها ، وعلى الرغـــم من هــذا التنافس الذي وصل الى حد الصراع على الظفر بهذا الكنز العظيم بـــين سفراء هذه الدول فقد وقف سفير النمسا بمعزل عن هذا الصراع ، واكتفى لنفسه ولبلده بموقع المتفرج منذ بداية هذا الصراع في الربع الاول من القرن التاسع عشر حتى بلغ ذروته بعد خمسين سنة تقريبا ، وعلى الرغم

من ان النمسا دخلت هذا الميدان متأخرة جدا فقد تمكنت عن طريق ثلاثة اشخاص ان تفوز بأكبر نصيب من الغنيمة ، وان يصبح لها قصب السبق على من سبقها من الدول الاوروبية بسبب ما أحرزته من مجموعات البردى التي جعلتها على راس العالم أجمع بما في ذلك مصر موطن البردى . ومركز تصديره ، ففي المكتبة القيصرية بفينا توجد اليوم أكبر وأغنى مجموعة من أوراق البردى في العالم حيث يبلغ تعدادها مائة ألف بردية مكتوبة بأكثر من ست لغات من ضمنها حوالي عشرة آلاف بردية باللغة العربية .

دراسة موجزة لمجموعات مكتبة البرتينا بجامعة فينا :

هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كان لهم الفضل في أن تفوز النمسا بهذه المجموعات الضخمة من أوراق البردى هم تيودرجراف Theoder Graf نمساوي مقيم في الاسكندرية وكان مديرا لاحد بيوت السجاجيد الايراني الذي لم يذكر اسمه صراحة في الوثائق الموجودة بأرشيف المكتبة القيصرية بفينا هو ذلك المتجر الايراني العظيم الذي كنت أشاهده قائما في شارع فرنسا بالاسكندرية حتى أول الخمسينات من هذا القرن ، والذي كان يعتبر مزارا للملوك والعظماء والوزراء . والرجل الثاني هو المستشرق النمساوي جوزيف كرابتشك Josef Karabacek مدير مكتبة القصر الامبراطوري في فينا الذي لعب دورا بارزا في هذه القصة وتمكن بذكائه من أن يضم اليه الارشيدوق راينر Erzherzog Rainer الذي سيقوم بدفع جميع اثمان مجموعات البردى المجلوبة من مصر لحساب فينا ، وبانضمام الارشيدوق راينر الى كرابتشك وصديقه جراف تتم دائرة الفوز للنمسا حيث حصلت على الكنز العلمي العظيم ، وتكتمل اطراف المأساة بالنسبة لمصر لانها فقدت جزءا عظيما من تراثها ، ومصدرا أصيلا من مصادر تاريخها .

كانت هناك صلة كبيرة بين ثيودرجراف وبين جوزيف كرابتشك

الذي كان هاويا لجمع المنسوجات الاثرية والسجاجيد الشرقية ذات القيمة الفنية ، ووصلت اخبار البردى العربي الى مسامع كرابتشك بعد ان وصلت عدة مجموعات منه الى برلين وباريس واكسفورد وعندئذ تحركت الغيرة في قلبه فكتب من فينا الى صديقه جراف الذي يمده بالمنسوجات الاثرية والسجاجيد الشرقية من الاسكندرية يغريه ويدفعه للبحث عن ورق البردى الى جانب ما يرسل به من قطع النسيج القديم ، وتمكن جراف من أن يرسل مع بعض خرق النسيج القديمة مجموعة صغيرة من أوراق البردى ، وبدأ كرابتشك يهتم بها وكتب الى صديقه جراف يلفت نظره الى أهمية هذه الاجزاء الصغيرة من ورق البردى ويلح عليه ببذل أقصى جهد للحصول على اكبر كميات منها (١٠) .

نجح ثيودرجراف في وقت قصير بما له من حاسة التاجر الخبير من الحصول على بعض مجموعات من البردى وساعدته الظروف على ذلك حيث كانت أسوق القاهرة مغمورة ببردى من الفيوم (كوم فارس) ومن اهناس (هرقليوبوليس) فاشترى حوالي عشرة آلاف بردية سافر بها بنفسه من الاسكندرية سنة ١٨٨٢ (١١) الى فينا حيث وضعها بين يدي جوزيف كرابتشك الذي تلقاها وهو لا يكاد يصدق انها بين يديه ،وعندما بدأ بفحصها وجدها في حالة سيئة فقد عبثت الديدان ببعضها الى جانب ما تآكل من اطرافها ، كما ان عدة آلاف منها غطتها طبقات متحجرة من الطين وبذل كرابتشك عناية فائقة في ازالة ما علق بهذه البرديات من طين متحجر وذلك باتباع الطريقة الالمانية التي اتبعت في نظرية وفتح بردى Travers سنة ١٨٧٧ م ، وبعد جهود مضنية ، وعمل مستمر مع حرص زائد حتى لا تتمزق البرديات أو تتعرض للتلف نجح كرابتشك في فرد لفائف البردى وتنظيف الكراسات المتحجرة .

ما لبث كرابتشك ان عكف على دراسة نصوص هذه المجموعة واستعان في ذلك ببعض علماء اللغات ليقف على ما تتضمنه هذه النصوص وقد ظهر بعد الفحص ان المجموعة تضم نصوصا مكتوبة بلغات ستة هي

العبرية والسامية والبهلوية واليونانية والقبطية والعربية التي بلغت وحدها حوالي ثلاث آلاف نص • وتضافرت جهود هؤلاء العلماء من الناحية العلمية مع ما وضع تحت تصرفهم من خبرات فنية وأمكن لهم تجهيز بضع مئات من البرديات التي تم فحصها وتنسيقها وعمل لها كتالوج مصنف ، وأقيم لها معرض في فينا في السابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٨٣ م، وعرفت هذه المجموعة في الاوساط العلمية باسم مجموعة ثيودرجراف أو مجموعة الفيوم الاولى (١٢) •

بهذه الصورة ، وعلى هذا النحو تكونت نواة أكبر مجموعة للبردي في فينا ، ما لبثت ان نمت اعدادها على مر الايام بما أضيف اليها من مشتريات جديدة ، وبما اهدى اليها من مجموعات او بما حصلت عليه من الحفائر التي قامت بها البعثات النمساوية في مصر ، وأهم ما أضيف الى مجموعة فينا تلك المجموعة الكبيرة التي كان يمتلكها عالم الآثار المشهور Schweinfurth والتي بيعت في القاهرة سنة ١٨٨٦ واشتراها جراف كذلك لحساب فينا . وقد اطلقت الاوساط العلمية على هذه المجموعة اسم مجموعة الفيوم الثانية (١٣) وقد بلغت مجموعة فينا في الوقت الحاضر حوالي مائة الف بردية من ضمنها عشرة آلاف بردية باللغة العربية تمكنت اثناء اقامتي بفينا من الاطلاع على معظمها ودراسة بعضها وتصوير البعض الآخر لعمل دراسات عليه •

ان ما تتضمنه نصوص هذه البرديات العربية على جانب كبير من الأهمية لفروع العلم المختلفة سواء ما يتصل بعلم الشريعة والحديث او ما يتصل بعلم التاريخ والادب والفلك والطب وعلوم الاغذية فهي مجموعة شاملة لفروع العلوم المختلفة ، وتغطي فترة زمنية طويلة من تاريخ مصر الاسلامية تصل الى ٧٥٠ عاما ، فأقدم وثيقة في هذه المجموعة الموجودة في مكتبة البرتنبا حاليا يرجع تاريخها الى عهد عمر بن الخطاب فهي مدونة في سنة ٢٢ هـ ، واحدث وثيقة في هذه المجموعة يرجع تاريخها الى سنة ٧٨٠ هـ الى عهد السلطان المنصور علي بن الاشرف شعبان آخر

سلاطين المماليك في مصر ويكفي للدلالة على أهمية هذه الوثائق ان اقدم نموذجا تحليليا عن احدى هذه المجموعات التي بلغت في مجموعها ٩٥٠ بردية بيان عهودها التاريخية كالآتي :

١٧ بردية يرجع تاريخها الى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وتبدأ ارقامها في سجل البرتينا من ٥٥٠ الى ٥٦٧ A P

٤١ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الاموية وتبدأ من الرقم ٥٦٨ الى ٦٠٨ .

١٨٥ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة العباسية الاولى (١٣٢ ــ ٢٥٥ هـ) وتبدأ ارقامها من ٦٠٩ الى ٧٩٣ .

٩٠ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الطولونية (٢٥٤ ــ ٢٩٢هـ) وتبدأ بالرقم ٧٩٤ الى ٨٨٣ .

٣٣ بردية يرجع تاريخها الى العصر العباسي الثاني (٢٩٥ ــ ٣٣٣هـ) وتبدأ بالرقم ٨٨٤ الى ٩١٦ .

١١٣ بردية يرجع تاريخها الى عصر الاخشيديين (٣٣٣ ــ ٣٥٧ هـ) وتبدأ بالرقم ٩٤٩ الى ١٠٦١ .

٢٢٤ بردية يرجع تاريخها الى عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨ ــ ٥٦٧ هـ) وتبدأ بالرقم ١٠٦٤ الى ١٢٨٧ .

٢٥ بردية يرجع تاريخها الى عصر الدولة الايوبية (٥٦٧ ــ ٦٢٥ هـ) وتبدأ بالرقم ١٢٩٠ الى ١٣١٥ .

٨٤ بردية يرجع تاريخها الى عصر دولة المماليك (٦٥٧ ــ ٧٨٣ هـ) وتبدأ بالرقم ١٣١٦ الى ١٤٠٠ .

فاذا علمنا ان ما قرأه جوزيف كرابتشك ورصده في دليل مكتبة البرتينا لم يزد عن ١٤٠٠ وثيقة من هذا العدد الكبير الذي بلغ العشرة آلاف وثيقة التي ما زال معظمها محفوظا ينتظر من يخرجه الى نور الحياة

ويضع نصوصه تحت أيدي العلماء والمؤرخين لامكن لنا ان نقول بأن تتراثا اسلاميا عربيا يمكن ان يضيء الطريق ويهدي السبيل للذين تركوه في ظلمة المخازن اذا هم عنوا به فقد يكون بين نصوصه ما نصحح به فكرة علمية حائرة او نصوب به حكما تاريخيا جائرا او نعدل به جرحا خاطئا في الفقه والحديث او نقوم به اعوجاجا من عاداتنا او نصحح به مفهوما من مناهيمنا او نثبت به تقليدا حميدا من تقاليدنا العربية الاصيلة ، ثم ان هذه الوثائق البردية قبل كل شيء وبعد كل شيء سجل حافل لماضينـا المجيد ، ومشعل مضيء لفترة هامة من تاريخ الامة العربية وهي تمثل بدون شك جزءا هاما من تاريخ البشرية وحضارتها كما انها وثائق حافلة وناطقة بحياتنا الادبية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعيـة والقومية . فبعض نصوص هذه الوثائق يوضح لنا ان فكرة فتح العرب لمصر كانت تحمل طابعا آخر غير الذي قرأناه وتعلمه الكثير منا ، لأن الفاتحين العرب لـم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة من المغامرين من البدو راكبي الجمال كما يصفهم بعض مؤرخي الغرب ، ولكنهم كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحتهم من سيوف ونبال وهي الاسلحة التي عرفها أرقى شعوب الأرض حينذاك ، وكانوا يقاتلون ببسالة في سبيل عقيدة تشربتها نفوسهم باخلاص . وانهم تركوا حرية العقيدة وطبقوا في حكمهم علـى المسلم والذمي قانون السماء .

وبعض النصوص التي تضمنتها هذه الوثائق الهامة عبارة عن رسائل افراد من عامة الشعب الى حكام أو ولاة أو تجار او ذوي قربى وفيها تتجلى شكاوى الناس وحاجاتهم ، ومدى آلامهم ، ومعاناتهم ، وتشرح عواطفهم ، وتعطي صورة واضحة عن عاداتهم وطريقة حياتهم ومعاملتهم وأذواقهم حتى التذاكر الطبية ووصفات العلاج من الأمراض تبينها هذه الوثائق التاريخية وتعطي الباحث فكرة كاملة عن مدى ما وصل اليـــه العرب المسلمون من تقدم في طرق العلاج وتشخيص سليم للامراض ولم تضن علينا هذه الوثائق بطريقة عقود الزواج التي تعطينا شرحا لقيمـة الصداق ، وتقدم نموذجا لعملية التوثيق ، وتبين عدد الشهود الذيـن

يشهدون بصحة هذا الزواج ، وهؤلاء كانت تتراوح اعدادهم ما بين اربعة شهود واربعين شاهدا على حسب المنزلة الاجتماعية للعروسين ، ويكفيني ان اذكر نماذج من هذه الوثائق للتدليل على ما ذكرت .

فالبردية رقم ٦٥٩ A P من هذه المجموعة يرجع تاريخها الى عهد هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) وهي اقرار مصالحة بين زوجين الرجل يدعى ابو سليمن وامرأته سكينة وقد أقر الزوج بأن ما في البيت من أثاث وخلافه يخص زوجته سكينه وتعهد بدفع ما عليه من الصداق وقدره ثلاثون دينارا وعلى الوثيقة اقرار اربعة من الشهود ، والوثيقة رقم ٩١٣ (AP. 16859) يرجع تاريخها الى عهد الخليفة العباسي القاهر بالله (هو ابو منصور محمد بن المعتضد آخر خلفاء الدولة العباسية الثانية حكم من ٣٢٠ الى ٣٢٢ هـ) وهي عقد زواج المدعو فلان ابن اسحق بن غيامة وزوجته عائشة بنت سعيد وكانت امرأة قائمة على امرها بنفسها والعقد موقع عليه من الشهود كذلك ، والوثيقة رقم ٩٨٦ يرجع تاريخها الى عهد الاخشيديين مدون بها ٣٩ سطرا بالخط النسخي الواضح وهو خطاب مرسل من احد الجنود الذين خرجوا في حملة عسكرية الى منطقة الفيوم وهو يقص على أهله ما حدث لهم من موت الخيل والحمير نتيجة شدة العطش الذي أصاب الحملة كلها وفي آخر الوثيقة دعاء الى السلطان بدوام ملكه وهلاك اعدائه ، والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبدالملك وفيها بيان لميزانية بيت احد الاغنياء والمبالغ المخصصة لنفقات اصطبل خيوله والمتمعن في نص هذه الوثيقة يخرج بصورة واضحة عن مستوى الحياة المعيشية ومقدار دخل الفرد في الحقبة الزمنية التي كتبت فيها هذه الوثيقة ، والبردية رقم ٢٠٧ هـ من عهد المأمون بن هرون الرشيد تشرح لنا مبادلة أصناف من السلع بين تاجرين من اقباط مصر وهي تعطي المؤرخ فكرة واضحة عن الجوانب الاقتصادية وأنواع السلع المتاجر فيها واثمانها ، وكيفية التبادل التجاري بين التجار ، وأهم انواع المواصلات المستعملة في النقل من بلد الى آخر والمدة الزمنية التي يستغرقها نقل هذه

البضائع ، والوسائل التي كانت متبعة في حفظ هذه المواد التجارية سواء كانت ملبوسات أو أطعمة او غيرها •

والبرديتان رقم ١٧٨٨ ، ١٠١٣٦ مدوّن عليهما بعض من آيات القرآن ولا تخلو مجموعة من مجموعات البردى من مثل هذه الوثائق الدينية الهامة •

والبردية رقم ١٩٦ تعتبر فريدة في نوعها لأنها اول مصدر تاريخي عن أول رتبة وظيفية في العهد الفاطمي وهي مكتوبة بالخط القبطي ، وكذلك البرديات رقم ٤٠٦ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، التي تتضمن منشورات ثورية يرجع تاريخها الى سنة ٢٥٣ هـ ٨٦٧ م [١٤] وهو العام الذي سبق وصول احمد بن طولون الى مصر وكانت في تلك الفترة في حالة من الاضطراب الداخلي • حتى الاحصاء عرفته مصر الاسلامية قبل ان تعرفه اوروبا بزمن طويل فالبردية رقم ٥٩٩ من عهد هشام بن عبد الملك تحمل أمرا ديوانيا بعمل احصاء لأهالي بعض القرى وتقرير ثبت بالخراج الواجب اداؤه ، والوثيقة ١٠٦٦ ((Ach: 7710)) عبارة عن ورقتين من أحد كتب الحديث حيث تروى الأحاديث النبوية مسندة الى قائليها ، وتاريخ هذه الوثيقة يرجع الى عهد المعز لدين الله الفاطمي ، وهناك بعض البرديات التي قرأها ادولف جروهمان واستعان بها في دراساته لاحظت انه صحف بعض الاسماء ودونها خطأ مثل البردية رقم ٨١٨٤/٢١١ الذي قرأها في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١ واثبت انها مرسلة من المدعو عبد الحميد ابن عمر بن بشباشي وصحة الاسم كما صححته في وثائق البرتينا هو مجد الدين يحيى بن بشباشي وكذلك البردية رقم ٨٢٢٥/٢٥٢ حيث صححنا اسم مرسل الوثيقة فقد اثبته جروهمان (من صهر بن العرشي) وصحته كما قرأناه (من صهيب بن العرشي) •

هذه نماذج فقط من أنواع مختلفة من مجموعة بردى الارشيدوق راينر بفينا وقد عايشتها واطلعت على معظمها وقمت بتصحيح عدد غير

قليل من القراءات السابقة لهذه النصوص واثبتهـا بنفسي في سجـلات المكتبة ، وخلاصة القول ان مثل هذه المجموعة الفريدة من الوثائق في مسيس الحاجة الى جهد جماعي من متخصصين في تحقيق التراث لدراسة ما تحتويه من نصوص •

دراســة مجموعة Schott - Reinhardt بجامعة هايدلبرج :

تعتبر مجموعة جامعة هايدلبرج بالمانيا الغربية ثاني مجموعات البردى بعد مجموعـة فينا ٪ من حيث القيمة العلمية والكم العددي ، اذ يبلـغ تعدادها حوالي ٢٠٠٠ بردية بها نسبة كبيرة مكتوبة باللغة العربية والقليل منها مكتوب بالعبرية والقبطية والبهلوية واليونانية ، وتنسب المجموعـة كلها الى عالمين المانيين من جامعة هايدلبرج اولهما الدكتور Reinhardt الذي تمكن من شراء المجموعة الاولى مـن بردى الفيوم والاشمونـين واخميم لحساب الجامعة فيما بين سنـة ١٨٩٧ ، ١٨٩٩ م ، ثم اشترى Reinhardt لنفسه مجموعة اخرى من ورق البردى بلغ تعدادها حوالي ١٠٠٠ بردية كان يفكر في دراستها ونشرها الا ان المنية عاجلته في سنة ١٩٠٣ م وبوصية منه آلت هذه المجموعة الى صديقه د • شوت Schott مدير الجامعة وقتذاك ويبدو ان شرط Reinhardt كان لديه من الاعباء العلمية الاخرى ما يحول بينه وبين دراسة هذه المجموعة والتفرغ لمحتويات نصوصها ، فرأى ان خير وسيلة للحفاظ على هذه الثروة العلمية التـي آلت اليه من صديقه Schott هو ان يهديها الى الجامعة التي ضمتهما معا في محرابها ، وفعلا قام شوت Schott بتقديم المجموعة كهدية منه الى جامعة هايدلبرج في العـام التالي سنة ١٩٠٤ م ، فرأت الجامعة ان تكرم عالميها فأطلقت اسميهما معا على هذه المجموعة تحية وتقديرا لمن اشتراها وذكرى وتكريما لمن اهداها وأصبحت المجموعة تعرف في الاوساط العلمية باسم Schott-Reinhardt وقد اضاف الدكتور

ادولف جروهمان الى هذه المجموعة ٥٩ بردية عربية من الفسطاط اودعها جامعة هايدلبرج في صيف سنة ١٩٣٤م، وقد تمت اعداد مجموعة هايدلبرج نتيجة اتفاقية البردى الالمانية وبما اضيف اليها من نتائج حفريات جامعة هايدلبرج والجمعية العلمية بفرايبورج Freiburg [١٥] .

ومع ان هذه المجموعة تعتبر من حيث القيمة العلمية والكم العددي في المرتبة الثانية بعد مجموعة فينا الا انها كانت اكثر حظا وأوسع انتشارا في مداها العلمي لكثرة ما قام به المستشرقون الالمان من دراسات عليها . فكارل هنري بيكر C. H. Becker الذي كان مديرا لجامعة هايدلبرج ثم وزيرا للمعارف بالمانيا قام بدراسات موسعة على النصوص المتعلقة بتاريخ الخلافة ، الى جانب سلسلة من المحاضرات الجامعية في الدراسات الاسلامية استقى معلوماتها من واقع نصوص أوراق البردى بهذه المجموعة [١٦] ، كذلك قام د . بيلابل Dr. Bilabel ود . جراف Dr. Graf بالاشتراك مع جروهمان Dr. A. Grohmann بدراسة مجموعة من نصوص هذه المجموعة ونشروا كتابا لهم يتعلق بالسحر والشعوذة عند العرب في سنة ١٩٣٤ ، كما امضى د . سايدل Dr. Seidel الرئيس الأسبق لقسم البردى بمكتبة الجامعة وقتا طويلا في اعداد دراسة موسعة على بعض نصوص هذه المجموعة ولكن القدر لم يمهله لنشر هذه الدراسة حيث توفي في حادث سقوط طائرة اثناء عودته من تركيا في نهاية سنة ١٩٥٩ [١٧]، كذلك قام البروفسور البرت ديتريش Prof. Dr. A. Dietrich مدير معهد الدراسات العربية والاسلامية بجامعة جوتنجن بدراسة نشرها في كتاب له عن (الطب عند العرب) من واقع برديات هذه المجموعة . كما اخرج دراسة موسعة عن الجوانب الادبية والمعاملات بين طبقة العامة في كتاب له بعنوان (خطابات عربية Arabische Brisfe) ولكن معظم نصوص هذه الدراسة كانت من اوراق بردى مجموعة هامبورج Hamburg كذلك قامت الدكتورة كابلوني Frau Dr. Kabloni بدراسة على نصوص البرديات المدونة بالهيراطيقية في المدة ما بين سنة

١٩٦٠ / ١٩٦٥ حيث حصلت على درجة الدكتوراه بهذه الدراسة ، وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٢ الى نهاية سنة ١٩٦٤ قمت بدراسة مجموعة من نصوص هذه المجموعة تحت اشراف البروفسور البرت ديتريش وهي معدة حاليا للنشر كما شاركت في اعمال ترميم وصيانة البرديات بهذه الجامعة تحت اشراف البروفسور Richard Seider استاذ علم البرديات اليونانية ومدير قسم البردى بالجامعة حيث واصلت ما بدأه دكتور جروهمان من ترقيم وتصنيف لهذه المجموعة وقف به عند سنة ١٩٣٥ م •

وعلى كثرة ما نشره المستشرقون الالمان من دراسات علمية من وثائق هذه المجموعة فما زالت تضم بين جنباتها الكثير من الوثائق ذات القيمة العلمية ، من هذه الوثائق كتاب من ورق البردى عبارة عن كراستين في ٢٧ ورقة مكتوبة على الوجهين ، احداهما تتضمن جزءا من السيرة النبوية العطرة وبعض تفاصيل عن غزوات الرسول ، والثانية تختص بسيرةالنبي داوود عليه السلام ، ويرجع تاريخ هاتين الكراستين الى سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ / ٧٢٩ م) ولشدة ما أصاب الكراستين من تلف كبير قضى على وضوح النص عزف الباحثون عن دراستهما ، ولكن اثناء زيارتي الثانية لقسم البرديات بجامعة هايدلبرج في صيف سنة ١٩٦٨ وجدت ان الجامعة العبرية بفلسطين المحتلة أرسلت باحدى مدرساتها المشتغلات بعلم البردى لتقوم على النص الخاص بقصة النبي داوود ولست ادري هل اتمت هذه الدكتورة ما قامت به من دراسات على هذا النص ام لا •

والبردية رقم ٥٢ في هذه المجموعة ذات قيمة دينية وفلسفية كبيرة والنص مدون على الوجهين بخط صغير متشابك ويبلغ طول هذه الوثيقة حوالي ٨٥ سم وعرضها ٣٠ سم ، والبردية رقم ١٧٣٦ خطاب مرسل من يحيى بن عبد السلام الى القاضي الامين المكين تاج الدين ويفهم من النص ان يحيى هذا يرعى اسرة القاضي وأولاده أثناء غيابه وانه على صلة قربى به ، وان القاضي رغم تصدره للقضاء فكان يتجر بماله في بعض السلع الواردة من عيذاب •

والبردية رقم ١٧٣٧ نموذج ادبي رفيع مرسل من مريد الى شيخ الرباط نجد الدين ابو المجد الاشتى ، وهناك المئات من الوثائق المختلفة التي تتصل بفن العمارة وهندسة البناء او عقود بيع وشراء ، بل هنـاك الآلاف من البرديات المبعثرة في مجموعات اوروبا المختلفة هي عبارة عن المصدر الاساسي للمؤرخين المشتغلين بالتاريخ العربي والاسلامي عامـة ونظم الادارة والتاريخ الاقتصادي بصفة خاصة ومن أمثلة ذلك البرديتان رقم ١١٢٣٥ ، ١١٢٣٦ الموجودتان بمعهد اللغات الشرقية بشيكاغو وقد نشرتهما المستشرقة الامريكية نابيا آبوت Nabia Abbott [١٨] ويرجـع تاريخهما الى الدولة الاموية وقد عثر عليهما بالفيوم .

دراسة مجموعة القاهرة :

اذا ما انتقلنا الى مصر ام البردى في العالم ، ومصدرة العلـوم والحضارة والثقافة على مر عصورها التاريخية نجد انها لم تظفر من كنوزها في هذا الميدان الا بالاقل القليل مما ظفرت به دول العالم الغربي ، فحتى يومنا الحاضر لم تزد مجموعة مصر الموجودة في دار الكتب والوثائـق القومية بالقاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليا) على ألفي (٢٠٠٠) بردية عربية ، يرجع الفضل في شراء نصفها وتكوين نواة لمجموعة مصر الى B. Moritz (برنارد موريتز) الذي شغـل منصب مدير عام دار الكتب في الفترة من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩١١ م ، ثم نمت المجموعة وزادت اعدادها نتيجة لما اضيف اليهـا مـن بردى الفيوم والاشمونين والبهنسا وكوم اشقاو وأدفو والدلتا وفي الستينات من هذا القرن ترك أحد الأجانب المغرمين بجمع اوراق البردي ويدعى جورج ميخاليدس وكان مقيما في الاسكندرية ترك مجموعة قيمة ونادرة من ورق البردى العربي، وطبقا للقانون الخاص بعدم السماح بخروج آثار مصر للدول الاجنبيـة فقد تحفظت ادارة الآثار المصرية على هذه المجموعة لدى القضاء للفصل في النزاع القائم بينها وبين ورثة جورج مخاليدس ، ولست ادري اذا ما

كانت هذه المجموعة ضمت الى مجموعة دار الكتب ام ان ورثة هذا الأجنبي تمكنوا بوسيلة ما من استعادتها والخروج بها ، واذا كان ما سمعته بنفسي من البروفسور R. Seider عن وصول مجموعة كبيرة من ورق البردى من مصر الى جامعة كولون Koln في عقاب نكسة ١٩٦٧ صحيحا ، فانني ارجح ان اصحاب هذه المجموعة تمكنوا بوسائلهم الخاصة من تسريبها الى المانيا الغربية منتهزين الحالة السيئة التي كانت عليها مصر نتيجة للهزيمة المرة التي اصابتها خاصة وان هناك حالة مماثلة قام بها ثيودرجراف سنة ١٨٨٢ م حيث خرج بمجموعة الفيوم الاولى وكمية من أندر أنواع السجاجيد الشرقية منتهزا ضرب الاسكندرية واحتلال مصر بواسطة القوات الانجليزية ، وما زالت هذه السجاجيد معروضة في متحف الفن الشرقي بالحي التاسع في فينا كما شاهدتها بنفسي [١٩] .

وتأتي مجموعة القاهرة في المرتبة العلمية والكم العددي مساوية لمجموعة هايدلبرج لانها تضم نصوصا على جانب كبير من الأهمية العلمية والقيمة الأثرية ، فقد قام الدكتور مورتز الذي أشرف على تكوين المجموعة بنشر بعض نصوص هذه البرديات واستعان بها في مؤلفه عن تاريخ الخط العربي [٢٠] وفي مقاله عن الكتابة العربية الذي نشره بدائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩١٠ [٢١] كما قام L. Caetani بنشر بعض النصوص من هذه المجموعة في المجلد الخامس من المجموعة المعروفة باسم حوليات الاسلام Annali dell' Islam [٢٢] ، كذلك قام كارل هنري بيكر C. H. Becker باعادة دراسة مجموعة البردى الخاصة بعهد قرة بن شريك والتي كان مورتيز قد نشر صورها فقط من قبل ، وقدم بيكر دراسة تحليلية لهذه النصوص مع ترجمة كاملة بالالمانية وخرج من دراسته بتقرير مفصل عن حالة مصر الاقتصادية والمالية في تلك الفترة التاريخية والحقيقة المرة التي لا اكتمها هي الدهشة التي اصابتني حينما شاهدت اصول هذه البرديات سنة ١٩٦٢

في مجموعة هايدلبرج ، ولم أتوصل الى اجابة تشفي غليلي ، ترى هل تمكن Becker من الحصول على هذه الوثائق الهامة اثناء زيارته لمصر في فترة رئاسة Moritz لدار الكتب ، ام ان مورتيز نفسه استولى عليها وخرج بها من مصر عند مغادرتها قبيل الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ م ؟

والحقيقة التي ينبغي على ان اذكرها هي ان الدكتور ادولف جروهمان A. Grohmann تحمل العبء الأكبر في القيام بدراسة وافية لأهم نصوص هذه المجموعة ، وقد استغرقت دراسته لهذه النصوص مدة تزيد عن الأربعين عاما حيث بدأها سنة ١٩٢٥ م وفي سنة ١٩٣٤ م تمكن من نشر المجلد الأول محتويا على ٧٢ نصا في دراسة وافية عن البروتوكول والوثائق القانونية ، وفي سنة ١٩٣٦ م اتبعه بالمجلد الثاني متضمنا ٧٣ نصا مستكملا بها دراسة الوثائق القانونية ، وفي سنة ١٩٣٩ م نشر المجلد الثالث متضمنا ٦٩ نصا في دراسة مستفيضة عن تاريخ النظم الادارية في مصر وقد أكمل هذه الدراسة في المجلد الرابع بعد انتهاء فترة الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٥٣ مستعينا بنصوص ٧٤ بردية ، ثم نشر المجلد الخامس والسادس يضمان نصوص ١٤١ بردية تنصب كلها على دراسة تاريخ الاقتصاد المصري من واقع المكاتبات الحكومية ، وبتكليف من دار الكتب والوثائق القومية قام المرحوم الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ومعه آخر بترجمة هذه المجلدات الستة الى اللغة العربية .

وفي الفترة التي اسند الي فيها رئاسة قسم البردي والوثائق بدار الكتب (من مارس ١٩٦٥ الى نوفمبر سنة ١٩٦٦) تمت الاتصالات بين الدكتور جروهمان وبيني على ان أقوم بالاشراف على تصحيح طبعة المجلد السابع ومقابلته على الاصول الموجودة بدار الكتب ، ويضم هذا المجلد حوالي ٧٠ نصا تختص بنظام الخراج في مصر [٢٣] وهناك اصول ثلاث

مجلدات هي الثامن والتاسع والعاشر وتقوم دراسة نصوصها على الادب واسلوب الكتابة وقد أعدها الدكتور جروهمان وجهزها للنشر ، ولكن ظروفه الصحية التي عايشتها معه في النمسا منعته من استكمال عمله الجليل هذا ، وقد قام الدكتور عبد العزيز الدالي مدير مكتبة جامعة عين شمس بعمل دراسات ادبية ولغوية على هذه النصوص التي أعدها دكتور جروهمان من قبل وحصل بهذه الدراسة على درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة القاهرة في صيف سنة ١٩٦٦ م ، ولكن لا تزال هذه المجلدات الثلاثة الأخيرة تنتظر من يقوم بمراجعة اصولها التي أعدها جروهمان من قبل وتقديمها الى الطبع •

هذه عجالة سريعة لدراسة مركزه عن أهم ثلاث مجموعات من أوراق البردى في العالم قدمتها اليوم مع بيان الطريقة التي تم بها تكوين هذه المجموعات ، والسباق الذي دخلته دول اوروبا لكي تفوز كل منها بذخائر تراثنا العلمي من وثائق البردى لأن علماء الغرب قدروا ما لهذه الوثائق الاصيلة من أهمية علمية تمكنهم من معرفة تاريخنا وطريقة حياتنا وعاداتنا ومقومات مفاهيمنا ، بل وقفوا منها على جانب كبير من تشريعنا ونظمنا السياسية والاقتصادية بما يحتويها من جوانب مالية وادارية في فترات التاريخ المختلفة ، كما اعطتهم هذه الوثائق صورة واضحة عن معالم الثقافة العربية وعلوم العرب من ادب ونثري وشعري وعلوم الطب وقوانين الأغذية وطريقة تركيب كثير من أنواع الادوية التي ما زالت مستعملة في يومنا هذا ويرجع اصلها الى نباتات واعشاب تنبت اساسا في البيئة العربية ، ولم يكن هذا هو كل ما احتوته نصوص وثائق البردى بين جنباتها بل وجد من بينها أوراق مدون عليها آيات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وبواسطة هذه الوثائق تمكنت مجموعة من المستشرقين من عمل دراسات ومقارنات على اسلوب الكتابة العربية

قديما وحديثا وبحثوا في الناسخ والمنسوخ من هذه الآيات معتمدين في كل ابحاثهم على هذه المصادر العربية الاسلامية الاصيلة التي لا يتطرق اليها الشك او يعتورها التزوير [٧٤] .

الهوامش والملاحظات

(١) هذا الراي ذكره سترابون ونقله عنه معظم المستشرقين الذين تناولوا وثائق البردى بالدراسة منهم جوزيف كرابتشك في مقدمته المحفوظة برنسيف مكتبة البرتينا ثم نحا كارل هنري بيكر نحوه وتابعه في ذلك البرت ديتريسن وادولف جروهمان .

Adolf Grohmann: Corpus Papyrorum Raineri Archiducis Austriae, III. Series Arabica. B. I, Teil, I-Allgemsine Einfuhrung in die Arabischen Papyri, Wien 1924.

Josef Karabacek: Ded Papyrusfund von el-Fajum Wien 1883.

Carl Wessely: Studien zur Palaegraphie und Papyruskunde

(٢) Encyclopedia Americana; Vol. 21, p. 270 ff.

(٣) الفرناطي ــ ابو احمد الاندلسي : تحفة الالباب ص ١٩٩ ومـا بعدها . المطبعة الوطنية باريس سنة ١٩٢٥ .

(٤) بحث للمستشرق البريطاني بليني بعنوان : «Later Cultivation» Encyclopedia Britanica; Vol. 17, p. 297

(٥) Encyclopedia Americana, Vol. 21, p. 270 ff.

(٦) القرآن الكريم ــ سورة الانعام (٦) الآية ٧ ، ٩١ .

(٧) Giovanni d'Athanasi; A Brief account of the researches and discoveries in upper Egypt made under the Direction of Henry Salt, London 1836.

(٨) Silvester de Sacy; Journal des Savants, Paris 1825, pp. 462-473. 462-473.

(٩) Osterreichische Monatsschrift fur den Orient, B. XI, 1885, S. 161
A. Grohmann: Einfuhrung U. Chrestomathie, S. 21, 43.

وقد اطلق ف . ح . كنيون في كلمة الافتتاح التي القاها في المؤتمر الدولي الخامس لعلم البردى في اكسفورد (٣١ اغسطس سنة ١٩٣٧) على عام ١٨٧٧ عام الكاردينالية بالنسبة لعلم البردى العربي ، وهو يقصد بذلك تعميد هذا العلم ووصوله الى الذروة نتيجة الكثرة الهائلة لموجودات هذه الوثائق .

(١٠) ظلت هذه المكاتبات بين كرابتشك وثيودرجراف في طي الكتمان لا يدري المؤرخون او المشتغلون بعلم البردي عنها شيئا حتى تمكن الدكتور هربرت هونجر من نشرها في كتاب بعنوان :

Herbert Hunger; Mitteelungen aus der papyrus sammlung der Osterreichischen National-bibliothek «Papyrus Erzherzog Rainer» Wien 1962.

نحن بسبيل ترجمته الآن .

(١١) يبدو لي ان ثيودرجراف انتهز فرصة ضرب الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ واحتلال البريطانيين لها وخرج بهذا الكنز العظيم من مصر في هذا الوقت العصيب ، بل اخذ معه مجموعة من أندر السجاجيد الشرقية لم تشاهد فيينا لها مثيلا من قبل ؛ وما زالت بعض هذه السجاجيد معروضة في متحف الفن الشرقي بالحي التاسع بفيينا .

(١٢) راجع مجلة متحف الفنون والصناعات بالمكتبة الامبراطورية بفينا ابريل سنة ١٨٨٣ صفحة ٣٩٤ وما بعدها « مجموعة بردى الفيوم ـ ثيودرجراف

Monatsschrift für Kunst und Kunstgewerbe: Mitteilungen des Kaiserlichen Osterreichischen Musuems fur Kunst und Industrie. Fuhrer durch Josef Karabacek, die Papyrus Erzherzog Rainer, Wien 1894.

(١٣) Die Papyrus fund von el-Fajum — Der Zweite Fajumer Fund. Vgl. G. Schweinfurth; Reise in das Depressions gebiet im Umkreise des Fajum im Januar 1886 S-98 ff.

(١٤) Mitteilungen aus der Sammlung der Papyrus Erzher Rainer.

(١٥) راجع أرشيف جامعة هايدلبرج (قسم البرديات ، سنة ١٩١٤ حيث اودعت هذه الاتفاقية بها .

(١٦) C. H. Becker: Veroffentlichungen aus des Heidelberger Papyrus- sammlung III; Papyri schott-Ranhardt, I, Heidelberg 1906

» » Arabische Papyri des Aphroditofundes «Zeitschrift fur Assyrologie und Verwandte Gebiete» B. XX; 1906 S. 68 - 104.

» » Neue arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam, II, 1911, S. 245 - 268.

(١٧) قامت الآنسة Enge - Lora التي كانت تعمل في ترميم وصيانة

البرديات بهذا القسم بتسليم كل ما يتعلق بهذه الدراسات الى اهل د . سابدل ، وهناك محاولات وجهد يبذل من جانب د . ريشارد سايدر الذي اصبح مديرا لهذا القسم واستاذا بالجامعة لعلم البردى اليوناني للحصول على هذه الدراسات ولكنه لم ينجح حتى الآن .

(١٨) Na'ia Abbott; Zeitschrift der deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, XCII, 1938, S. 88 ff.

The Kurrah Papyrie from Aphrodito in the oriental Institute, Chicago 1938.

» » ; The Monasteries of the Fayyum, The Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago 1937.

(١٨) اقمت في فينا حوالي ست سنوات من نوفمبر سنة ١٩٦٦ الى نهاية سبتمبر سنة ١٩٧٢ زرت خلالها معظم معاهد النمسا التعليمية ومتاحفها التاريخية والفنية ، كما قضيت وقتا كافيا في قسم البرديات والوثائق بمجموعة البرتينا وانتهز هذه الفرصة لاقدم جزيل الشكر الى السيدة الدكتورة لوبن شتاين Frau Dr. Loebenstein مديرة هذا القسم وكذلك Herr (Junge) Fackelmann على ما قدماه لي من معاونة فعالة . وكذلك استاذي البروفسور جوتشالك Prof. Dr. H. Gottschalk على كبير نصائحه .

(٢٠) B. Moritz; Arabic Palaeography; a Collection of Arabic texts from the first century of the Hidjra till the year 1000, Cairo 1905.

(٢١) Enzyklopadie des Islam, B. I, S. 67 ff. Leiden 1910

(٢٢) Annali dell' Islam, vol. V, Paris 1924

(٢٣) A. Grohmann; Arabic Papyri in the Egyptian Library 1934, II. 1936; III 1939, IV, 1963, V, 1956, VI, 1960, VII, 1966.

وقد قامت دار الكتب والوثائق المصرية بترجمة المجلدات الستةالاولى الى اللغة العربية .

(٢٤) راجع مقالنا عن تراثنا العربي في اوروبا بمجلة النشرة الصادرة في بون المانيا الغربية العدد ٢١ ، ٢٢ يوليو اغسطس سنة ١٩٧١ .

مراجع البحث

أولا : المراجع العربية :

١ ـ ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ق ١٠ م)
كتاب صورة الارض ـ مكتبة الحياة ، بيروت (بدون)

٢ ـ ابن الفقيه الهمزاني : ابو بكر احمد بن محمد
مختصر كتاب البلدان ـ بريل ـ ليدن سنة ١٣٠٢ هـ

٣ ـ ابو العباس النباتي :
كتاب الاغذية « مقتبسا من مقدمة علم البردى لجروهمان فينا سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٣ ، ط سنة ١٩٥٥ »

٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ، دار المعرفة ـ بيروت ط ثالثة سنة ١٩٧٤ .

٥ ـ دائرة المعارف . المعلم بطرس البستاني ج ٥ ط تهران (بدون)

٦ ـ دراساتي الشخصية على مجموعات بردي فينا ، وهايدلبرج ، والقاهرة .

٧ ـ القرناطي : ابو احمد الاندلسي
تحفة الالباب ـ المطبعة الوطنية ـ باريس سنة ١٩٢٥

٨ ـ القرآن الكريم

٩ ـ القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي
صبي الاعشى في صناعة الانشاء . نسخة مصورة على الطبعة الاميرية المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٣ القاهرة

١٠ ـ المقدسي : ابو عبدالله محمد بن احمد
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط الثانية ، بريل ـ ليدن ١٩٠٦

١١ ـ اليعقوبي : احمد بن اسحق بن جعفر
تاريخ اليعقوبي . دار صادر ـ بيروت سنة ١٩٦١ .

1. Arolf Grohmann; Allgemeine Einfuhrung in die. Arabschen Papyri. Wien 1924.

2. » » ; Einfuhrung und Chrestonathie Zur Arabischen Papyruskunde. Praha 1955.

3. » » ; Arabic papyri in the Egyptian Library, 7 Volumes, 1934 - 1966/1967.

4. Bernard Moritz; Arabic Palaeography; a collection of arabic texts from the first century of the Hidjra till the year 1000, «Khedivial Library» Cairo 1905.

5. Carl H. Becker; Veroffentlichungen aus der Heidelberger Papyrussammlung, III; Papyri Schott-Rienhardt I, Heidelberg 1906.

6. » » ; Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes, Der Islam, II, 1911.

7. » » ; Arabische Papyrie des Aphroditofundes. Zeitschrift fur Assyrologie und verwandte Gebiete, B. XX, 1966.

8. Cart Wessely; Studien zur Palaeographic und papyruskunde «ubergetragen von A. Grohmann; Einfuhrung, S. 35.

9. Encyclopedia Americana; Vol. 21, 1973, Americana corporation - New York.

10. » Britanica; vol. 17. 1973, William Benton Publisher, Chicago - London - Geneva.

11. Enzyklopadie des Islam; B. I, Leiden, 1967.

12. Giovanni d'Athanasi; A Brief account of the researches and discoveries in upper Egypt made under the Direction of Henry Salt - London 1836.

13. Herbert Hunger; Mitteilungen aus der Papyrussammlung der Osterreichischen National - bibliothek «Papyrus Erzherzog - Rainer » Wien 1962.

14. G. Schweinfurth; Reise in das Depressionsgebiete im Umkreise des Fajum im Januar 1886.

15. Josef von Karabacek; Der Papyrusfund von el-Fajum, Wien 1883.

16. » » » ; Die papyrus Erzheszog Rainer, Wien 1894.

17. » » » ; Mitteilungen aus der Sammlung der papyrus Erzherzog Raines. Wien 1894.

18. OMO; Osterreichische Monatsschrift fur den Orient, B. XI, 1885.

19. Silvester de Sacy; Journal des Savants, Paris 1825.

20. Theodor Graf; Monatsschrift fur Kunstgewerbe. Wien 1894.

21. Nabia Abbott; Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen gesellschaft. CXII, 1938.

22. The Monasteries of the Fayyum, the Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago 1937.

سرية نخلة إحدى سرايا الرسول الهامة

عبد الجبار منسي العبيدي
كلية التربية / فرع التاريخ
جامعة بغداد

كلمة السرية لغة تعني قطعة من الجيش ما بين ٥ ــ ٣٠٠ (١) ، أو هي من الخيل نحو اربعمائة ، او قطعة من الجيش على وزن فعيلة بمعنى فاعلة وجمعها سرايا (٢) . واصل التسمية مأخوذة من أنها تسري ليلا في خفية، أي تتحرك في تكتم وتستر لئلا ينذر بها العدو (٣) . وأما افرادها فهم من خلاصة العسكر وخيارهم مأخوذ من الشيء السري أي النفيس (٤) .

أما سرايا الرسول (ص) فهي الحملات او البعوث او المفارز التي بعث بها النبي (ص) للاستطلاع او القتال دون ان يشترك في معظمها ، أي لم يخرج فيها بنفسه ، وأولها سرية حمزة بن عبد المطلب وآخرها سرية أسامة بن زيد الى بني مذحج باليمن (٥) ، وكانت جملة بعوثه وسراياه سبعا واربعين سرية (٦) ، وقد يطلق أحيانا على السرية غزوه ولكن ذلك قليل ، فالغزوة هي التي اشترك فيها الرسول بنفسه ، وهي تسع فقط ، بدر القتال وأحد والمريسع والخندق وقريظة وخيبر والفتح (فتح مكة) وحنين والطائف (٧) .

ومن ضمن هذه السرايا ، سرية عبدالله بن جحش الاسدي ورفاقه الثمانية (٨) الذين سيأتي ذكرهم فيما بعد . وهذه السرايا كانت أشبه بدوريات أو مفارز استطلاعية قام بها الرسول للاستكشاف والتعرف على الطرق والمسالك المحيطة بالمنطقة (المدينة) والمؤدية الى مكة ، واختبار مدى قوة القبائل المحيطة بالمنطقة . ويبدو لنا ان هذه السرايا بدأت

فكرتها لديه صلى الله عليه وسلم مع فكرة مقاومة قريش ولادراك مدى استعدادهم للقتال او اعتزامهم على خوض غماره وضرب خطوط تجارتهم الى الشام ، وتجارتها الى الشام تعني مورد الحياة الرئيسي لها ماديـا ومعنويـا (٩) .

وهكذا بدأت السرايا الاولى كسريـة حمزة وعبيـد بن الحارث وغيرهما ، ولكن اغلب هذه السرايا لم تصطدم بقوافل قريش او حتى في حالة الاصطدام ، لم يحدث قتال ولم يهرق دم (١٠) ، لأن هذه السرايا لم يقصد بها القتال في اغلب الأحيان ولأنها غير قادرة عليه ، وحتى او ارادته فهي ضعيفة لا تقوى على الاصطدام ، ولا تصلح لقتال هجومي مطلقا ، لا سيما وان قوافل قريش كانت كبيرة وقـد اخذت لها الحيطـة في حراستها منذ هجرة الرسول الى المدينة ، وخاصة الطرق الساحلية .

والاكثر ترجيحا ان لا يكون القصد من هذه السرايا او المفارز نهب تجارة قريش ، استخلاصا لأموال المهاجرين المتروكـة في مكة ، بـل تهديد طرقها وضرب تجارتها ووضعها في موضع الامتحان ، وقد كان لهذه السرايا تأثير واضح على موقف المسلمين حيث انتزعوا زمام المبادرة في في القتال(١١) . وبهذه السرايا اصبحت قوافل قريش عرضة للمهاجمة، وحتى الطرق الساحلية المحروسة من قبل قريش اصبحت لا تبعد عن المدينة سوى ثمانين ميلا ، ولكن هذه السرايا كانت تعـود غالبا قبل نجدة مكـة لقوافلهـا (١٢) .

لقد كانت هناك اسباب ودوافع دفعت الرسول (ص) الى تجهيز هذه السرية فبعد ان هاجر الرسول من مكة الى المدينة حيث نظم امورها كي يسود السلام مجتمع المدينة . كان طبيعيا بعد ذلك كله ان يعمـل على تحقيق رسالته في الحياة ، وهو تبليغ الرسالة ، فاتجه بفكره الى قريش وما كانت تتخذه من اجراءات لمقاومة نشر الدعوة ، ثم ما ترتب على هجرة المسلمين من حرمانهم من زيارة البيت الحرام ، وهو واجب ديني مقدس

عندهم ، فلا بد والحالة هذه من عمل ايجابي يقوم به المسلمون ازاء كفار قريش ليفهموهم على الأقل ان مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين ، ولم يكن هذا التفاهم ممكنا ، ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من ابنائها ، وذلك بالضغط عليها اقتصاديا بقطع او تهديد طرق تجارتها ، ولذا عمد محمد (ص) بعد احد عشر شهرا من مقامه في يثرب على تأليف سراياه (١٣)، لتقوم هذه السرايا بأعمال عسكرية مسلحة على الطريق الساحلي الذي يوصل الشام بمكة ، كما حاول في الوقت نفسه موادعة القبائل المقيمة على هذا الطريق والتحالف معها تحالفا يزيد من ضغطه على قريش كي تسرع في التفاهم معه ، وكأن الرسول (ص) كان يرى ببصيرته ان وراء المسلمين كفاحا طويلا شاقا قبل ان يتمتعوا بنعيم حريتهم الدينية .

لقد كانت الظروف التي هاجر فيها الرسول (ص) ظروفا حربية أوجدها زعماء مكة أنفسهم عندما أهدروا دمه وخفروا ذمته (١٤) ، فهذا يعني الحرب ولا شيء سواها ، فطبيعي والحالة هذه ، ان يعمل كل من الفريقين ــ مكة والمدينة ــ عسكريا وسياسيا واقتصاديا الواحدة ضد الاخرى ، فاستعمال السلاح والتهديد والغزو والترصد ، ومعرفة كل جانب ما يدور في الجانب الآخر واضعاف شوكته بأية وسيلة ممكنة ، لهو من الامور البديهية ، فلا يلام فريق اعلنت عليه الحرب وصمم اعداؤه على الفتك به أينما وجدوه ، اذا ما تربص بقريش الدوائر ورسم الخطط لكسر شوكتهم ومنع أذاهم . وهذا ما حصل فعلا بالنسبة لاهداف السرايا والتي من ضمنها سرية عبدالله بن جحش الاسدي الى نخلة (١٥) ، فسرايا الرسول ألفت من أجل الترصد ومعرفة الاخبار والاستطلاع أحيانا والتظاهر بالقوة والتهديد احيانا اخرى (١٦) ، ضد المشركين . فهي معارك جانبية أملتها على المسلمين طبيعة الظروف العسكرية القائمة بينهم وبين اعدائهم .

لقد كانت الفترة التي تلت هجرة الرسول (ص) حتى معركة بدر الكبرى حوالي تسع عشرة شهرا (١٧) ، وفي هذه الفترة الزمنية لم يحدث أي صدام دام بين مكة والمدينة ، اللهم الا ما حدث في السرية التي

قادها عبدالله بن جحش الاسدي والتي كانت بمثابة الفتيل لاشعال نار الحرب بين الرسول (ص) وخصومه بدليل حدوث معركة بدر مباشرة بعدها بشهرين (١٨) .

والحقيقة ان النظرة التاريخية لاهداف هذه السرايا قصد بها على ما يبدو امور عديدة هي :

اولا ـ هدف استطلاعي ، وذلك باعداد قوات رمزية تطوف ما بين مكة والمدينة مهمتها كشفية استطلاعية حتى تكون المدينة في مأمن من أي هجوم مباغت من جانب قريش .

ثانيا ـ العمل على الاقتراب من قريش في عقر دارها واشعارها بقوة الخصم لها .

ثالثا ـ كما يبدو ، وهو ان الرسول (ص) كان يفكر دائما في اشغال المهاجرين من انصاره الذين ربما يصيبهم الملل والسأم من البقاء في المدينة بلا عمل تاركين ما يملكونه في مكة وليشعرهم بأهمية الهجرة والدعوة معا ووجوب العمل المستمر على انجاحها وتصميمه الأكيد على ذلك ، وفي هذا يجب انيكون الاستعداد الدائم للحرب النظامية وهذا أكثر اجهادا من القتال نفسه ، وفي هذا كسب معنوي للرسول (ص) وجماعته ، ولهذا الفزع المستمر صداه في مكة وهذه غاية الرسول (ص) من هذا العمل .

ولا بد لنا من الاشارة الى ان هناك دوافع اخرى لهذه السرية بالذات ، منها تهديد تجارة قريش وقد نجح الرسول (ص) في ذلك . اذ ارغمت أكثر القوافل التجارية على تجنب الطرق المسلوكة منذ ابعد العصور وراحت تتنكب في سبل وعرة عبر الصحراء حينا ومساحلةالبحر مع الرقابة الشديدة حينا آخر ، وفي هذا خسارة لقريش من مال وجهد

ووقت [١٩]. وقد يبدو ان هناك شيئا آخرا له من الاهمية نصيب ، وهو ارهاب اليهود الذين يقيموا في المدينة واشعارهم بأن ما يفعله المسلمون خارج المدينة يمكن ان يكون داخل المدينة ، ولو ان اليهود لم يفكروا قط مصارحته العداء في بداية الهجرة خوفا على تجارتهم ومركزهم المالي، لذا حاولوا ان يعملوا ضده بصورة غير مباشرة كالدس وايقاظ الاحقاد القديمة بين الاوس والخزرج ، وقد ظهر ذلك جليا واضحا بعد معركة بدر ثم ما تطور اليه بعد أحد [٢٠] . ناهيك عن قصده (ص) تدريب هؤلاء المجاهدين على القتال واكسابهم الخبرة والسيطرة على عادة الغزو والسطو عند العرب [٢١] ، وايجاد نوع من توازن القوى بين مكة والمدينة وذلك بالعمل على تأكيد سيطرة المدينة على المنطقة الشمالية ، في الوقت الذي تسيطر قريش على المنطقة الجنوبية ، وقد تكون هناك رغبة في الكسب المادي للدولة التي كانت بلا شك بحاجة ماسة للمال لادارة شؤونها ومجابهة الاحتمالات المالية المترتبة عليها مستقبلا .

تلك هي الأسباب والدوافع التي املت على الرسول (ص) تجهيز السرايا بعد ان قام في المدينة وبعد ان لمس ان قريشا لا تصغي لصوت الحجة والدعوة الى الاسلام ، حتى كانت بيعة العقبة الكبرى التي كانت بمثابة مفترق طريق في سياسة الرسول (ص) ، فلقد اذن محمد (ص) لمسلمي مكة بالهجرة الى المدينة تمهيدا لانتقاله اليها واتخاذها قاعدة للعمل الحاسم ضد قريش ، واذن الله لمحمد بالقتال دفاعا عن الدعوة الجديدة [٢٢] .

وتنفيذا لهذه السياسة كانت سرية عبدالله بن جحش الاسدي في رجب من السنة الثانية للهجرة [٢٣] ، مع ثمانية [٢٤] من المهاجرين ليس فيهم أحد من الانصار [٢٥] ، بل كانوا جميعا من المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق ولكل منهم قصته في احتمال الاذى ، وقد عرفوا باخلاصهم وتفانيهم من أجل الرسول (ص) ودعوته الى التي آمنوا به طوعا وعن اقتناع وتحملوا من قريش الكثير ، يضاف الى ذلك رغبتهم

الملحة في ايذاء قريش بأية وسيلة كانت ، وخشية من احتمال اضطراره قتال قريش ، الف هذه السرية من المهاجرين فقط وفقا لنص بيعة العقبة الكبرى مع الانصار الذين لم يبايعوه على حرب هجومية خارج المدينة [٢٦] . والاكثر احتمالا ان الرسول (ص) كان يدرك ما لهذه السرية من مهمة وخطورة بالغة ، لذا كان لا يريد اشراك شخص لا يتحمل مسؤولية موته فيما بعد ، بالاضافة الى ظروف أهل المدينة واستقرار حياتهم بخلاف المهاجرين الذين كانوا في قريش عدوهم الأول سالب حريتهم وأموالهم وديارهم وكل ما لهم من سلطة ونفوذ في مكة .

هؤلاء المهاجرين الثمانية هم : سعد بن ابي وقاص . واقد بن عبدالله ، عتبة بن غزوان ، عامر بن ربيعة ، ابو حذيفة بن عتبة ، خالد ابن البكير . سهيل ابن بيضاء ، وعكاشة بن محصن ، بينما الطبري يستبعد خالد بن البكير ويضع محله عمار بن ياسر ، ويقول عن عامر بن ربيعة عامر ابن فهيرة ، وقائدهم عبدالله بن جحش الاسدي [٢٧] .

اما قائد السرية فهو ابو محمد عبدالله بن جحش بن رباب بن يعمر من بني اسد وامه اميمه بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ص) ، وهو حليف لبني عبد شمس وقيل حليف لحرب بن اميه ، وقد سبق الى الاسلام قبل دخول النبي دار الارقم بن ابي الارقم وهاجر الى الحبشة والمدينة ، واخته زينب بنت جحش زوجة رسول الله (ص) وهو الذي شهد بدرا وقتل يوم أحد وعمره نيف واربعون سنة ودفن مع حمزة عم النبي في قبر واحد [٢٨] .

اما الثمانية الآخرون الذين اشتركوا في السرية فهم :

١ ــ سعد بن ابي وقاص ، واسم ابي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف ، وامه حمنه بنت سفيان بن اميه بن عبد شمس ، اسلم وعمره سبع عشرة سنة ، وهو أحد الذين شهد لهم الرسول (ص) بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى بعد خلافة عمر ، شهد بدرا وأحدا

والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وهو من أقارب رسول الله حيث يجتمع معه في عبد مناف وهو قائد القادسية وفاتح المدائن وباني الكوفة ، وقد استماله معاوية بن ابي سفيان اليه ضد الامام علي (ع) فأبى ذلك وتوفي ودفن في العقيق على بعد سبعة أميال من المدينة سنة ٥٤ ، ٥٥ هجرية وكان آخر المهاجرين موتا . وقد استخدمه الرسول (ص) ضمن الذين كان يعتمد عليهم في تلمس الأخبار [٢٩] .

٢ ـ واقد بن عبدالله بن عبد مناف من بني تميم حليف بني عدي بن كعب وهو الذي بعثه الرسول (ص) في هذه السرية ، اسلم قبل دخول النبي دار الارقم ، وهو أول رجل قاتل من المسلمين ، وعمر بن الحضرمي أول مقتول على يده ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) وتوفي في عهد عمر بن الخطاب [٣٠] .

٣ ـ عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب حليف بني نوفل بن عبد مناف وهو سابع سبعة في الاسلام وقد هاجر الى الحبشة وعمره اربعون سنة ثم هاجر الى المدينة مع المقداد اثناء التقاء سرية عبيد بن الحارث مع عكرمة بن ابي جهل ، وقيل انه مات سنة ١٧ هـ بمعدن بني سليم ، وقال المدائني انه مات بالربذة وهو ابن سبع وخمسين سنة ، وقد عين أميرا على البصرة في عهد عمر بن الخطاب [٣١] .

٤ ـ عامر بن ربيعة بن كعب بن مالك العنزي ، وهو من عنز وائل أخو بكر وتغلب ابني وائل ، وهو حليف آل الخطاب ، اسلم بمكة وهاجر الى الحبشة والمدينة ، وامرأته ليلى بنت ابي حثمة ، وقيل ان ليلى اول امرأة هاجرت الى المدينة ، وهو من الذين شهدوا بدرا وسائر المشاهد مع رسول الله (ص) وتوفي سنة ٣٢ هـ [٣٢] .

٥ ـ ابو حذيفه بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ،

وامه فاطمة بنت صفوان بن اميه ، وهو من السابقين في الاسلام ، وهاجر الى الحبشة والمدينة وقتل يوم اليمامة وعمره خمس وثلاثون وقد أسلم قبل دخول النبي (ص) دار الارقم ، ويقال ان اسمه مهشم وقيل هيثم وقيل هاشم وقد مات ابوه كافرا بمكة (٣٣) .

٦ ــ خالد بن البكير بن عبد يا ليل حليف بني عدي بن كعب من السابقين في الاسلام شهد بدرا واستشهد يوم الرجيع سنة ٤ هـ وهو ابن اربع وثلاثون سنة ، وكان جده حليف لآل الخطاب (٣٤) .

٧ ــ سهيل بن البيضاء ، والبيضاء أمه وأبوه وهيب بن ربيعة بن هلال بن مالك ويقال ان امه هي دعد بنت جحدم بن الحارث بن فهر وهو ابن عمها ، اسلم بمكة ولم يستخف باسلامه أبدا وهاجر الى المدينة وشهد مع النبي بعض المشاهد ، ومات بعد وفاة الرسول(٣٥).

٨ ــ عكاشة بن محصن بن مرثان بن قيس بن خزيمة ويكنى بأبي محصن ، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) ومن الذين بعث بهم رسول الله (ص) الى الغمرة (٣٦) في اربعين رجلا ، وقتل في خلافة ابي بكر وعمره احدى واربعون سنة وهو من زملاء عبدالله بن جحش في سرية نخلة (٣٧) .

من دراسة حياة هؤلاء الرجال يبدو لنا جليا ان اختيارهم من قبل الرسول (ص) لم يكن مصادفة او اعتباطا ، بل بطريق الاختيار والمعرفة الأكيدة من حيث الايمان والولاء للدعوة والبذل والتضحية والفداء في سبيلها ، وبهذا الخصوص يقول الواقدي (٣٨) : ان الرسول (ص) عندما دعا عبدالله بن جحش لتكليفه بأمر السرية كان اتفاقه مسبقا مع هؤلاء الرجال الذين يعرف معدنهم واخلاصهم ، وكان يدرك تماما ما يفعل وهو الحريص الاول على مصلحة الدعوة ، والماهر الخبير بمن يستخدم لها ، وناحية اخرى تبرز في دراستهم وهي ان اغلب هؤلاء الرجال من قبيلة

واحدة وحلفاء فيما بينهم قبليا (٣٩) وقائدهم ينتمي بالنسب الى رسول الله عن طريق الام (٤٠) .

اما بخصوص تعليمات الرسول لقائد السرية فقد ذكر الواقدي، عندما دعا رسول الله (ص) عبدالله بن جحش وكلفه بالمهمة طلب منه ان يأتيه مع الصبح الباكر ومعه سلاحه ، وعند اللقاء به وجد عنده جماعة من الرجال سبقوه لمقر الرسول (ص) (٤١) ، وهناك تسلم منه الكتاب الذي هو عبارة عن صحيفة من أديم خولاني (٤٢) ، وأمره ان لا يفتح الكتاب حتى مسيرة ليلتين على ان يسلك النجدية (٤٣) ، ولم يفتح الكتاب حتى وصل الى بئر ابن ضميرة (٤٤) في نفس المكان الذي حدده الرسول لفتح الكتاب ، وبعد فتحه للكتاب وجد فيه :

« اذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارهم (٤٥) » ، يبدو أن الرجل قد نفذ أوامر الرسول تماما ، فعندما فتح الكتاب في المكان المعين له من الرسول (ص) ، اخبر رفاقه بما في الكتاب ثم قال لهم :

ـ ان رسول الله نهاني ان استكره احدا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ، لكن الجميع قد استجابوا له (٤٦) . ولو أن هذه الاستجابة لم تكن وليدة ساعة فتح الكتاب ، لأن ابن جحش لم يكن على اتفاق مسبق معهم ، بل الذي يظهر ان الرسول كان قد اتفق على المهمة ونوع العمل الذي سيقومون به(٤٧) . ويظهر لنا أيضا ان قائد السرية كان يريد بمخاطبته لهم ساعة فتح الكتاب اثارة حوافز الهمة في صدور هؤلاء الرجال وهذا أمر أدركه الرسول (ص) كان يعرف من هم هؤلاء الرجال وما مقياس عقيدتهم واستعدادهم للتضحية في سبيل المهمة ، ويظهر لنا ان ترك الخيار لهم في هذا الموطن كان لزيادة الثقة والرضا وليقوموا على عملهم بشهامة ونبل وتضحية ، كما أن عامل التخير لخوض المخاطرة بالرغبة والتطوع أنفع من الأوامر والسلطان .

ومن تعليمات الرسول (ص) لقائد السرية يبرز لنا عامل هام لا بد من الاشارة اليه ، وهو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع وذلك للاحتفاظ بسرية الامر الذي وكل اليه ، وليجهل كل فرد في المدينه الى اين يقصد عبدالله بن جحش ، فلا يكتب بهذا لقريشي لأن الرسول نفسه كان يعمل بهذا المبدأ ، مبدأ الحصول على المعلومات [٤٨] ، وهنا تظهر لنا أهمية العناية باستقصاء المعلومات من الاستكشاف واستجواب الاسرى والاحتفاظ بسرية الأوامر والترتيبات للمعركة .

ويظهر ان القسم الهام من هذه الرسالة المختومة كان يتعلق بسريتها وهدفها معا ، فلم يكتف الرسول بتلك السرية الى قائد الحملة التي ضمنها تلك الرسالة والتي لم يعرف محتوياتها سوى الرسول وكاتبه ابن ابي وواحد او اثنين من مستشاريه الثقاة ، وأمر ان تسلك الحملة طريق نجد باتجاه الشرق مع ان هدفها كان ناحية الجنوب ، وقد قام بلا شك بذلك لكي لا يعطي فرصة لجهاز التجسس المكي من ان يعرف هدف المسلمين . وعلى أية حال كان لزاما على الرسول اتخاذ تلك الاحتياطات الهامة حيث تقع نخلة اقرب من مكة منها الى المدينة [٤٩] . فلو حدث ان تسربت أخبار عنها لكان مصيرها الفشل حتما وهذا ما كان يتوخاه [٥٠].

هل خالفت السرية أوامر الرسول ؟

يبدو لنا من دراسة نص الكتاب الذي سلم لعبدالله بن جحش ان الرسول لم يأمر بالقتال ، بل امرهم بالترصد ومعرفة الاخبار [٥١] . حيث لم تذكر كلمة قتال في كتابه . ثم هناك تأنيبه لهم على فعلتهم وقتالهم وايقاف العير والاسيرين وعدم التصرف بهم مما يدل على عدم الرضا عن العمل [٥٢] ، ويظهر هنا ان كلمة ترصد يقصد بها اخذ الحذر والحيطة وليس ايقاع القافلة في الكمين ، وهنا لا تلقى المسؤولية على الرسول بسبب من اريق دمه في ذلك الشهر الحرام ، ولكن ليس هناك من شك في ان الرسول ارسل رجاله المهاجمين في مهمة من المؤكد ان بعض القتلى سيقعون فيها منهم أو من الاعداء وليس لدينا ما يؤكد بأن الرسول

(ص) كان يعلم بالتأكيد بأن تلك القافلة ستمر من هذه المنطقة (نخلة) ولكن من الممكن ان الرسول كان قد وضع في الحسبان بأن قافلة تمر بين مكة والطائف لا تكون مزودة بحراسة شديدة ، وذلك بسبب الامان النسبي لذلك الطريق الذي تسلكه القوافل الى سورية والذي يحتم عليها ان تمر بالقرب من المدينة والاحتمال الاكثر ترجيحا ان الرسول (ص) اعتمد على الاحتمالات العامة وليس على معلومات محددة واضحة [٥٣] . لا بد لنا ايضا من دراسة الظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة بالرسول وجماعته والحكم على هذا التصرف . فالمشكلة هنا مقاتلة قريش في الأشهر الحرم ، ففي مثل هذه الاشهر لا يحدث قتال ولا يجوز فيها اراقة الدماء [٥٤] . فهل للنبي ان يتقبل هذا العرف على انه قانون ، وهل له ان يتبع تقاليد الجاهلية في القتال باعتباره عربيا يجب ان يخضع للعرف الذي تداولته القرون ، ويبدو أن الرسول أخذ بهذا المبدأ باعتباره ان الله لم يبدل في هذا العرف ولم يأته من الله ما يشير الى الغائه لانه لم يرتح لهذا التصرف ، فهو لم يبعثهم حسب أوامره ــ للقتل أصلا بل لتقصي أخبار قريش ، وما أمرهم ان يقتلوا أو يأسروا أحدا في الشهر الحرام .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان النقض للقانون القبلي آثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها [٥٥] ، فما كان من الرسول الا ان أظهر عدم رضاه من عمل اصحابه الذي تم وفقا لرغباته بلا خوف وعزاه الى سوء فهم لاوامره ولم يجرؤ على اعلان شرعية الحرب في الاشهر الحرم الا بعد نزول الآية الكريمة « يسألونك عن الشهر الحرام ... » ، ويظهر ان موقف الرسول لم يمكنه بعد او لم يكن من القوة بحيث يجاهر بقتال قريش في مثل هذه الأشهر المحرمة لأنه ما زال في دور الاعداد والتكوين للقوة المسلحة المناهضة لقريش القوية آنذاك [٥٦] .

لذا وبعد نزول الآية التي أشرنا اليها حدث تطور تشريعي أحل قتال العدو في أي زمان ومكان ما دام العدو مصمما على الفتك بالمسلمين

ودعوتهم واتساع الهوة بين المعسكرين • وصمم المسلمون على ان لا يتركوا فرصة تسنح لهم للايقاع بعدوهم الا اغتنموها (٥٧) ، كما ادرك قادة مكة ان المسلمين مصممون على محاسبتهم عسكريا على كل ما ارتكبوه بحقهم من سيئات ، ومن جهة اخرى ادركت قريش بثاقب بصيرتها ان تجارتها مع الشام وهي العمود الفقري لحياتها أصبحت مهددة تهديدا خطيرا بعد تمركز الرسول في يثرب (٥٨) التي تتحكم في طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام، وهذه هي احدى النتائج التي كانت تخشاها مكة من افلات محمد من قبضتها قبل الهجرة للمدينة • ان النظرة الواقعية لمخالفة عبدالله بن جحش لأوامر الرسول تبرر له ما حدث فالذي يظهر لنا من دراسة أحداث السرية ان الرجل كان في موقف لا يمكن معه ان يفعل غير الذي فعل ، لأن دخول القافلة للحرم المكي ، وهي ليست ببعيدة عنه (٥٩) سوف يجعلها في مأمن من القتال ويمنعهم من مهاجمتها بأية طريقة كانت ، أم انهم ظنوا ان الشهر الحرام قد انتهى ويبدأ شهر شعبان الذي يحل فيه القتال ذلك أمر غير مقبول ، وان الرسول كان يعلم ان الكمين سوف يحدث خلال ذلك الشهر وما قيل عدا ذلك فهو ضرب من التخمين •

اهمية اختيار نخلة وما نتج عن هذا الاختيار :

لقد وصف جغرافيو العرب الارض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة ، لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه السفر ويتخللها طريقان احدهما شرقي محاذ لبلاد نجد ، والآخر غربي محاذ لساحل البحر (٦٠) • أما الطريق الذي سلكه الرسول وصاحبه من جبل ثور (٦١) الى المدينة فهو الطريق من أسفل مكة ثم مضى الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عسفان (٦٢) وتبعد عن مكة ستة وثلاثين ميلا اسفل آمج (٦٣) ثم سلك الخرار (٦٤) ثم الجداجد (٦٥) ثم وادي العقيق (٦٦) ، المؤدى الى المدينة • ومن دراسة هذه الرحلة الشاقة من مكة الى المدينة نشاهد ان الرسول سلك الطريق الساحلي مع التعرجات والالتواءات هنا وهناك

خشية كشف أمره ، وقد مكنته هذه الرحلة من معرفة الطرق وأهميتها بالنسبة لخطط المستقبل ناهيك عن ان الرسول كان التاجر الذي يتردد على الشام ، صاحب الخبرة في هذه الطرق التجارية . وقبل دراسة سبب اختيار نخلة لا بد لنا من معرفة هذه المنطقة بالذات . يذكر الهمداني(٦٧)، صفة جزيرة العرب ، ان جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام ليس بجبل واحد ، ان هي جبال متصلة على نسق واحد عرضها اربعة ايام في جميع طولها وتقطعها الاودية ، منها وادي نخلة وفيه الموز والخضر والمياه الغزيرة التي تأتيه من الجنوب ، ويظهر ان مواضع العبادة هي مكة وايلياء واللات بأعلى وادي نخلة . وان الفرع (٦٨) قرية من قرى وادي نخلة ، وهذا الوادي يمتد من الحرة (٦٩) الواقعة شمال عشيرة (٧٠) غربا حتى يجتمع بوادي نخلة اليمانية ثم يكونان واديا يدعى مرّ الظهران (٧١) ويصب في البحر الاحمر جنوب مدينة جدة (٧٢) وفيها بستان ابن عامر . ويقال ان الحجاج الذين يأتون من البحرين وعمان يجتمعون بالبوابة (٧٣) أعلى منطقة نخلة . اذ لا بد لهم قبل ذلك من المرور بمكان الاحرام(٧٤) وهذا يعني ان منطقة نخلة نفسها أرض لا يجوز فيها القتال وهذا قد يفسر لنا سبب حلق عكاشة بن محصن رأسه تمويها لقافلة ابن الحضرمي قبل قتله كي لا تفكر القافلة بأن هؤلاء جاؤا لمهاجمتها (٧٥) ، ووادي نخلة يقع بين مكة والطائف والذاهب اليه يسلك النجدية ، لذا نرى الرسول يوصي قائد السرية بسلوك هذا الطريق ، ومدينة مكة تقع بين شعاب الجبال وطولها من المعلاة الى السفلة نحو ميلين وهذا يدل على ان نخلة من ضمنها (٧٦) . ان المسافة بين مكة وبستان ابن عامر في وادي نخلة مرحلة واحدة(٧٧) ، أي فرسخ واحد ، وهذا يؤيد انها جزء من مكة ، ووادي نخلة من الاودية الخصبة التربة والممتلىء زراعة .

ومن دراسة موضع نخلة والطريق المؤدي اليها ، يظهر لنا ان هدف الرسول من اختيار هذا الموقع يعود لعدة اسباب ، منها انها ممر للقوافل الذاهبة الى مكة واقرب نقطة اليها وهي منطقة ليست في حسبان

قريش من حيث التهديد ولاشعار قريش بقوة وخطر المدينة بالاضافة الى آهمية هذا الموقع واستراتيجيته من الدفاع والهجوم ضد المدينة .

تخلف سعد وعتبة عن السرية :

تجمع اغلب المصادر التاريخية على تخلف سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان عن سرية عبدالله بن جحش الى نخلة (٧٨) ، وقد كانت بداية هذا التخلف من معدن (٧٩) منطقة بحران فوق الفرع وتجمع اغلب تلك المصادر على ان هذا التخلف كان بسبب فقدانهم راحله ضلت الطريق(٨٠)، ويبدو أن جماعة السرية كانوا كل اثنين يركبان بعيرا بالتناوب ، وان سعد وعتبة كانا على راحلة واحدة تعود لعتبة (٨١) . ولما ضلت تلك الراحلة الطريق ظلا يتعقبانها ويفتشان عنها الامر الذي أدى الى تخلفهما عن السرية ، ويبدو ان قائد السرية لم يعر للامر أهمية ، لا سيما وانه اعلمهم مقدما بعدم اهتمامه بمن يرغب في العودة او التأخر حين خيرهم في الرجوع الى المدينة أو في السير معه الى نهاية المهمة (٨٢) .

ويبدو لنا من دراسة ظروف هذه السرية ان ترددا قد حدث عندما تليت رسالة الرسول (ص) عليهم ، رغم استجابتهم جميعا في بداية الامر وهذا التردد قد يعود الى شعورهم بخطورة تلك المهمة التي ارسلوا من اجلها ، وقد يكون من الارجح ان شكا قد ساورهم بأن تلك العملية حرام ، او ما الى ذلك من تصورات اخرى ، فالعربي عندما يفور دمه ويوجد في وسط الخطر فهو جسور مقدام الى حد الاندفاع ، ولكن في لحظات الهدوء والاسترخاء يحاول قدر استطاعته تجنب الخطر (٨٣) . وقد يفسر هذا طلب النبي (ص) من قائد السرية بأن يعيد الى المدينة أي رجل لا تكون رغبته كلية في الذهاب وتنفيذ تلك العملية ، لذا فان رواية التخلف لسعد وعتبة جديرة بالدراسة والاهتمام .

لقد بين الرجلان عند رجوعهما الى المدينة بعد بضعة ايام بأن

راحلتهما قد فقدت (تاهت) في الصحراء ، وقد سبب ذلك انقطاعهما عن جماعة السرية عندما حاولوا البحث واللقاء بهم [٨٤] . وقد يشك في صحة هذه الرواية لأن الحقيقة انهما قضيا وقتا طويلا في ديار بني سليم [٨٥] ، وهي قبيلة ينتمي اليها عتبة بن غزوان ، وان الرسول قد طالب بعودتهما اثناء عملية تبادل الاسرى ، لأن الرسول (ص) لا يعرف مكان سعد وعتبة ، لذا طلب من المشتركين التريث في الحل النهائي لحين عودة صاحبيه سعد وعتبة خوفا من أن يكونا اسيرين أو ما زالا في الطريق وهما في خطر الاعتقال [٨٦] . لكن لم يتوفر لدينا أي دليل على ان الرجلين كانا اسيرين لدى قريش ، والاكثر احتمالا ان التخلف قد حدث عمدا بسبب شكوك كثيرة راودتهما اثناء قراءة الكتاب أو انهما كانا على اتفاق مسبق بالتردد عن هذه المهمة ، ويؤيد هذا ان عملية فقدان الراحلة لم يكن سببا معقولا للتخلف ان كان هناك فقدان للراحلة كانت قريبة من هدف السرية ، ولم نجد ما يشير الى ان الفقدان للراحلة قد تم في المنطقة الصحراوية البعيدة ، ناهيك عن انهما قد خرجا من المليحة [٨٧] ، على شكل نوبه[٨٨] من الناس وهذا يدل على انهما كانا عند تلك الجماعة وعند قدومهما للمدينة وجدا نفرا من قريش قد قدموا في فداء اصحابهم ، ولكن الرسول (ص) لم يقبل حتى قدومهما وعندئذ تمت المفاداة [٨٩] . وقد تكون هناك قصص وضعت لتشويه سمعة الرجلين لكن هذا الاحتمال على ما يبدو ضعيف .

ماذا حدث في نخلة ؟

لا بد من الاشارة الى بداية الرحلة المليئة بالاخطار حيث بدأت بالمكان والزمان الذي فتح فيه قائد السرية كتاب الرسول السري ولا بد من تحديد هذا المكان لمعرفة المسافة بينه وبين الهدف (نخلة) ، ويذكر الواقدي [٩٠] ، ان عبدالله ابن جحش قد سلك النجدية ، وقد فتح الرسالة بالقرب من بئر بن ضميره ، ثم توجه الى نخلة فوصلها مع بقية الرهط ، وهناك شاهدوا عيرا لقريش تحمل خمرا وزبيبا وأدما وتجارة فيها عمر بن

الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبدالله وأخوه نوفل (٩١) ، فلما رآهم القوم هابوهم أي احترموهم او خافوهم حتى اقترب منهم عكاشة بن محصن بعد ان حلق رأسه فاطمأنوا (٩٢) ، وقالوا لا بأس عليكم منهم (٩٣) ، وبعد هذا التردد في مهاجمتهم قالوا والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم في الشهر الحرام (٩٤) ، وجرت مناقشة فيما يخص امر الهجوم ام لا ؟ ويبدو ان الامر قد استقر بينهم بضرورة الهجوم على القافلة واخذ تجارتها وابلها ورجالها ان امكن ، ويبدو ان حلق (٩٥) عكاشة لرأسه لابعاد الشبهات عنهم والتظاهر بأنهم حجاج الى البيت ، ولكن لم اجد رغم بحثي المتواصل في العادات العربية القديمة عن حلق الرأس ما يبرر هذا سوى ما يذكره اليعقوبي (٩٦) بهذا الخصوص ولربما كان حلق الرأس لسبب آخر ، وقد تكون هناك عادة عربية كهذا الحلق لا نعرفها ولا نعرف ما يحيط بها من ظروف . وعلى آية حال انتهى الامر بالهجوم عليهم حيث رمى واقد بن عبدالله بن عمر بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وافلت القوم نوفل (٩٧) ، وعاد ابن جحش واصحابه بالعير والاسيرين الى المدينة على الرغم من وصول انباء تلك الغارة الى اعداء الرسول .

هناك ثلاث احتمالات لدينا لا بد من مناقشتها ، اولها وجود اتفاق مسبق وسري بين الرسول وقائد السرية بالقتال ، الا ان نص الكتاب وصراحته لا يؤيد هذا الاحتمال ، والاحتمال الآخر ان عبدالله بن جحش خالف أمر الرسول وقاتل بتصرف عن نفسه ، ويبدو ان هذا الرأي فيه احتمال القبول بسبب امتناع الرسول عن اخذ العير والاسيرين وغضبه وتعنيفه لافراد السرية . والاحتمال الثالث ان قائد السرية وجماعته كانوا مجبرين على القتال بسبب الظروف التي احاطت بهم عند مرور القافلة وكشف أمرهم وظروف قرب المكان من مكة وبعده عن المدينة ، الا ان الامر الاكثر ترجيحا هو الاحتمال الثالث .

اما بالنسبة لموقف الرسول من تصرفات قائد السرية وجماعته فقد بينا سابقا نص كتاب التكليف ، وقصد الرسول من هذا الكتاب الذي اشتمل على الترصد ومعرفة الاخبار [٩٨] الا ان قريشا استغلت الفرصة فأخذت تشهر بالرسول والمسلمين قائلة استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال كما اغتنم كل اعداء المسلمين في المدينة كاليهود الفرصة فتفاءلوا أي فرحوا بهذا التصرف من قبل المسلمين على أمل ان تصبح هذه القضية بداية لنهاية الرسول وأصحابه [٩٩] . والسؤال هنا : لو ان الرسول قصد انتهاك حرمة هذا الشهر المقدس عندهم ، فهل سيجلب هذا الانتهاك الخزي والعار له ولجماعته وما قيمة هذا الارتباط بالقانون الجاهلي ما دام الرسول رافضا لكل ما آمنت به قريش في جاهليتها ، وكيف نفسر تردده في قبول الغنيمة والخمس وهل بهذا التصرف نستطيع ان نعتبر ان الرسول قد تخلى عن رفاقه أو أنه كان خائفا من قريش . ان الامر الاكثر احتمالا وقبولا هو أن التأجيل من البت في تلك القضية هو لشعوره العميق بضرورة دراسة ما قد يترتب على هذا الانتهاك من نتائج في المدينة ولا سيما وان الكثيرين من أهل المدينة من المسلمين كانوا خائفين من أن أمرا سيئا سيحل بهم نتيجة لهذا الانتهاك ، وما قد يقع من تأثيرات على المجتمع كله ان هم قبلوا بهذه الغنيمة [١٠٠] .

ويبدو من الأمر والدراسة وتردد الرسول في هذا الموقف العصيب الذي يتحمل مسؤوليته هو أكثر من أي شخص آخر باعتباره الآمر الناهي للامور آنذاك يبدو أن مسألة انتهاك حرمة الأشهر الحرم كانت مسألة صعبة للغاية في ذلك الوقت ، وهذا يفهم من المناقشة التي جرت بين أعضاء السرية قبل الهجوم حول اباحة القتال في الشهر الحرام أم لا [١٠١] ؟ وان هذا التحريم هو تقليد سابق سارت عليه العرب منذ الجاهلية الاولى [١٠٢] ، وهذا ما يفسر الدهشة التي انتابت الرسول لرد الفعل الذي احدثته تلك الغارة بين اهالي المدينة .

وتبرز لنا ناحية لا بد من مناقشتها ، فقد يكون تردد الرسول في

البت في أمر الغنيمة والاسيرين عائد الى ان الرسول (ص) لم يكن لديه أي تشريع يبحث في شؤون الغنيمة والاسرى وكذلك قد يكون تردده منتظرا نزول تشريع من عند الله بهذا الشأن ، وهذا ما حدث حيث نزلت آية الشهر الحرام (يسألونك عن الشهر الحرام ...؟ [١٠٣]) ، وبعد ذلك أصبح لديه تشريع حول القتال في الشهر الحرام ومدى السماح به ولكن الغنيمة والاسرى لم ينزل فيهما شيء ، ومن الآيـة يتضح لدينا تبرئـة أصحاب الرسول من التهم التي وجهت اليهم من قبل المشركين وهو خرق حرمة الشهر الحرام ، ومن هذه اللحظـة الغى وقف القتال في الاشهـر الحرام ، وهنا نلاحظ ان الرسول قد قاتل بعد بدر في الاشهر الحرم[١٠٤]، اما فيما يخص الغنائم وتقسيمها فلم يشرع فيها بآية قرآنية الا بعد بدر وهي [١٠٥] :

« واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولـذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنـا على عبدنا يوم الفرقـان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

موقف أهل المدينة من [illegible]

من أهل المدينـة ؟ هم القبائـل والجماعات التي سكنت مدينـة يثرب [١٠٦] ، الاوس والخزرج الشعب القوي الصلب العود واليهـود من بني قريظة والنضير الذين سكنوا المدينة زمنا طويلا . ولأهل المدينة ديانات سماوية كاليهودية مثلا ، وكانوا يؤمنون بالبعث والحساب [١٠٧]. مما جعلهم أقدر على تفهم الدعوة المحمدية من أهل مكة الوثنيين ، وعلى هذا الاساس نستطيع ان نجمل أهل المدينة بالانصار من الاوس والخزرج والمهاجرين الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، ثم المنافقين من الأوس والخزرج واليهود وبعض الجماعات الاخرى [١٠٨] .

من هذا التقسيم لهذه الفئات نلاحظ ان هناك فئات لم تدخل الدين الجديد ، ولكن موقفها لم يكن عدائيا ، الا أنه لا يفسر انهـم بجانب

الدعوة ، وقد يكون لنمو قوة المسلمين في المدينة أثره في عدم الجهر بالمعارضة من قبل هؤلاء ، الا ان صورة حياة الموادعة التي نشأت بين المسلمين وأهل المدينة أخذت تزداد بالتدريج ولكنها لم تصل الى حد الاعتقاد الكامل بالدعوة ، ويفسر هذا الموقف سرية الاعمال التي قام بها الرسول ، وطلبه عدم فتح كتاب السرية خوفا من ان يبلغوا قريشا بوجه أصحابه فيترصدوا لهم بدلا من أن يترصدوا لها (١٠٩) ، ولذا عندما حدثت الغارة لعبدالله بن جحش في الشهر الحرام (رجب) حدثت ردود فعل شديدة لدى أهل المدينة من تلك الغارة (١١٠) . مما جعلت الرسول يغير من موقفه تماما ويعنف أصحاب السرية ، ولعل مرد ذلك الى أن أهل المدينة أكثر تمسكا بمعتقداتهم الدينية القديمة من أهل مكة • أضف الى ذلك ما ساورهم من شكوك الخوف والعقاب في المستقبل نتيجة هذا التصرف ، ناهيك عن عامل التحريض والاشاعات من قبل المنافقين منهم •

الخمس واصل التسمية :

يقول الواقدي كان في الجاهلية المرباع (١١١) ، ويبدو أن هذا التقليد كان موجودا عند العرب منذ العصر الجاهلي ، والمعروف ان القبائل العربية كانت تدين بمبدأ الغزو للحصول على الغنائم ، وكثيرا ما لعب الغزو دورا هاما في الانتقال بين القبائل في الجزيرة العربية ، والذي جر الى ويلات وكوارث جسيمة ، الا ان الواقدي يذكر ان عبدالله بن جحش بعد عودته من نخلة قد خمس ما حصل عليه من غنائم ، أي اخرج الخمس للرسول والباقي يوزع على اصحاب السرية ، لذا قيل انه أول من خمس في الاسلام ، وقد يكون هذا الى رغبة قائد السرية في مكافأة جماعته ماديا ورغبة هذه الجماعة في تلك المكافأة ، لا سيما وان العربي متشبع بفكرة الغزو والسلب والحصول على الغنائم في ذلك الوقت ، ولذا كان هذا التخمين قبل نزول آية الخمس • آية الانفال (١١٢) : « واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » ، والتفسير هنا : ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول » أي أربعة اخماس لمن افاء الله عليهم وخمس لله ولرسوله (١١٣) .

ويبدو واضحا ان قائد السرية وهو العربي العارف بتقاليد العرب وعاداتهم قد أخذ هذا التقليد من الجاهلية ولم يكن ابتكارا منه لكنه خالف الطريقة بجعله خمسا بدلا من المرباع .

نزول آيـة القتـال :

ان النص القرآني الذي نزل به الوحي على رسول الله بعد هـذه الحادثة هو :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عنـد الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون »(١١٤) .

لا شك ان التفسير لهذه الآية الكريمة يبين ان انتهاك حرمة الأشهر الحرم أمر في غاية الخطورة ولكنهـا تذكر المسلمين بأن الجرائـم التي ارتكبتها قريش اكثر خطورة ، فالاستنتاج هنا انه لا بد وان العقـاب سيحل بقريش وليس بالمسلمين ، فكلمة كبير التي وردت في الآية تحمل معنى الاثم أيضا ولكن الآية لا تستبعـد القتال في المستقبل بل تحمـل بشير خير للذي حدث في الماضي وهذا تبرئة لساحة عبدالله بن جحش وجماعته ؛ ورغم هذا النص الا ان الرسول لم يعاود القتـال في الاشهر الحرم ، عدا ما حدث في الأعوام : السادس والسابع والثامن والتاسـع الهجري (١١٥) .

الا ان العلماء والمفسرين يرون ان منع الاقتتال في هذه الاشهر قد أبطل [١١٦] ومن الواضح ان عبدالله بن جحش وأصحابه قد انتهكوا حرمة الأشهر الحرم الا ان الرسول (ص) لم يكن باستطاعته ان يجد المبرر الكافي لهذا الانتهاك وحتى لو سلمنا جدلا بأن الرسول لم تكن لديه المعرفة التامة بشأن الاقتتال في الاشهر الحرم ، لكنه كان لزاما عليه ان يقدر معرفة قطاع كبير من اتباعه لحرمة هذه الاشهر وان يأخذ الحيطة والحذر من التأثير غير المباشر « كان قاصدا الهجوم في هذا الشهر » الذي كان لربما سيضعف من سلطته البشرية ولكن مهما يكن من أمر وحتى لو ان الرسول كان قاصدا الهجوم في هذا الشهر ومهما كانت نظرة العرب كان المقصود الكفار الملحدين من أهل مكة .

وبعد نزول هذه الآية استبشر الرسول والمسلمون ، فقبض الرسول العير والأسيرين ثم تمت عمليــة مبادلتهما بعد ان وصل سعد وعتبة بسبب تأخرهما عن السرية . والأسيران هما : الحكم بن كيسان الذي اسلم وقتل في موقعة بئر معونة [١١٧] ، وعثمان بن عبدالله الذي التحق بمكة ومات فيها كافرا [١١٨] .

ويقول ابن هشام في السيرة معلقا على هذه الآية الكريمة [١١٩] أي ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، مع الكفر به وعن المسجد الحرام واخراجكم منه وانتم أهله وهذا أكبر عند الله من قتل من قتلتم فيه . والفتنة أكبر من القتل ، أي كانوا يفتنون المسلم عن دينــه حتى يردوه الى الكفر بعد ايمانه فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين وحينئذ فرح اولئك المجاهدون وفرح معهم المسلمون بذلك التنزيل الآلهي الذي يقر ان العدوان يدفع بالعدوان ما دام المعتدون لم يراعوا الحرمات .

وكان نزول هذه الآيــة الكريمة تزكية لعمــل عبدالله بن جحش وأصحابه وتقرير لمشروعية عملهم ، وقيل هذه أول غنيمة غنمها المسلمون

وعمر بن الحضرمي اول من قتله المسلمون وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من اسرهم المسلمون (١٢٠) .

ولقد طمع عبدالله بن جحش وأصحابه في الاجر بعد ان برأت ساحتهم فقالوا يا رسول الله انطمع ان تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين فانزل الله فيهم قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١٢١) ، وبذلك وعدهم الله عز وجل في ذلك اعظم الرجاء وان هؤلاء هم خيار هذه الامة وان الله جعلهم أهل رجاء (١٢٢) .

نتائج السرية وتعليق عام :

بعد ان انتهينا من التحدث عن هذه السرية من حيث الدوافع والمشتركين فيها وما رافقتها من أحداث أدت الى تفسيرات كثيرةوكثيرة كادت ان تضعف من الدعوة واندفاعها في ذلك الوقت ، لا نستطيع ان نختتم هذه الصفحات دون ان نقف متمهلين ازاء ناحية مهمة من حياة الرسول وخاصة في الفترة الاولى من دعوته سواء في مكة أو المدينة تلك هي ناحية السيطرة والمهارة التامتين في وضع الخطط وأهدافها وتوجيه الحملات العسكرية في ذلك الوقت .

ولا بد من الاشارة الى التخطيط والاصول التي اتبعها في قيادة الجند وهم قلة من الرجال أقوى ما فيهم قلوبهم المليئة بالايمان ، والحقيقة التي لا شك فيها ان الدعوة الاسلامية من بدايتها قد احتاجت للقتال لفسح الطريق لنشر الدعوة ، ولم يكن الجهاد الا عاملا لهذه الدعوة . ويبدو ان الرسول قد شارك مشاركة فعلية عمليا وعقليا ونظريا في سبيل انجاحها وقد غامر بنفسه كثيرا في سبيلها ، وقد ظهرت براعته في ناحية تظهر فيها مدى قيادته للرجال وزعامته لهم والزعامة ضرورة لازمة . ومما لا شك

فيه اننا اذا استعرضنا التسجيل الذي جاء في كتب السيرة فاننا نجد كثيرا من الخطط العسكرية قد اتبعت وأول هذه الخطط تقوية الروح المعنوية وهي بطبيعة الحال عامل هام ومؤثر في الحروب ، والصورة الاخرى ادراكه لأهمية الاستطلاع والكشف عن تجمعات العدو ونيات قادته ورجاله وكل البعوث والسرايا التي بعث بها واشترك فيها كانت على ما يبدو للكشف ولاستطلاع قوة العدو ، وامكانية الاحتكاك به ؛ وتبدو الحكمة العسكرية في تخيره للاماكن التي يوجه اليها سراياه وتغييره للاماكن مرة بعد اخرى ولهذا نستطيع ان نقول انه بواسطة هذه السرايا كان الرسول على علم تام بنيات اعدائه وتدبيرهم للقتال ، وفي هذه السرايا وخاصة سرية نخلة نجد شيئا هاما هو سرية توجيه جماعة الكشف والاستطلاع وهذا ما تفعله الجيوش العسكرية وقد بعث الرسول (ص) عبدالله بن جحش قبل اربعة عشر قرنا تقريبا ومعه كتاب يجب ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين وذلك ليجهل كل فرد في المدينة الى اين يقصد عبدالله بن جحش فلا يكتب بهذا لقريش .

ثم لا بد من الاشارة الى ادراكه العمل وأهميته على خطوط المواصلات والتموين والتجارة ، وأول ما يبدي هذه الحقيقة نراه واضحا من السرايا التي بعث بها الرسول (ص) فهو بحكم موقع المدينة الجغرافي كان يقف على الطريق بين مكة والشام وهو خط مواصلات قريش وتموينها ، وبهذا استطاع ان يهدد أهم مصدر من مصادر رزقها وتجارتها وقوتها المادية .

ولقد كان الرسول دوما يحتفظ بالفرض ويبحث دائما عن العدو الاساسي وضربه الضربة الحاسمة ، فلقد شغلت قريش كل تفكيره ، ولم يتركها لحظة واحدة هادئة تفكر او تعمل على خداعه ومفاجأته ، ونلاحظ هنا ان نقاطا هامة لا بد من ذكرها نتيجة دراسة هذه السرية :

أولا : كانت سرية نخلة السبب المباشر لغزوة بدر الكبرى حيث كانت اول أول مرة يهجم فيها المسلمون على المشركين بالقتل والاسر والنهب كما ان الحملات العسكرية للسرايا كان لها تأثير على موقف المسلمين حيث انتزعوا زمام المبادرة في القتال واصبحت قريش في موقع الدفاع بدلا من الهجوم •

ثانيا : ومما لا شك فيه ان الرسول كان يدرك تمام الادراك لما لهذه السرايا من تأثير في تدريب الرجال على القتال والاستعداد المستقبل المنتظر كما انها كانت دافعا للمسلمين بشدة في وجه الكفار ومقاتلتهم كأنهم الند للند وفي مستوى واحد وليسوا أقل منهم قوة وخبرة في القتال وكذلك فان الغنيمة التي نالها المشتركون في السرية دفعت المسلمين للذهاب مع الرسول لأخذ القافلة التي كانت مع ابي سفيان قبل بدر ، مما أدى الى ان يكون جيش الرسول يوم بدر أكبر بكثير من السرايا التي خرجت قبل ذلك الجيش مما أفسح المجال امام هذا الجيش ان ينتصر في بدر •

ثالثا : هناك غرض هام للرسول (ص) هو اضعاف قريش ماديا ومعنويا وكسر حدة المكيين ومعنوياتهم ، ولقد ادرك القرشيون ذلك ، ولكن من الصعب علينا ان نتصور كم كان طموح محمد (ص) آنذاك ، ناهيك عن ان الكسب المادي لعب دورا هاما في مساعدة الدولة ، وان التنظيم الجديد كان بحاجة للمال لمساعدته في ادارة المسؤوليات المترتبة عليه •

رابعا : لقد استطاع المسلمون ان يعرفوا من يؤيدهم من أهل المدينة ومن يقف ضدهم حتى ولو بالدعاية وليس بالقتال ، وكان لهذا أثره في المستقبل في غزوة الخندق حيث استطاع الرسول ان يعرف من الذي

يقف الى جانبه اثناء الحصار ومن يقف على الحياد ، ومن من المحتمل ان يساعد اعداءه ضده •

خامسا : كان للصدى الذي نشأ عن خرق الاشهر الحرم نتيجـة عكسية بالنسبة لقريش فقد اطلعت القبائل العربية على أسباب ذلك الخرق وعرفت ان هناك أصحاب حق يطالبون ببلدهم وأموالهم في مكة • وتعرفوا على الأسباب التي دفعت هؤلاء المسلمين للخروج من بلدهم وترك أموالهم وعيالهم لكفار قريش تتسامع الناس بالدين الجديد وتساءلوا عن امكانية انتشاره وعن امكانية كونه الدين السليم •

سادسا : ايقاف عادة من عادات الجاهلية وهي التوقف عن القتال في الاشهر الحرم . وذلك بعد نزول الآيـة للقتـال في الشهر الحرام ، وكانت هذه بدايـة نزع عادات الجاهليـة التي تأصلت في النفـوس وخاصة في نفوس المسلمين ثم تلاها غيرها من العادات كالخمر والميسر والانصاب والازلام •

سابعا : توسعت سيطرة المسلمين في الجزيرة العربية حتى وصلوا الى حدود حرم مكة ، وهذا يعني تهديد قريش في عقر دارها ، وتحـول المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم • ثم ظهور ظاهرة الضبط العسكري والتقيد بالأوامر وهذه صفـة لم يألفها العرب المقاتلون سابقا •

وكلمة أخيرة لا بد من الاشارة اليها وهي ان الدعوة الجديدة كانت مفترق طريق بين مكة والمدينة حيث جعلت الفريقين يتناظران بأسا وقوة ، فقد أصبح المسلمون يفكرون جديا في استخلاص ما فقدوه في مكـة وتغير الوضـع جذريا هناك ، ذلك ان قريشا حاولت اثارة شبه الجزيرة كلها على محمد (ص) وأصحابه لأنهم قاتلوا في الشهر الحرام حتى لقد أيقن محمد انه لم يبق في مصالحتهم او الاتفاق معهم رجاء •

كما أوضحت لنا أحداث هذه السرية بكل جلاء حرص المسلمين على التمسك بتعاليم دينهم وعدم الخروج عنها ولو كان في ذلك كسب وغنيمة وهذا ما يفسر لنـا امتناع الرسول من أخذ العير والاسيرين من ناحية وتعنيف بقية المسلمين لعبدالله بن جحش وأصحابه من ناحية اخرى ·

الفهرست

١ ـ مجمع اللغة ـ الوسيط ٤٣١/١ ، الجزء الاول ، عبد السلام هارون ١٩٦٠ م .

٢ ـ الرافعي ـ المصباح المنير ٣٧٤/١ ، المطبعة الاميرية . القاهرة ١٩٢٨ .
بطرس البستاني ـ محيط المحيط ٩٥٤/١ طبع سنة ١٨٦٧ م .

٣ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ المجلد ٣٨٣/١٤ . بيروت ـ لبنان .

٤ ـ نفس المصدر والصفحة .

٥ ـ ابن اسحق ـ سيرة النبي ـ المجلد ٣/٤ ص ١٠٢٨ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ابن حجر الاصابة ٣٥٣/١ القاهرة ١٩٣٩ .

٦ ـ الواقدي ـ المغازي ٧/١ ، بينما يذكر ابن سعد بأن جملة بعوث الرسول وسراياه كانت ثمانية وثلاثين فقط .
ابن سعد ـ الطبقات ـ المجلد الثاني / ٥ ـ ٦ دار صادر . بيروت ١٩٥٧ م .

٧ ـ نفس المصدر والصفحة .
الواقدي ـ المغازي ـ ٧/١ مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦ .

٨ ـ الواقدي ـ المغازي ١٩/١ ، ابن هشام ـ السيرة ـ المجلد الاول (٦٠ ـ ٥ ـ ٦) .
الطبري ـ تاريخ ٤١٠/٢ ، ابن اسحق ـ السيرة ـ المجلد الثاني ـ ٤٣٥

٩ ـ و ت ـ محمد في المدينة ص ٤ .
حيث يقول و ت ان السيد الرسول كان يريد كسر حدة المكيين وضرب تجارتهم وتهديدهم اقتصاديا ومعنويا . نفس الصفحة.

١٠ ـ اليعقوبي ـ تاريخ ٦٩/٢ ، ويشير هنا الى سرية حمزة على ساحل البحر ولقائها بأبي جهل وتدخل مجدي بن عمرو بينهم وانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن قتال .

١١ ـ و ت ـ محمد في المدينة ص ٢ .

١٢ ـ نفس المصدر والصفحة .

١٣ ـ ابن اسحق ـ السيرة ـ المجلد ١ ـ ٤٢٧/٢ ، ويذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى ـ المجلد الثاني /٦ « ان السرايا بدأت بعد

سبعة اشهر من الهجرة ، ويؤيد الطبري عن الواقدي هـذا التاريخ » الطبري ـ تاريخ ٢/٤٠٢ .
الواقدي ـ المغازي ٢/١ .

١٤ ـ ابن اسحق ـ السيرة ـ المجلد الثاني / ٣٣٢ . ابن قيم الجوزية ـ زاد المعاد ج ٢ / ٥٢ ـ ٥٣ .

١٥ ـ نخلة ـ وادي لهذيل على ليلتين من مكة ، وهناك نخلة الشامية وهي وادي فيه بستان ابن عامر وعنده يجتمع النخلتين اليمانيـة والشامية وهما من بطن مر ، ياقوت معجم البلدان ـ المجلد الخامس / ٢٧٧ .

١٦ ـ نص كتاب الرسول : « اذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارها»
محمد حميد الله ـ الوثائق السياسية ـ وثيقة رقم ٣ ـ ٤٩، اليعقوبي ـ تاريخ ٢/٦٩ ـ ٧٠ .

١٧ ـ اليعقوبي ـ تاريخ ٢/٤٥ .

١٨ ـ الواقدي ـ المغازي ٢/١ .

١٩ ـ و ت ـ محمد في المدينة ص ٢ .

٢٠ ـ اليعقوبي ـ تاريخ ٢/٤٩ .

٢١ ـ و ت ـ محمد في المدينة ص ٢ .

٢٢ ـ اذن الله لمحمد بالقتال لاثنتى عشرة ليلة من صفر في السنة الثانية للهجرة ، وكانت أول آية انزلت في القتال : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » وقد نزلت في المدينة في الوقت الآليق للقتال لانه لو فرض الجهاد على المسلمين وهم قلة في مكة لما قامت للمسلمين قائمة .
سورة الحج ـ الآية رقم ٣٩ ، عبد الباقي ـ المعجم المفهـرس صفحة رقم ٢٥ ،

ابن كثير ـ تفسير القرآن الكريم العظيم جـ ٣ ٢٢٤١ .

٢٣ ـ الطبرى ـ تاريـخ ٢ / ٤١٠ ، البلاذرى ـ الانسـاب ١ / ٣٧١ ، الواقدى ، المغازى ١ / ١٣ ، ابن كثير ، السيرة ٢ / ٣٧٠ ، ابن سعد ، الطبقات ٢ / ١٠ .

٢٤ ـ هنا تختلف الروايات في عددهم ما بين ٨ ـ ١٢ . انظر اليعقوبي ـ تاريخ ٢ / ٢٦٩ ، الطبري ـ تاريخ ٢ / ٤١٠ ، ابن الاثير ـ الكامل ٢/١١٣ ، الواقدي ـ المغازي ١٩/١ .

٢٥ ــ نفس المصادر والصفحات .

٢٦ ــ محمد حميد الله ــ الوثائق السياسية ــ راجع ٣٩ ــ ٤٧ نص دستور المدينة .

٢٧ ــ الطبري ــ تاريخ ٢/٤١٠ ــ ٤١٥ ؛ ابن كثير السيرة ٢/٣٧٠ ــ ٣٧١. هذين المصدرين فقط هما اللذان اوردا ذكر عمار بن ياسر من بين الرهط . الواقدي ــ المغازي ١/١٩ .

٢٨ ــ ابن عبد البر ، الاستيعاب ٢/٢٦٤ ، ابن سعد ــ الطبقات ٣/٨٩ــ٩٠.

٢٩ ــ ابن الاثير ــ اسد الغابة ج ٢ / ٢٩٠ ــ ٢٩٣ .
ابن سعد ــ الطبقات ــ ج ٣ / ١٣٧ ــ ١٣٨ .

٣٠ ــ ابن الاثير ، اسد الغابة ج ٥ / ٧٩ ــ ٨٠ .
ابن سعد ــ الطبقات ج ٣ / ٣٩٠ .

٣١ ــ ابن حجر ــ الاصابة ، المجلد ٣/١١٣ ــ ١١٦ .
ابن الاثير ــ اسد الغابة ، المجلد ٣/٣٦٤ ــ ٣٦٥ .
ابن سعد ــ الطبقات ، المجلد ٣/٩٨ ــ ٩٩ .

٣٢ ــ ابن الاثير ــ اسد الغابة ج ٣ / ٨٠ ــ ٨١ .
ابن سعد ــ الطبقات ج ٣/٢٨٦ ــ ٣٨٧ .

٣٣ ــ ابن الاثير ــ اسد الغابة ج ٥ / ١٧٠ ــ ١٧١ .
ابن سعد ــ الطبقات ج ٣ / ٨٤ ــ ٨٥ .

٣٤ ــ ابن حجر ــ الاصابة ج ١ / ٤٠١ .
ابن الاثير ــ اسد الغابة ج ٢ / ٨٥ .
ابن سعد ــ الطبقات ج ٣ / ٣٨٩ .

٣٥ ــ ابن حجر ــ الاصابة ج ٢ / ١٠٩ ــ ١١٠ .
ابن سعد ــ الطبقات ج ٤ / ٢١٣ .

٣٦ ــ الغمرة : منهل من مناهل طريق مكة ومنزل من منازلها بين تهامة ونجد ، وقال ابن الفقيه : هي من اعمال المدينة على طريق نجد.
ياقوت ــ معجم البلدان ــ المجلد الرابع ــ ٢١٢ .

٣٧ ــ ابن سعد ــ الطبقات ــ ج ٣ / ٩٢ ــ ٩٣ .
ابن حجر ــ الاصابة ج ٢ / ٢٦٤ .

٣٨ ــ الواقدي ــ المغازي ج ١ / ١٣ .

٣٩ ــ الواقد ــ المغازي ج ١ ــ ١٥٢ وما بعدها .

٤٠ ــ ابن عبد البر ــ الاستيعاب ج ٢ / ٢٦٤ .

٤١ ـ قال ياقوت : خولان من مخاليف اليمن ، وخولان قرية كانت بقرب دمشق . فلعل الاديم الخولاني منسوب اليها . الاديم : الجلد.
ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٩٦ .

٤٢ ـ النجدية : من اعمال اليمامة وهو وادي اليمامة .
ياقوت ـ معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، الواقدي : المغازي جـ ١ ص ١٣ .

٤٣ ـ بئر ابن ضميرة : لم اجد في اي معجم او قاموس ما يشير اليه سوى ياقوت يقول : ان ضميران وادي بنجد من بطن قوّ .
ياقوت : معجم البلدان مجلد ٣ ص ٤٦٣ .

٤٤ ـ محمد حميد الله : الوثائق السياسية ، وثيقة ٣ / ٤٩ .

٤٥ ـ ابن هشام : السيرة ، مجلد ١ ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ ، الطبري ـ تاريخ جـ ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٥ .

٤٦ ـ الواقدي : المغازي جـ ١ ص ١٣ .

٤٧ ـ يقول الواقدي : بعث رسول الله (ص) اصحاب الرجيع عيونا الى مكة ليخبروه خبر قريش .
الواقدي : المغازي جـ ١ / ٣٥٤ .

٤٨ ـ نخلة : موضع على ليلة من مكة وهي التي ينسب اليها بطن نخلة وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن .
البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ص ١٣٠٤ ـ ١٣٠٥ .

٤٩ ـ وات : محمد في المدينة ص ٦ .
الواقدي : المغازي جـ ١ ص ١٣ .

٥٠ ـ انظر نص الكتاب ـ محمد حميد الله ـ الوثائق السياسية وثيقة رقم ٣ ص ٤٩ ، ويقول الواقدي : « ما امرتكم بالقتال في الشهر الحرام » . الواقدي : المغازي جـ ١ ص ١٦ ، ابن الاثير : اسد الغابة جـ ٥ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

٥١ ـ الطبري : تاريخ جـ ٢ ص ٤١١ ، الواقدي : المغازي ١٦/١ .

٥٢ ـ وات : محمد في المدينة ص ٧ .

٥٣ ـ اربعة اشهر اتفق العرب على تحريم القتال فيها هي : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، ولشهر رجب حرمة خاصة عندهم وخاصة عند قبائل مضر ، وان هذا التحريم كان حسب اعتقادهم مرده الى الآلهة التي أمرت به فهو تحريم بأمر الآلهة ، وهذا لا يكون بالطبع الا بوجود شريعة فيها حلال وحرام

وبوجود نواه ومباحات ، وهم يعظمون هذا الشهـر ويقيمون الولائم عند ظهور هلاله واغلبهم يؤدون العمرة في شهر رجب .
جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٥/٢٢٢ ، ٢٣٧،٢٢٩،٢٣٠ .
الآلوسي : بلوغ الارب ج ٣ / ٧١ .

٥٤ ـ يقول وات ان المدينة كانت أكثر تمسكا بالتقاليد الجاهلية القديمة من مكة بسبب وجود الديانات القديمة فيها . و ت / ص ٨ .

٥٥ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ط ٤٩/٤ .

٥٦ ـ قاتل الرسول المشركين بعد بدر في الاشهر الحرم ، لكن السرايا التي قاتلت في الاشهر الحرم بعد بدر ليس لها تأثير رجعي على شرعية سرية عبدالله ابن جحش . الواقدي : المغازي ج ١ ص ٥ ، ٦ ، ٧ .
كتاب وت / ٩ .

٥٧ ـ يثرب : اول من سكنها يثرب بن سام بن نوح وسميت باسمه ، وسميت كذلك مدينة الرسول لنزول الرسول فيها ، وتسمى كذلك عليه .
يا قوت : معجم البلدان ـ مجلد ٥ / ص ٤٣٠ .

٥٨ ـ نخلة : موضع على ليلة من مكة ، والحرم المكي قريب منها ، وهي من مشتملات مكة في الوقت الحاضر .
البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ١٣٠٤ ـ ١٣٠٥ .
الاصفهاني : بلاد العرب / ٣٢ .

٥٩ ـ اختلفت الروايات حول تاريخ الهجوم ، فالمسلمون يقولون في آخر ليلة من جمادي الآخرة واول ليلة من رجب ، لكن الارجح انه كان في رجب بدليل قول الرسول ما امرتكم بالقتال في الشهر الحرام ، ويؤكد ذلك أيضا من نص المحاورة التي حدثت بين رجال السرية قبل الهجوم .
الواقدي : المغازي ج ١ / ١٦ .
ابن كثير : السيرة ج ٢ / ٣٧١ ـ ٣٧٢ .
ابن هشام : السيرة ج ١ / ٦٠١ ـ ٦٠٥ .

٦٠ ـ ابن هشام : السيرة ج ١ / ١٤٠ ـ ١٠٨ .

٦١ ـ ثور : هو ثور الحمل ، وهو جبل بمكة الذي فيه غار النبي ، ويقال ان اهل المدينة لا يعرفون جبلا اسمه ثور ، وانما ثور بمكة .
البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ / ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

٦٢ ـ عسفان : قرية لبني المصطلق من خزاعة فيها كثرة الآبار ، وهي التي صلى فيها الرسول صلاة الخوف ، وهي قريبه من منطقه مر الظهران .
البكري : معجم ما استعجم ج ٣ ص ٩٤٢ ـ ٩٤٣ .

٦٣ ـ آمج ـ والأمج تعني العطش ـ بلد من اعراض المدينة قرب منطقة بني سليم .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٧ .

٦٤ ـ الخرار : ماء لبني ضمره ، ويقال وادي الحجاز ، يصب على الجحفة، اليه انتهت سرية سعد بن ابي وقاص ، وقيل موضع غدير خم يقال له الخرار .

٦٥ ـ الجداجد : ارض مستوية صلبة تقع في طريق الهجرة الى المدينة ، ويقال انها منطقة برا قديمة . ياقوت معجم البلدان ج ٢ /٢٧.

٦٦ ـ وادي العقيق : وادي بناحية المدينة فيه عيون ونخل .
ياقوت : معجم البلدان ـ المجلد ٤ / ١٢٩ .

٦٧ ـ الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب / ٦٧ ، ١٢٧ ـ كحالة جغرافية شبه جزيرة العرب ص ١٠ .

٦٨ ـ الفرع : قرية من قرى وادي نخلة جنوب المدينة بينها وبين المدينة ثمانية وهي عدة قرى اهلة بالسكان والطرق القديمة من المدينة الى مكة انما هي أعلى الفرع . ياقوت معجم البلدان مجلد ٤ / ٢٥٢ .

٦٩ ـ الحارة : وهي احدى قرى المدينة وهي الشرقية وفيها وقعت موقعة الحرة المشهورة ايام يزيد بن معاوية .
ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ٢٤٩ تحت مادة حرة واقم .

٧٠ ـ عشيرة : من ناحية ينبع بين مكة والمدينة .
ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٦ / ١٨١ .

٧١ ـ مر الظهران : موضع على مرحلة من مكة وهو وادي فيه عيون كثيرة ونخل . ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ / ١٠٤ .

٧٢ ـ جدة : بلد على ساحل بحر اليمن ، وهي فرضة مكة ، بينها وبين مكة ثلاث ليال . ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ / ١١٤ .

٧٣ ـ الاصفهاني ، بلاد العرب / ٣٧٥ .

٧٤ ـ نفس المصدر والصفحة .

٧٥ ـ لم أجد رغم بحثي في العادات العربية القديمة عن عادة حلق الراس سوى ما ذكره اليعقوبي بهذا الخصوص ، « انهم اذا نسكوا لم يخروا شعثا ولا ظفرا » وقد تكون هناك عادة عربية لحلق الراس لا نعرفها . اليعقوبي ـ تاريخ ـ ج ١ / ٢٥٦ .

٧٦ ـ ابن حوقل ، صورة الارض / ٣٠ .

٧٧ ـ المرحلة من ٦ ـ ٧ فراسخ . من مكة الى بستان ابن عامر مرحلة وحدة . من مكة الى المدينة عشرة مراحل .
المقدسي : احسن التقاسيم / ١٠٦ .

٧٨ ـ ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول / ٦٠١ ، الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ . الطبري ـ تاريخ ، ج ٢ / ٤١٠ ـ ٤١١ ، ابن اسحق، السيرة ٢ ص ٤٣٦ .

٧٩ ـ معدن : والمقصود هنا معدن بني سليم وهو معدن فرات وهو من اعمال المدينة على طريق نجد . ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ١٥٤ .

٨٠ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٦ ـ ١٧ ، الطبري ، تاريخ ج٢/٤١١

٨١ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ .

٨٢ ـ ابن هشام ، السيرة ج ١ ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ ، الطبري ، تاريخ ج ١ ص ٤١١ . الواقدي ، المغازي ج ١ / ١٤ .

٨٣ ـ وات ، محمد في المدينة ص ٦ .

٨٤ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٧ .

٨٥ ـ منطقة بني سليم في منطقة بحران ، والرسول غزا بنفسه بني سليم في بحران . الواقدي ، المغازي ج ١ ٣ ، ٨

٨٦ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ / ١٦ ، الطبري ، تاريخ ج٢ / ٤١٤ـ٤١٥

٨٧ ـ المليحة : اسم لجبل في غربي سلمى احد جبلي طي ، وبه آبار كثيرة وملح وقيل مليحة موضع من بلاد تميم . ياقوت ، معجم البلدان ٥ / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٨٨ ـ نوبة ، الجماعة ج ٣ ص٧٣٧ .
لسان العرب ، ج ٣ / ٧٣٧ .

٨٩ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٧ .

٩٠ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٣ ، البلاذري ج ١ ص٣٧١ ـ ٣٧٢ .

٩١ ـ بئر ابن ضميرة ، أشير اليها سابقا ص من البحث.

٩٢ ـ ابن هشام ، السيرة ج ١ ص ٦٠١ ،الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ـ ٤١٥ ، ابن كثير ، السيرة ج ٢ / ٣٦٧ ، الذي ذكر ان اسم الحضرمي هو عبد الله بن عباد الصدف .

٩٣ ـ الواقدي ـ المغازى ، ج ١ / ١٤ ، الطبرى ، تاريخ ، ج ٢ / ٤١٠ ـ ٤١٢ .

٩٤ ـ البلاذري ، الانساب ج ١ / ٣٧١ ـ ٣٧٢ ، ابن كثير ، السيرة ج ٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

٩٥ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ / ١٤ ، ابن كثير . السيرة ج ٢ / ٣٦٨ـ ٣٦٩ .

٩٦ ـ يقول اليعقوبي : « كانوا يشدون على انفسهم في دينهم ، فاذا انسكوا لم يسلاوا سمنا ولم يدخروا لنا ، ولم يحزوا شعرا ولا ظفرا » .
اليعقوبي ، تاريخ ، ج ١ / ٢٥٦ .

٩٧ ـ الثلاثة ، هم : عثمان بن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل والحكم بن كيسان حول هشام بن المغيرة . ابن هشام ، السيرة ج ٢ / ٦٠١ ، الطبري تاريخ ج ٢ / ٤١٠ ـ ٤١٥ .

٩٨ ـ محمد حميد الله ، الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٣ ص ٤٩ .

٩٩ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٦ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني ١١٣ ـ ١١٥ ، ابن هشام ، السيرة ج ٢ / ٦٠١ـ ٦٠٥ . البلاذري ، الانساب ـ ج ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

١٠٠ ـ يقول الواقدي : عند عودتهم من السرية كانت المدينة تفور فور المرجل . الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ١٦ .

١٠١ ـ الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٤ ، الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ـ ٤١٥ .

١٠٢ ـ وات ، محمد في المدينة ص ٨ .

١٠٣ ـ آية رقم ٢١٧ من سورة البقرة ، المعجم المفهرس .

١٠٤ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٥ ، ٦ . هناك سبع سرايا قاتلت في الاشهر الحرم بعد بدر ، ولكن لم يكن لها تأثير رجعي على سرية نخلة .

١٠٥ ـ آية رقم ٤١ من سورة الانفال ، المعجم المفهرس ص ٧٧٠ .

١٠٦ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٣٠ . ذكرنا عن المدينة في موضوع المخالفة .

١٠٧ ـ توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ٤٢٠ ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين .

١٠٨ ـ نفس المصدر والصفحة .

١٠٩ ـ ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٣٨ .

١١٠ ـ نفس المصدر ، ج ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٣ .
وات ، محمد في المدينة ، ص ٨ . الواقدي ، المغازي ، ج١ ص١٦ .

١١١ ـ المرباع : يقصد به ربع الغنيمة الذي كان يأخذه رئيس القبيلة في الجاهلية . الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٧ .
القاموس المحيط ، ج ٢٥/٣ . البلاذري ، الانساب ، ج ١٧٢/١ .

١١٢ ـ سورة الانفال . آية رقم ٤١ ، المعجم المفهرس ص ٧٧٠ .

١١٣ ـ ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول ص ٦٠٥ .

١١٤ ـ عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، آية رقم ٢١٧ ، سورة البقرة .

١١٥ ـ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٥ ٦٠ ، ٧ .

١١٦ ـ وات ، محمد في المدينة ، ص ٩ .

١١٧ ـ ذكر ياقوت الحموي عن ابن اسحق « ان بئر معونة بين ارض بني عامر وحرة بني سليم ، وقال كلا البلدين منها قريب ، الا انها الى حرة بني سليم أقرب . وقيل بئر معونة ماء لبني عامر بن صعصعة » وقال الواقدي : بئر معونة في ارض بني سليم وأرض بني كلاب ، وعندها كانت قصة الرجيع .
ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الاول ٣٠٢ .

١١٨ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٦٩ .
الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٠ ـ ٤١٥ .
الواقدي ، المغازي ج ١ ص ١٥ .

١١٩ ـ ابن هشام ، السيرة ، المجلد الاول ص ٦٠٤ .

١٢٠ ـ ابن هشام ، السيرة ج ٢ ص ٦٠٥ .

١٢١ ـ رواه ابن كثير عن ابن اسحق ، السيرة ج ٢ ص ٣٦٧ .

١٢٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٦٩ ، ابن هشام ، السيرة ، ج الاول ص ٦٠٥ .

أبو الريحان البيروني
دراسة حول نسبته وشخصيته

بقلم الدكتور جلال شوقي
جامعة القاهرة

البيروني أحد عمالقة علماء العصر الذهبي للحضارة العربية ، عاش في الفترة من عام ٣٦٢ هـ حتى عام ٤٤٣ هـ (٩٧٣ ــ ١٠٥١ م) ، وخلّف وراءه تراثا عربيا ضخما ، فلا عجب ان يصفه المستشرق الألماني ادوارد سخاو ــ الذي حقّق له بعضا من مؤلفاته ــ بأنه « أكبر عقلية ظهرت في التاريخ » .

هذا وقد وصفه مقدّم كتابه « الصيدنة في الطب » (١) قائلا :

« مما جمعه الحكيم الأجل ، الامام العلامة ، أفضل علماء المتقدمين والمتأخرين ، وأعظم فضلاء الرياضيين من الاسلاميين ومن قبلهم من الماضيين ، الاستاذ ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني « ولقد لقب البيروني أيضا ببرهان الحق » .

يروي عنه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري الحكيم (٢) أنه لم يكن ليترك من يده قلم ، أو يرفع بصره عن كتاب ، او يسمح لفكره أن ينشغل عن حل المسائل والمشكلات الا في يومين اثنين من العام هما يوم النيروز ويوم المهرجان ، وفيهما كان يؤمن ضروريات معيشته ، ويقال

---

(١) طبعة مؤسسة همدرد الوطنية بكراتشي بباكستان ، سنة ١٩٧٣ م .
(٢) صاحب كتابي « أخبار الحكماء » ، « نزهة الارواح وروضة الافراح » .

ان البيروني كان حتى قبل وفاته بلحظات يستخبر عن مسألة في الهندسة •

حقا ان عبقرية البيروني عبقرية جامعة ستظل خالـدة عبر العصور والأزمان ، وانك لتطالع تصانيفه فتجد فيها من الغزارة والشمول والمتعة والجدة والابتكار ، وكأنما توقفت عقارب الساعة منذ الف عام او يزيد •

ولقد اهتمت الاوساط العلمية في العالم أجمع شرقية وغربية بتراث البيروني • فعقدت مؤتمرات كثيرة لتخليـد أعماله وذكراه وصـدرت مجلدات تضم دراسات عن تصانيفه ، منها المجلد التذكاري الذي اصدرته عام ١٩٥٠ اكاديمية العلوم السوفيتية ، والمجلد التذكاري الذي أصدرته الجمعية الايرانية في كلكتا بالهنـد عام ١٩٥١ . ولعل أحدث مؤتمـر عُقد بمناسبة مرور الف سنة على مولد البيروني هو المؤتمر الدولـي الذي عقد في باكستان في الفترة من ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) حتى ١٢ كانون الاول (ديسمبر) من عام ١٩٧٣ ، وذلك تحت رعايـة حكومـة باكستان بالتعاون مع هيئة اليونسكو •

لا عجب أن يحظى أبو الريحان البيروني بهـذا الاهتمام البالـغ والتكريم الكبير ، ولقد أطلق الاتحاد السوفياتي اسمه على البلدة التي بها ولد ، وتقع حاليا في جنوب روسيا ، كما أقيم له تمثال في متحف جامعة موسكـو ، وسُميت جامعة طشقنـد بأوزبكستان باسمه تخليدا لـه وتعظيما وتقديرا •

ولقد جمع البيروني المعارف التي توصّل اليها المصريون والروم والرومان ، والهنود والسريان ، والفرس والعبرانيون حتى العصر الذي فيه عاش ، متبعا في ابحاثه ودراساته المنحى العلمي الذي تتبعه اليـوم ، فجاءت أعماله اضافة حقيقية لتراث الانسانية جمعاء ••

كان البيروني يصرّح دوما بأنه لا يعرف حقيقة نسبه ، وهو الذي أنشد في هذا المعنى يقول :

« وذاكرا في قوافي شعره حسبي   ولست والله حقـا عارفـا نسبي

اذ لست أعرف جدي حق معرفة   وكيف اعرف جدي اذ جهلت أبي »

وانه وان كان هناك تنازع بين كثير من الدول على نسبة البيروني ، اذ كل دولة تنسبه الى نفسها ، فان النسبة المنصفة له وللثراء الموسوعي الذي خلفه وراءه نهي نسبته الى الانسان الذي شرّفه الله وخلقه على صورته ، نسبته الى الانسان الذي فضّله الله على سائر مخلوقات الأرض وعلّمه الأسماء ، فصارت له حضارة بها يعرف ويتميز .

ترجمة البيروني

ويذكر البيروني عن نفسه أنه ولد في خوارزم شاه يوم الخميس ثالث ذي الحجة من العام الهجري ٣٦٢ الموافق الرابع من ايلول (سبتمبر) سنة ٩٧٣ م . ولم يوضح السبب في تسميته بالبيروني .

ولقد تعلم البيروني ـ بحكم نشأته في خوارزم ـ اللغة الخوارزمية وهي احدى لهجات اللغة الفارسية ، وقد كان البيروني ملما بلغات كثيرة كما يظهر ذلك في انتاجه الضخم ، فالى جانب الفارسية والعربية كان البيروني على دراية باللغات السنسكريتية ، والسريانية واليونانية والعبرية، وكان البيروني مسلما سني المذهب .

أمضى البيروني نشأته الاولى في خوارزم حيث عكف على الدرس والتحصيل لا سيما في مجال العلوم الطبيعية ، وما أن أتمّ مرحلة التحصيل هذه حتى التحق ببلاط الامير مأمون بن مأمون في خوارزم ، وكان البيروني محاطا بالاجلال والتكريم لعلمه وفضله ، وبقي في بلاط الامير حتى اجتاحت خوارزم تغيرات سياسية غير مواتية اضطر على أثرها سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) الى الهجرة الى جرجان حيث عكف على التأليف فأنهى كتابه : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (٣) مهديا اياه الى

---

(٣) كتاب يبحث في التقاويم والشهور عند مختلف الامم ، وقد تمّ تأليفه سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) .

حاكم جرجان قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي .

وفي حوالي عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) قفل البيروني راجعا الى خوارزم، وصار مستشارا في بلاط الامير مأمون لما كان قد وصل اليه في ذلك الوقت من المنزلة العلمية المرموقة . وأثناء اقامته هذه والتي امتدت لبضع سنين وضع البيروني كتابا ضمنه تاريخ خوارزم وتقاليدها وآثارها والأحداث التي عاصرها وكان شاهدا عليها .

وفي ربيع العام الهجري ٤٠٨ (١٠١٨ م) انتقل البيروني الى مدينة « غزنة » بناء على دعوة وجهها اليه السلطان محمود الغزنوي (٤) ، فكان دوما محل تقدير السلطان كما انه رافقه في أسفاره ورحلاته الى الهند ، وفي هذه الفترة اهتم البيروني بدراسة اللغة السنسكريتية ، كذا علوم الهند وأديانها ، وكان في كل ما قام بدراسته ذا فكر مفتوح ويعد البيروني اول من اشتغل بالدراسة المقارنة للاديان من علماء المسلمين خاصة وربما من علماء العالم عامة ، وقد خرج البيروني من دراساته هذه بكتابه: «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، وقد قام المستشرق كارل ادوارد سخاو (٥) بتحقيقه ونشره عام ١٩١٠ م .

وعندما اعتلى مسعود بن السلطان محمود الغزنوي العرش عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) أهدى اليه البيروني كتابه العظيم : « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » ، فما كان من السلطان مسعود الا ان خصص معاشا للبيروني ليعينه على تكريس بقية عمره للتأليف والدراسات العلمية ، ويروى ان السلطان مسعود سيّر الى البيروني حمل فيل من العملات الفضية مكافأة له على كتابه « القانون المسعودي » ، بيد أن

---

(٤) هو يمين الدولة سلطان محمود بن ناصر الدين سبكتكين ، امتدت فترة حكمه من عام ٩٧٠ حتى عام ١٠٣٠ م .

(٥) C. Edward Sachau : عاش في الفترة من سنة ١٨٤٥ حتى سنة ١٩٣٠ م .

البيروني ــ حسب ذات الرواية ــ قد رد هذا الحمل الى خزانة السلطنة شاكرا ومعتذرا عن قبولها ، وهذا السلوك هو ولا شك من شيم العلماء الصادقين •

ولقد عاصر البيروني تغيرات سياسية عصفت بآسيا الوسطى وافغانستان وايران وغيرها من البلدان المجاورة ، فانعكست بطبيعة الحال على مراحل حياته كذا على اهتماماته ودراساته ، فقد بدأ البيروني نشاطه الفكري في مجالي الرياضيات والفلك ، ثم ما لبث ان تحوّل اهتمامه الى دراسة التاريخ وحضارات الامم السابقة ، كما أنه اتجه في الفترة الأخيرة من حياته الى علم الضوء والطب والصيدنة والبيولوجيا وعلم التطور كذا الى دراسة الأحجار والفلزات •

امتد العمر بأبي الريحان البيروني حتى تعدى سن الثمانين (٨١ سنة هجرية أو حوالي ٧٨ سنة ميلادية) ، ويؤكد ذلك ما ذكره في مقدمة مصنفه : « كتاب الصيدنة في الطب » حيث يقول [٦] :

« وجميع ما أوردته فمحصل مما ذكرت ، والمتروك ما لم يحصل لي منه ، لئلا يحملني الجهل به على نقله من بابه الى باب آخر ، الانافة على الثمانين أفسدت من المتخيلة قوتيها العمليتين ، أعني المدمع والمسمع» •

انطفأت الشعلة المتوهجة حين توقفت حياة البيروني حوالي سنة ٤٤٣ هـ ــ (١٠٥١ م) ، ولا يعرف على وجه التحقيق مثواه الأخير ، الا ان نور علم البيروني لم يخب أبدا بالرغم من مرور مئات السنين على وفاته •

---

(٦) « كتاب الصيدنة في الطب » للبيروني ، تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور رانا احسان الهي ــ طبعة مؤسسة همدرد الوطنية ، كراتشي سنة ١٩٧٣ م ، الصفحة ١٥ .

اساتذته ومعاصروه

بدأ البيروني نشاطه العلمي مساعداً لأحد علماء النبات من اليونانيين ، حيث كان يجمع له البذور والنباتات والأزهار ، وكان البيروني دائم السؤال لاستاذه عما يجمع ، وقد تكون هذه المناسبة من الأسباب التي جعلت البيروني يهتم بدراسة اللغة اليونانية ودراسة علم النبات ، وأدت به في آخريات حياته الى وضع كتابه « الصيدنة في الطب » الذي أورد فيه مسميات الأعشاب والأدوية باللغة اليونانية الى جانب العربية وعدة لغات اخرى . وقد تتلمذ البيروني بعد ذلك على الحكيم عبد الصمد بن عبد الصمد الذي قتله فيما بعد السلطان محمود بن سبكتكين بعد اتهامه اياه بالخروج عن الدين ، ولقد صارت بين البيروني وبين استاذه عبدالصمد الفة ومودة وثيقتين ، وجمعهما حب العلم والمعرفة .

وما أن أتم البيروني العقد الثاني من عمره وسافر الى جرجان حتى التقى بالطبيب المنجم أبي سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني (٧) عالم الرياضيات والفلك فتأثر به أيما تأثر ، ويعد ابو سهل هذا الاستاذ الاول للبيروني ، كذلك أخذ البيروني العلم على يد أبي نصر منصور بن علي بن عراق (٨) مولى أمير المؤمنين القادر بالله (٩) ، وكان ابو نصر هذا قد تتلمذ بدوره على ابي الوفاء البوزجاني (١٠) العالم الرياضي والفلكي الشهير .

ولقد عاصر البيروني الشيخ الرئيس ابن سينا وكانت بينهما مناظرات ومراسلات كثيرة ، كما جمعتهما زمالة مجمع العلوم الذي أسسه أمير

---

(٧) توفي عام ٣٨٩/٣٩٠ هـ (٩٩٩/١٠٠٠ م) .

(٨) توفي قبل عام ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

(٩) امتدت خلافته من عام ٣٨١ هـ (٩٩١ م) حتى عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) .

(١٠) عاش في الفترة : ٣٢٨ ــ ٣٨٨ هـ (٩٤٠ ــ ٩٩٨ م) .

خوارزم مأمون بن مأمون ، وكان يزاملهما أيضا في نفس المجمع المؤرخ العربي ابن مسكويه (١١) صاحب كتاب « تجارب الأمم » •

التنازع على نسبته

ان الدرجة العلمية المرموقة التي وصل اليها البيروني بأعماله الخالدة قد جعلت دولا كثيرة تسعى جاهدة الى فضل نسبته اليها ، فلا عجب أن نرى كلا من جمهورية اوزبكستان (بالاتحاد السوفييتي) وايران وباكستان وتركيا تسوق الدلائل والبراهين على أحقيتها في انتماء البيروني اليها ، ونعرض فيما يلي لبعض ما ذكرته المصادر التاريخية عن نسبة البيروني •

(أ) الاتجاه الاول

يقول بعض المؤرخين العرب من أمثال ظهير الدين البيهقي ، وابن ابي أصيبعة وأحمد بن علي القلقشندي ، ان البيروني ينتسب الى « بيرون » على أنها مدينة في السند ، وقد نحى منحاهم ابو القاسم ابن حوقل (١٢) في كتابه « المسالك والممالك » ، واسماعيل بن علي ابو الفدا (١٣) في كتابه « تقويم البلدان » ، وحاجي خليفه (١٤) في كتابه « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » •

يقول الامام ظهير الدين علي بن زيد البيهقي في كتابه « تتمة صوان الحكمة » (١٥) الذي أتم تأليفه سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) :

---

(١١) توفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

(١٢) توفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) .

(١٣) توفي سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) .

(١٤) توفي سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م) .

(١٥) طبعة البنجاب ـ سنة ١٩٣٥ م ، صفحة ٦٣ .

« أبو ريحان البيروني من أجلّ المهندسين ، وقد سار في بلاد الهند أربعين سنة وصنّف كتبا كثيرة ، رأيت أكثرها بخطه .

وبيرون التي هي منشؤه ومولده بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ، ولا غرو فان الدرّ ساكن الهند .. » .

ويذكر ابن ابي اصيبعة (١٦) في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » (١٧) :

« هو الاستاذ ابو الريحان بن احمد البيروني ، منسوب الى بيرون ، وهي مدينة في السند » .

ويقول القلقشندي (١٨) في كتابه « صبح الأعشى في كتابة الانشا » (١٩) ومنها البيرون .

قال في « اللباب » : بكسر الباء الموحدة ، وسكون الباء آخر الحروف ، وضم الراء المهملة ، وبعدها واو ، ونون في الآخر ، وهي مدينة من أعمال الديبل بينها وبين المنصورة ، واقعة في الاقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في « القانون » (٢٠) : حيث الطول اربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

قال ابن سعيد :و هي من فرض بلاد السند التي عليها خليجهم المالح الخارج من بحر فارس .

---

(١٦) عاش في الفترة : ٦٠٠ — ٦٦٨ هـ (١٢٠٣ — ١٢٦٩ م) .

(١٧) طبعة مصر سنة ١٨٨٢ م ، صفحة ٣٠ .

(١٨) عاش في الفترة : ٧٥٦ — ٨٢١ هـ (١٣٥٥ — ١٤١٨ م) .

(١٩) طبعة مصر ، الجزء الخامس ، صفحة ٦٤ .

(٢٠) لعله يشير الى كتاب « القانون المسعودي » للبيروني .

قال في « العزيزي » ، وأهلها مسلمون ، ومنها الى المنصورة خمسة عشرة فرسخا [٢١] .

قال ابن سعيد : واليها ينسب أبو الريحان البيروني ، يعني صاحب « القانون » في أطول البلاد وعروضها .

ومنها المولتان .. وهي مدينة من السند فيما ذكره ابو الريحان البيروني ، وان كان ابن حوقل جعلها من الهند ، وعليه جرى في «مسالك الأبصار » ، لأن البيروني أقعد بذلك منه ، لأن السند بلاده ، فهو بها أخبر ، واقعة في الاقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

(ب) الاتجـاه الثاني :

نرى جماعة اخرى من المؤرخين العرب ان البيروني صفة مشتقة من كلمة « بيرون » ، وتعني في اللغة الفارسية خارج ، فتكون كلمة بيروني بمعنى من خارج أو ما نسميه « برّاني » ، باعتبار ان البيروني ولد بخوارزم وأقام في « خيوة » أو في « كاث » من ضواحي خوارزم ، فاعتبر من خارج البلد ، ولكن نسبته تكون في هذه الحالة أصلا الى خوارزم ، ومن هنا كانت حجة الفرس في نسبة ابي الريحان اليهم باعتبار أن منشأه في خوارزم وان أقام خارجها .

ويتجه بعض المؤرخين الى ان البيروني ينحدر من اسرة غير مشهورة كانت تشتغل بالتجارة ، ولعلها كانت تقيم خارج مدينة خوارزم كي تتخلص من الضرائب التي تفرض على البضائع عند مرورها الى داخل المدينة ، وان هذه الاقامة خارج المدينة قد تكون السبب في تسميته بالبيروني .

يقول عبدالكريم السمعاني [٢٢] في « كتاب الانساب » [٢٣] :

---

(٢١) الفرسخ = ١٢٠٠٠ ذراعا شرعيا ، أي حوالي ستة كيلومترات .
(٢٢) توفي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) .
(٢٣) طبعة لندن ، صفحة ٩٨ .

« البيروني بكسره الباء الموحدة ، وسكون الياء آخر الحروف ، وضمه الراء ، بعده الواو ، وفي آخرها النون •

هذا نسبة الى خارج خوارزم ، فان بها من يكون خارج البلد نفسها يقال له فلان بيروني » •

ويقول ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت الحموي [٢٤] في كتابه « معجم الأدباء » :

« محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ، وهذه النسبة معناها البراني ، لأن بيرون ــ وبالفارسية ــ معناه برا •

وسألت بعض الفضلاء من ذلك ، فزعم أن مقامه بخوارزم كان قليلا ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بعد الاسم ، كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريبا ، وأظنه يراد به ، الا أنه من أهل الرستاق [٢٥] ، يعني انه من خارج البلد » •

فان صح هذا الوصف انتسب البيروني الى خوارزم • ومن ثم تتنازع على نسبته بلاد فارس باعتبار ما مضى ، وجمهورية أوزبكستان في الاتحاد السوفيتي باعتبار الوضع الراهن ، حيث ان مدينة « كييف » عاصمة هذه الجمهورية تقوم على مدينة خوارزم القديمة •

وهناك من يعترض على هذا القول بدعوى ان علماء كثيرين ومعروفين قد عاشوا حول خوارزم أو في ضواحيها بيد أنهم لم ينعتوا بكلمة « بيروني » بمعنى برّاني ، اذ أن الوحيد الذي كان يتصف بهذا النعت هو أبو الريحان ، ومثيروا هذا الاعتراض يؤيدون في الاغلب ــ نسبة

---

(٢٤) هو ياقوت الرومي ، عاش في الفترة : ٥٧٤ ــ ٦٢٦ هـ (١١٧٨ ــ ١٢٢٩ م) •

(٢٥) كلمة « رستاق » تعني في اللغة الفارسية قرية .

البيروني الى ما جاء ذكره على لسان بعض المؤرخين خاصا بمدينة تدعى « بيرون » ، كما تقدم تفصيله ، الا أنه لم يتأكد بعد بالدليل الواقعي حقيقة وجود مثل هذه المدينة في الموقع الذي أشارت اليه بعض الروايات التاريخية .

(ج) الاتجـاه الثالث :

لما كانت عمليات التنقيب لم تسفر حتى يومنا هذا عن وجود مـا وصف بمدينة « بيرون » على بعد خمسة عشر فرسخا (٢٦) من المدينـة القديمة « المنصورة » ، فقد ظهر اتجـاه ثالث مؤداه أن كلمة بيرون قد تكون وصلت الينا محرفة في التنقيط ، وأنه ربما كانت صحتها كلمـة « نيرون » ، وهي مدينة ذكرها الادريسي (٢٧) ، وكانت موجودة في نفس الموقع الذي تقوم عليه حاليا مدينة « حيدر آباد » . وانه ان صح هذا الحدس لانتسب أبو الريحان البيروني لبلاد الباكستان .

(د) الاتجـاه الرابـع :

وهناك رواية اخرى جاءت على لسان جون برجز في كتابه عن قيام السلطة الاسلامية في الهند (٢٨) ، حيث ذكر كنية البيروني بصورة مختلفة من حيث التنقيط وان كانت محتفظة بنفس شكل الحروف ، فبدلا من « أبو الريحان » كتب اللفظ « أنوريخان » (Anvury Khan Khawarizmy) وبذلك أضفى على البيروني صفة تركستانية ، الا ان كلمة الخوارزمي تعيده الى نسبته الى خوارزم .

---

(٢٦) اي حوالي تسعين كيلومترا .

(٢٧) هو ابو عبدالله المعروف بالشريف الادريسي : عاش في الفترة : ٤٩٣ ــ ٥٦٥ هـ (١١٠٠ ــ ١١٧٠ م) ، وهو صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق) .

(٢٨) John Briggs: «History of the Rise of Mohammaden Power in India», Calcutta 1829, volume 1, page 113.

هذا ولا يخلو الأمر من اتجاه الأتراك الى نسبة البيروني اليهم باعتبار نفوذهم السابق على آسيا الوسطى •

شخصية البيروني واخلاقياته :

يتميز البيروني بشخصية علمية حقا بكل ما لهذه الشخصية من السمات الفاضلة التي نعرفها اليوم ، فقد كان البيروني يخضع كل ما يصل اليه من علوم ومعارف الى التفكير العميق المتحرر تماما من أي تعصب أو انقياد ، ولقد دفعه حبه الشديد للوقوف على حقائق الامور وكنهها الى الاشتغال المتواصل بالبحث ، لا تثنيه عن عزمه عقبة ، ولا ينال من حماسه عائق •

مارس البيروني النقد البناء لأعمال من سبقه من العلماء والمفكرين، كما لم يتوان عن النقد الذاتي لاعماله ، وكان مخلصا شديد الاخلاص لعلمه ، شجاعا في الحق ، فانه عندما كان غير متفهم للموضوع الذي كان يتصدى له ، أو كان ملما به بعض الالمام فحسب ، فانه ما كان ليتحرج البتة في التصريح بهذا النقص ، طالبا العفو عن هذا الجهل ، وواعدا القارىء ــ حتى بالرغم من تقدم البيروني في السن ــ بتقصي دقائق الموضوع ونشر نتائج دراسته عند تكاملها ، وهذا هو على وجه التحديد سلوك من يعي مسئولية العالم الباحث الذي يحس احساسا عميقا بكامل مسئوليته الأدبية والخلقية ، ويقدر الامانة العلمية حق قدرها •

هذا ولم يكن البيروني ليبخل بما تجمع لديه من علم ومعرفة في أمر من الأمور حتى ولو كانت حصيلته فيه ضحلة ، وكأنما كان يؤمن بالحكمة القائلة بأن العلم يزكو بنشره •

ويستشهد البيروني في مقدمة كتابه عن الهند (٢٩) بآي الذكر

(٢٩) كتاب البيروني : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة » ، طبعة لندن سنة ١٩١٠ م • صفحة ٤ .

الحكيم ، وذلك في معرض حديثه عن تقديس الحق ، والسعي الدائب وراءه ، والدفاع القوي عنه :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

(سورة النساء : الآية ١٣٥)

ويقول البيروني في مقدمة كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية »:

« وابتدىء فأقول ان أقرب الأسباب الى ما سألت هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية ، لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم .

ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات ، سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنّحل ، المستعملين لذلك،وتصيير ما همفيه أسّاً بعضهم لبعض ، بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك » .

ويقول البيروني أيضا في مقدمة كتابه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » :

« ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضايا التقليد ، باقتصارهم على الأوضاع الزيجية ، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل ، وطيهم عنهم كيفية ما أصلوه من أصل ، حتى أحوجوا المتأخر عنهم في بعضها الى استئناف التعليل ، وفي بعضها الى تكلّف الانتقاد والتضليل ، اذ كان خلد

فيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة ، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة .

وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله في صناعته من : تقبّل اجتهاد من تقدمه بالمنة ،

وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة ، فيه من مقادير الحركات ، وتخليد ما يلوح له فيها ، تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده .

وقرنت بكل عمل في كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ، ما يبعد به المتأمل عن تقليدي فيه ، ويفتتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه ، أو الاصلاح لما زللت عنه أو سهوت في حسابه » .

خلاصـــة

ان الشخصيات العظيمة في التاريخ لا شك انها مبعث شرف وفخر للامم التي اليها تنتمي ، فلا عجب أن نرى الأمم العريقة تحفو بعظمائها وتحرص على تأكيد نسبتهم اليها . من هذه الشخصيات الفذة التي عاشت في القرن الرابع الهجري ابو الريحـان البيروني . الـذي خلّف وراءه ما ينوف على مائة وثمانين تصنيفا في ألوان العلوم والمعارف المختلفـة ، ولقد أدّت ظروف نشأة البيروني وتنقلاته وتغير التبعية السياسية للبلدان التي فيها أقام الى قيام تنازع بين هذه الدول عليه ، وحرصها على اقامة الدليل على أحقيتها بانتمائه اليها ، وسعيها الى انشاء مراكز علمية واقامة تماثيل تحمل اسمه ، وعقد مؤتمرات ومهرجانات لتخليد ذكراه . ولقد أوردنا في هذا البحث الاتجاهات المختلفة حول نسبة البيروني . ذلـك العملاق الذي كان يتمتع بشخصية علمية مرموقة ، تؤثر الحق وترحب بالنقد . وتتفانى في طلب العلم والمعرفة . شخصيـة عظيمـة حقا جعلت البيروني أهلا لكل تقدير واجلال ، وهدفا للتنازع على الانتماء .

ومهما يكن من أمر الروايات المتعددة والاجتهادات المتباينة في نسبة البيروني ، فما من شك في انه الى الحضـارة الاسلامية العربيـة ينتمي وينتسب ، ففي كنفها نشأ وعلا ، ومن نبعها نهل وارتوى ، والى علمائها جلس وتعلم ، وعنهم أخذ وتكلم ، ومعهم تباحث وتراسل ، فهو منهم وبهم. والحضارة العربية به أولى وأحق ، مهما تعددت أسباب النزعات الاقليمية في نسبته اليها ، ومهما تباينت الدعاوى التي تساق تأكيدا لها ، فهو أبدا العالم العربي برهان الحق الاستاذ أبو الريحان البيروني أحد أقطاب العصر الذهبي للحضارة العربية .

مصادر البحث

(١) كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » لابي الريحان البيروني ،
نشره ادوارد سخاو في ليبزج عام ١٨٧٨ م . وترجمه الى الانجليزية ادوارد سخاو ونشره في لندن عام ١٨٧٩ م

طبعة سخاو الثانية مع شروح : ليبزج ، عام ١٩٢٣ .

(٢) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » لابي الريحان البيروني .
(يعرف أيضا بالعنوان المختصر : تاريخ الهند)
نشره ادوارد سخاو في لندن عام ١٨٨٧ م ،
ونشره مترجما الى الانجليزية في جزءين عام ١٨٨٨ م ، كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠ م ،
وطبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام ١٩٥٧م.
وظهرت طبعة نيودلهي (شاند وشركاه) عام ١٩٦٤ م .

(٣) كتاب « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » لابي الريحان البيروني .
دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن بالهند ، الجزء الاول عام ١٩٥٤ م ، والجزء الثاني عام ١٩٥٥ م ، والجزء الثالث عام ١٩٥٦ .

(٤) كتاب « الصيدنة في الطب » لابي الريحان البيروني .
تحقيق الحكيم محمد سعيد والدكتور رانا احسان الهي .
مؤسسة همدرد الوطنية ، كراتشي بالباكستان عام ١٩٧٣ م (صدر بمناسبة مرور ألف عام على مولد البيروني ، والاحتفال الدولي الذي أقيم بكراتشي في ديسمبر عام ١٩٧٣ م بهذه المناسبة) .

(٥) كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » لظهير الدين أبي الحسن البيهقي .
تحقيق محمد كردعلي — مطبعة الترقي بدمشق ، سنة ١٩٤٦ م
كتاب « تتمة صوان الحكمة » لظهير الدين أبي الحسن البيهقي .
تحقيق محمد شفيع ، طبعة لاهور ، سنة ١٣٥٠ ﻫ (١٩٣١ م) .

(٦) كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة .
طبعة القاهرة بتحقيق اوجست موللر ، سنة ١٢٩٩ ﻫ (١٨٨٢ م).

(٧) كتاب « صبح الاعشى في كتابة الانشا » لاحمد بن علي القلقشندي .
مطبعة بولاق ، القاهرة ، سنة ١٩٠٥ م .

(٨) كتاب « تقويم البلدان » لعماد الدين اسماعيل ابي الفـداء ،
طبعة باريس سنة ١٨٤٠ م بتحقيق دي سلان ورينود ــ اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .

(٩) كتاب « المسالك والممالك » لابي القاسم ابن حوقل ،
طبعة لندن ، سنة ١٨٧٠ ــ ١٨٩٣ م .

(١٠) كتاب « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » لمصطفى بن عبدالله الشهير بكاتب جلبي ، وبحاجي خليفة .
طبعة مصر ، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) .

(١١) كتاب « الانساب » لعبد الكريم بن ابي بكر السمعاني .
طبعة لندن ــ ليدن سنة ١٩١٢ م (سلسلة جب التذكارية) ، تقديم د.س. مارجوليوث . اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .

(١٢) كتاب « معجم الادباء » او « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » ، لشهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (او الرومي)
طبعة لندن (منشورات جب التذكارية ــ المجموعة السادسة) ، السنوات ١٩٢٣ ــ ١٩٢٦ م . تحقيق د . س . مارجوليوث في ٧ أجزاء ــ اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد .
طبعة القاهرة : تحقيق احمد فريد رفاعي ، السنـوات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٨ م .

(١٣) كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق » لابي عبدالله المعروف بالشريف الادريسي .
طبعة ليدن بتحقيق دي جوجي ، عام ١٨٨٦ م .
طبعة روما ، سنة ١٩٥٢ م .

14) **«History of the Rise of Mohammaden Power in India,»**
By John Briggs.
Calcutta, 1829.

الحركة الباطنية في شمال فارس وأثرها السياسي والمذهبي

الدكتورة فضيلة عبد الأمير الشامي
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة بغداد

الباطنية أو الاسماعيلية كما هو معروف حركة سياسية مذهبية تعتقد بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد . ولقد مرت هذه الدعوة بمرحلتين حتى استقامت على عودها . ففي المرحلة الاولى بدأت سرية كعادة جميع الحركات المناهضة للحكم حيث كان الدعاة يتخفون في ظل الحكم العباسي المسيطر آنذاك وهم في صومعتهم في سامية يعطون التعليمات والمبادىء لمريديهم وهؤلاء بدورهم ينقلونها الى الناس ليجمعوا بها انصارا ومؤيدين لهم ، ولكن هذه الحركة لم تستمر سرية هكذا اذ انتقلت الى المرحلة الثانية وهي العلنية بعد ان توطدت واستقرت فظهر الفاطميون على المسرح السياسي في مصر وشمال افريقية ، فنافسوا بذلك الخلافة العباسية منافسة كبيرة ، وذاع صيتهم وعلا في الآفاق . اذ انتشرت دعوتهم فشملت مناطق خارج مصر والشام والعراق وبلاد فارس . ففي العراق كان القرامطة وهم فرع من الاسماعيلية ، وفي بلاد فارس أي في المنطقة الشمالية بالذات في اصفهان وما يجاورها على وجه الاخص نشأت هذه الحركة التي هي مدار البحث بطورها الجديد وبفضل شخصية مهمة فيها لعبت دورا بارزا على تركيزها وتوسيعها في تلك الديار ، وهذه الشخصية ونحن بصددها شخصية الحسن الصباح الذي ظهر في أواخر

القرن الخامس للهجرة ، فأكمل بذلك ما بدأه الاسماعيليون من قبل.

ولقد ساعدت الظروف على ظهوره في هـذا القرن بالذات اذ كان السلاجقة يحكمون المنطقة الممتدة بين بلاد فارس والعراق وبلاد الشـام والأناضول . ومع سعة منطقتهم لكنهم كان ينقصهم الضبط وقوة الارادة، اضافة الى الضائقة الاقتصادية التي كانت مخيمة على المجتمع آنذاك ، حيث كثرت الضرائب وزاد الغلاء ، وعم الفقر في البلاد . ومن هنا نؤكد ان اغلب الثورات لا تقـوم الا بدافع العـوز والضيق الاقتصـادي المريـر .

ولقد كان التمزق المؤقت الذي حصـل في الدولـة السلجوقية [١] والاختلافات السياسية ، والتنافر على السلطة أبعد الاثر في تلك الحركة ، كما ان بعد بلاد فارس عن مركز الخلافة العباسية ، ثم وجود التشيـع فيها [٢] وانتشاره ساعد على قيام هذه الحركة الباطنية اذ قويت شوكتهم في عام ٤٩٤ هـ [٣] .

وقبل ان نخوض في بحثنا هذا عن كيفية بدء هذه الحركة وانتشارها يجب ان نعرف ونلم شيئا عن حياة الرجل الذي قاد الدعوة وتزعمها ، وعن صفاته والمؤثرات الخارجية التي لعبت دورا كبيرا في دفعه لتولي الزعامة للحركة الاسماعيلية ، وموطنه الاصلي مدينة مرو [٤] في بلاد ايران . اما نسبه فيعود الى الامام علي بن ابي طالب [٥] وقيل اصله من اليمن وينسب الى ملوك حمير القدماء [٦] كان قد نزح الى بلاد فارس من مدينة

(١) لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ١٤ .
(٢) طه شرف : الدولة النزارية ص ١٣ .
(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٠ .
(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١ ، تلبيس ابليس ص ١٠٧ .
(٥) احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٧ .
(٦) دائرة المعارف الاسلامية (مادة الحسن) .

الكوفة ، ولكن نظام الملك ينفرد في رأيه ان أهل طوس قانوا ان اجداده كانوا يفلحون الأرض في ديارهم [1] .

اما اسمه كاملا فهو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن الصباح الحميري ، ولكن تاريخ مولده فهو مجهول فقد قيل أنه ولد عام ٣٤٨ هـ أو في عام ٤٤٥ هـ او ٤٣٢ هـ . وعلى أية حال فانه ولد في حدود القرن الرابع الهجري كما هو متفق عليه فحمله والده وعمره اثني عشر سنة الى بـلاد فارس متجولا بين ربوعهـا حيث وصل بلاد فارس في مرو وتوطن بها .

ومما لا ريب فيه ان والده اهتم بتربيته تربية عالية حيث درسه العلوم المعروفة في زمانه ، وأوكل تثقيفه كما ذكر الموفق النيسابوري في مدينة نيسابور اذ اهتم بتأديبه كثيرا . ولما كبر تولى الكتابـة للرئيس عبد الرزاق بن سلام [2] كما اشتهر بالغنى والثروة .

والواقع ان الحسن يعد من أكبر الشخصيات العلمية التي عرفتهـا الدعوة الاسماعيلية ، اضافة الى خبرته السياسية والعسكرية ، حيث قدم للدعوة خدمات عديدة وضحى من أجلها في فترة تجاوزت الخامسـة والثلاثين عاما ، وفي ظل الدولة السلجوقية بالذات ، فخدم سلاطينها في البدايـة ، وأصبح أثيرا لدى السلطان السلجوقي ملكشاه فقربه وأكرمه . أما صفاته فكانت السيرة الحسنة النقية والشهامة . ويذكر ابن الاثير [3] انه كان عالما بالهندسة والحساب وعلم النجوم اضافة الى السحر وتنفيذ الافكار [4] وربما كان لانتمائه وهو حدث للدعوة [5] رسخت اخلاصه

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٧ .
(٣) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣١٦ .
(٤) غالب : اعلام الاسماعيلية ص ٢٨ .
(٥) براون : تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٨ .

لها ، كما كان الداعي الاسماعيلي الامير ضراب وابا نجم السراج ومؤمن لهم أكبر الاثر عليه ، حيث اصبح معتنقا المذهب الاسماعيلي بعد ان كان يدين بالمذهب الاثني عشري . وعلى ذكر اغلب المصادر فقد تثقف مع نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ومع الشاعر المتصوف عمر الخيام ، حيث تزاملوا وتوثقت أواصر الصلة بينهم وكان نظام الملك يكرمه لفضله [١] حيث ألحقه بخدمة السلطان ملكشاه فسما شأنه وازداد ماله [٢] .

ويجب ان لا ننسى اثر الداعي الاسماعيلي احمد بن عطاش عليه اذ كانت الدعوة الاسماعيلية منتشرة في بلاد فارس وكان لها دعاة بارزون وعلى رأسهم ابن عطاش الذي لعب دورا كبيرا في حياة الحسن الصباح وكان هذا ، كما يقول ابن الجوزي [٣] طبيبا أخذ ابوه في ايام طغرلبك لأجل مذهبه فأراد قتله فأظهر التوبة ومضى الى الري وصاحب النيسابوري وهو متقدمهم هناك ، وصاهره وصنف رسالة في الدعاء الى هذا المذهب سماها العقيقة ، ومات في سواد الري فمضى ولده الى هذه القلعة .

ومما نلاحظه ان الحسن توجه اليه بعد ان اصطدم بالسلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك فاجتمع بابن عطاش فرحب به ، والواقع ان ابن عطاش يعد من الدعاة المبرزين في الحركة الاسماعيلية سياسيا ومذهبيا ، فقد كان يقوم بالدعوة في اصفهان واذربيجان حيث توجه الى الري ثم استولى على حصن دزكوه المجاورة لاصفهان ويسمى حاليا شاهدز فحكمها قرابة اثني عشرة سنة .

اما كيف اصبحت القلعة في يد ابن عطاش فتروي المصادر وأهمها لابن جوزي [٤] في روايته التي مردها ان حافظا تركيا صادقه نجار

---

(١) القزويني آثار البلاد ص ٣٠١ .
(٢) عنان : تاريخ الجمعيات السرية ص ٤٥ .
(٣) المنتظم : ج ٩ ص ١٥٠ .
(٤) نفس المصدر ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

باطني واهدى له جارية وفرسا ومركبا ، فوثق به واستنابه في حفل المفاتيح فاستدعى النجار ثلاثين رجلا من اصحاب ابن عطاش وعمل دعوة ودعا اليها التركي وأصحابه وسقاهم الخمر فلما سكروا دفع الثلاثين بالحبال اليه وسلم اليه القلعة ، فقتلوا جماعة من اصحاب التركي وسلم وحده فهرب وصارت القلعة بحكم ابن عطاش •

اما بناء هذه القلعة فكما ذكر ان جلال الدولة ملكشاه هو الذي بناها • وهناك رواية طريفة حول سبب بنائها فتقول انه ورد على السلطان ملكشاه بعض متقدمي الروم وأظهر الاسلام فخرج معه في بعض الايام للصيد فهرب منه كلب معروف بجودة العدو الى الجبل ، فصعد السلطان وراءه وطاف في الجبل حتى وجده فقال له ابن الرومي : لو كان هذا الجبل عندنا لبنينا عليه قلعة ينتفع عليها ، ويبقى ذكرها فثبت هذا الكلام في قلبه فبناها وانفق عليها الف الف ومائتي الف دينار [1] •

وبعد بنائها عين عليها السلطان ملكشاه احد دعاته المسمى دزدارا الذي بقي يحكمها طيلة حياته • وبعد وفاته أزيل الدزدارا وانتقلت القلعة الى شخص ديلمي يسمى زيار في عهد خليفة ملكشاه ومالكة اصبهان بعده (خاتون) ثم تملكها من بعده شخص خوزي (أي من خوزستان) • ويرد ابن الاثير [2] ان احمد بن عطاش داعي الباطنية اتصل به • وكان احمد هذا قد جمع اعدادا كبيرة من الباطنية حيث ألبسوه تاجا ، وجمعوا له اموالا وقدموه عليهم ، لأن اباه كان مقدما فيهم • وقد وثق به الدزدارا وقلده الامور • ومع ذلك نجد ان ابن عطاش سرعان ما يستولي على القلعة ويجعلها تحت سطوته حتى سقوطها بيد السلطان محمد ملكشاه الذي اهتم بأمر الباطنية ورعاها فنزل بهذه القلعة وحاصرها

---

(١) انظر ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣١٦ .

سنة كاملة حتى اذعنوا له بعد ان قتل رئيسها احمد بن عطاش مع ابنه الذي نقل رأسه بعدئذ مع رأس ابنه الى بغداد عام ٥٠٠ هـ [١] .

اما علاقته بالحسن بن الصباح فمما لا شك فيه ان ابن عطاش كان ذا اثر كبير على توجيه الحسن نحو الدعوة فكان الحسن من خيرة تلاميذه اذ حينما قدم الحسن اليه من الري اعجب به كثيرا حيث ارسله الى اصفهان ينشر الدعوة فيها موكلا لابن عطاش [٢] لأنه اتخذه فيما بعد مساعدا له وداعيا اسماعيليا موثقا به في تلك الديار .

علاقة الحسن بالوزير السلجوقي نظام الملك

اما علاقة الحسن بالوزير نظام الملك فكما يروى ان الحسن كان من اقران نظام الملك [٣] وزير السلطان الب ارسلان السلجوقي وابنه ملكشاه واللذان يعدان من كبار ملوك السلاجقة قاطبة وأشهرهم آنذاك كما ان نظـام الملك كان يكرمه ويقدره . ويعد نظام الملك من اولاد الدهاقين في بلاد فارس [٤] وقد اهتم بالعلم فأنشأ المدارس والكليات والرباطات والمساجد والمارستانات باسم السلطان ملكشاه حيث كان مفضلا لديه [٥].

ويروي لويس [٦] ان نظام الملك والحسن بن الصبـاح وعمـر الخيام كانوا تلاميذ لاستاذ واحد فتعاهدوا على ابقاء الزمالة فيما بعد ، وقد رضي نظام الملك على ما تعاهدوا عليه اذ منح بعد تسنمه الوزارة عمر الخيـام راتبا سنويا ضخما طيلة حياته . اما الحسن فقد عرض عليـه

---

(١) المصدر السابق .
(٢) براون : تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٩ .
(٣) سيد امير علي : روح الاسلام ج ٢ ص ٢٢٨ .
(٤) ونظام الملك هو الحسن بن اسحاق بن العباس الوزير ابو علي الطوسي المولود عام ٤٨٠ هـ في مدينة طوس .
(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٩٨ .
(٦) الدعوة الاسلامية الجديدة ص ٥٣ .

احدى الولايات الاسلامية لكنه رفض وطلب ان يدخل في خدمة السلطان، فاختلف الزميلان وحصل التنافس بينهما .

اما أسباب هذا الخلاف فهناك روايات متضاربة بصدده فقد قيل ان الحسن كان قد تقرب الى السلطان ملكشاه فرحب به واعتمد عليه وأصبح يستشيره مما أثار ضغينة الوزير نظام الملك [١] . ولكن هناك رواية مردها ان نظام الملك كان قد اساء الحسن اليه من قبل لما كان يعقده من اجتماعات مع دعاة الباطنية [٢] الموفدين من مصر . ورواية تقول ان الحسن كان مرشحا للوزارة ولهذا اختلف معه نظام الملك وتآمر عليه وتمكن بطريق الدس ان يحط من شأنه لدى السلطان السلجوقي ، غير أن هناك من يقول ان الاختلاف المذهبي بينهما يعد سببا للخلاف . ومهما تضاربت الروايات فالنتيجة ان السلطان انقلب وتغير على الحسن وطرده من ملكه ثم من خارج البلاد ايضا فتوجه بعدها الى مصر مركز الدعوة الفاطمية .

اما نظام الملك فانه بقي حاقدا على الباطنية جميعا ولم يعش بعد عزل الحسن طويلا اذ توجه السلطان ملكشاه من اصفهان الى بغداد

---

(١) يقول مصطفى غالب ان السلطان اوعز الى الحسن ان ينظم سجلا جامعا للموازنة في الدولة في مدة اقصاها اربعون يوما فتآمر نظام الملك مع احد غلمان الحسن فقلبوا السجل بعد انجازه بالمدة المحددة راسا على عقب ، ولما عرض السجل على السلطان طلب من الحسن حساب احدى الولايات فضاق صدر السلطان عندما اغتنم نظام الملك الفرصة ودس على الحسن فأمر السلطان بالقبض عليه فتمكن من الفرار وتوجه الى الري . اعلام الاسماعيلية ص ٢٢٣ .

(٢) يروي ابن الاثير ان رئيس الري ابو مسلم صهر نظام الملك اتهم الحسن بدخول جماعة من دعاة المصريين عليه فخافه ابن الصباح وكان نظام الملك يكرمه وقال له يوما من طريق الفراسة : عن قريب يضل هذا الرجل ضعفاء العوام . فلما هرب الحسن من ابي مسلم طلبه فلم يدركه . الكامل ج ١٠ ص ٣١٦ .

معولا على قصد مصر لتملكها فلما وصل الى همدان وثب رجل ديلمي من الباطنية على وزيره « خواجة بزرك نظام الملك » فقتله وهرب ساعته فلم يوجد له أثر (١) .

ومما لا شك فيه ان نظام الملك كان يوصف بالعدل والاحسان ، وقد أسف السلطان وتألم جدا عليه . والواقع ان مقتله جاء على رجل باطني يدعى طاهر أو هو كما قيل ابن واعظ سبق ان شغل عدة مناصب دينية ارسله الحسن خصيصا لقتله (٢) وقو تزيا بزي أحد المساكين فأخرج خنجرا من طياة ملابسه طعنه بها طعنة قاتلة .

ولقد حدد مقتله حسب اغلب الروايات عام ٤٨٥ هـ (٣) ثم حاول في عام ٥٠٠ هـ ابن نظام الملك فخر الملك ووزيره السلطان سنجر ان يثأر لأبيه فهاجم قلاع الاسماعيلية ولكن الحسن ارسل اليه احد فدائيته فطعنه بطعنة خنجر .

وهكذا يعد مقتل نظام الملك اول حادثة اغتيال لشخصية سياسية لعبت دورها في الدولة السلجوقية حيث استفحل امرهم فيما بعد في اصفهان لا سيما بعد وفاة السلطان ملكشاه ونظام الملك وزيره . حيث اصبح فاتحة لعهد جديد اخذ الباطنيون بموجبه ينشرون الارهاب والعمل السري والعلني .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٢) ينفي براون بقوله ان تاج الملك الذي خلفه في الوزارة كان المحرض الحقيقي في ارتكاب هذه الجريمة التي ظنها البداية ستساعده على تثبيت مكانته وتقوية نفوذه ، ولكنها أدت في الحقيقة الى قتله هو بعد اربعة شهور من قتل نظام الملك قتله جماعة من اتباع نظام الملك سنة ٤٨٦ هـ تاريخ الادب في ايران ص ٢٤٩ .

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٦ .

رحلة الحسن الى مصر واسبابها

من الملاحظ ان الحسن بعد طرده من البلاط السلجوقي توجه قاصدا مركز الدعوة الباطنية في مصر ، اما الأسباب التي دفعته للتوجه الى مصر دون غيرها فتتضارب الآراء حولها فهناك من يرى ان اخلاص الحسن للدولة وتفانيه لها دفعته الى السفر الى القاهرة ليطلع على اصول المذهب الاسماعيلي ويتبحر فيه . وهنا من يرى ان الحسن بعدما اخفق في تحقيق اطماعه في بلاط السلطان ملكشاه رحل الى بلاط الخلافة في القاهرة حيث اطلع على اسرار المحفل الاكبر . كما ان من يرى ان ابن عطاش رئيس الدعوة في فارس هو الذي حرض الحسن على الذهاب الى مصر ليستزيد من علوم المذهب الاسماعيلي ويقضي شئون الدعوة العملية من ينبوعها الاساسي ، كما ان رأيا يرى ان ابن عطاش أمره بالذهاب ليحضى بمقابلة الامام المستنصر ، وقيل ان السلطان في الري اتهمه بايواء العملاء المصريين حيث هرب لينجو من القاء القبض عليه متوجها الى مصر . ولكن الواقع يؤكد ان الحسن لم يدخل الى مصر الا للاطلاع على اصول المذهب الباطني من ينبوعها . ومما يؤكد ذلك دخوله دار الحكمة متفقها فيها ومتعمقا في دراسة المذهب الاسماعيلي وغيره من مجالس الدعوة في القاهرة لكون المذهب يعتمد على السرية المطلقة .

وقبل ذهاب الحسن الى مصر تجول في بلاد فارس مجتازا طريق اذربيجان وميافارقين [1] ، وبزي تاجر ينشر الدعوة فيها ثم مر في طريقه بالموصل وسنجار وسورية وهو خلال ذلك يلقي المحاضرات بين الناس . وحينما وصل حدود مصر سمع به أهاليها فاستقبله العامة باشتياق كبير اضافة الى رجال البلاد وذلك عام ٤٦١ هـ . وكان من مستقبليه

(١) يذكر لويس ان الحسن حينما وصل ميافارقين سرعان ما طرده قاضيها بسبب تأكيده ان الامام وحده فقط له الحق في تفسير الديانة . الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ٥٥ .

داعي الدعاة القزويني . ولما دخل على الخليفة الفاطمي المستنصر [1] بالله رحب به ترحيبا كبيرا وجعل له مجلسا للدعوة لمنزلته ولدوره في الدعوة ، كما أكرمه وقيل ان الخليفة افرد له دارا يسكنها طيلة مكوثه البلاد [2] ، وهذا يدل على علو شأنه لدى الدولة الفاطمية لكونه قطبا من اقطاب الدعوة الباطنية التي لها صلتها بالام القاهرة المعزية . ولأن مدارس القاهرة كانت ترسل الدعاة الى بلاد ايران وهي معقل الشيعة وانها تستقبل الكثير من الشخصيات المؤيدة كالكرماني والشيرازي وناصر خسرو ليتلقوا الدعوة فيها .

ومن هنا نستخلص ان الحسن لم يرحل الى مصر الا لتلقي الدعوة من دعاة المذهب ليعود داعية ورأسا فيهم [3] .

ويرد ابن الأثير [4] ان الحسن حينما وصل مصر دخل على المستنصر صاحبها فأكرمه وأعطاه مالا وأمره ان يدعو الناس الى امامته فقال له الحسن : من الامام بعدك ؟ فأشار الى ابنه نزار . (ونزار هو الابن الأكبر للامام المستنصر الذي يعد اولى بالامامة من غيره على عادة تعاليم الاسماعيلية التي تشترط في الامام ان يكون اكبر ابناء ابيه) [5] .

وعلى أية حال فقد بقي الحسن مخلصا للخليفة المستنصر حتى وفاته

---

(١) المستنصر بالله هو ابو تمام معد بن ابي الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام ، وكانت خلافته ستين سنة واربعة اشهر وكان عمره سبعا وستين سنة وهو الذي خطب له البساسيري في بغداد . ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) يرى فريق ان الخليفة المستنصر لم يقابل الحسن خلال وجوده في مصر .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١ .

(٤) الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .

(٥) محمد سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ٩١ .

عام ٤٨٧ هـ • ولقد جاوزت مدة بقائه في مصر ثمانية أشهر [(١)] تطلع خلالها على المحفل الاكبر • لكنه اصطدم بالقائد بدر الجمالي [(٢)] بسبب الخلافة، اذ عين المستعلى (ابو القاسم احمد المولود عام ٤٦٧ هـ وهو الابن الاصغر وخليفة المستنصر من بعده بدلاً من نزار الابن والــذي ناصره الحسن الصبــاح) •

ويقول المقريزي [(٣)] انه لما مات الخليفة المستنصر بالله ابو تميم معد ابن الامام الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله ابي علي منصور بأمر الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر الجمالي اذ جاء الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر ، فجاءوا اليه فاذا أخوهم احمد وهو اصغرهم قد جلس على سرير الخلافة فامتعضوا وشق عليهم وامرهم الافضل بتقبيل الارض وقال لهم : قبلوا الارض لمولانــا المستعلي بالله وبايعوه فهو الذي نص عليه الامام المستنصر بعد وفاتــه بالخلافة من بعده • فامتنعوا من ذلك ، وقال كل منهم ان اباه وعــــده بالخلافــة ، وقال نزار لو قطعت ما بايعت من اصغر مني سنــا وخط والدي عندي بأني ولي عهده وانا احضره ، وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى لا يدري به احد وتوجه الى الاسكندرية [(٤)] •

ومن هنا نرى ان الخلاف قد استفحل بين الحسن وبدر الجمالي ادى

---

(١) يرى لويس ان مدة بقاء الحسن في القاهرة بلغت الثلاث سنوات في الاول في القاهرة وبعدئذ في الاسكندرية . الدعوة الاسماعيلية ص ٥٥ .

(٢) قيل ان المستنصر كان يستكثر من العبيد حيث جعل التنافس والحروب بينهما مما اضطره الى الاستعانة برجال من بلاد الشام كان على راسهم بدر الجمالي وهو ارمني من اصل سوري حيث قتل الكثير من اهل الدولة واقــام بمصر هذا عددا من الارمن . جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٣٥ . وقيل ان بدر الجمالي هو والد زوجة المستعلى . طه شرف : الدولة النزارية ص ٥٤ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٣٥٦ .

(٤) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٥٦ .

بالاخير الى سجنه ثم اخراجه من البلاد نهائيا على ظهر سفينة الى افريقية حيث تحطمت في البحر وانقذ منها باعجوبة فنزل بلاد الشام وهو يدعو لنزار ثم في بغداد وخوزستان واصفهان التي تعد مركزا للاسماعيلية كما توجه الى كرمان وطبرستان ودامغان وقزوين ناشرا الدعوة فيها • كما دخل طاشغر وبلاد ما وراء النهر (١) •

اما نزار فانه هرب ايضا كما يروي الى الاسكندرية وبها القائد افتكين مولى أبيه فقام له بالامر ولقبه ناصر الدولة ، واخذ له البيعة على أهل البلد ويساعده ابن عمار قاضي الاسكندرية ، ولكن بدر الجمالي توجه الى الاسكندرية يحاصر قائدها لكن القائد افتكين هزمه الى القاهرة غير انه حشد له جيشا آخر ونازلها وافتتحها عنوة وقتل أعيان اهلها ، ثم قدم الافضل افتكين ونزار الى القاهرة فقتله المستعلى وبنى حائطا على أخيه نزار عام ٤٨٨ هـ (٢) •

استيلاء الحسن على قلعة آلموت

في الحقيقة ان الحسن الصباح حينما خرج من مصر هاربا الى بلاد فارس ثانية وهو يحمل فكرة الدعوة الى الخليفة الفاطمي الشرعي والمغتصب نزار ، وكل غرضه من ذلك تكوين دولة اسماعيلية جديدة ومنظمة تتركز فيها المبادىء الاسماعيلية ، وجعلها مركز اشعاع في باقي المناطق الاخرى لذا اخذ يسعى الى ذلك حيث استطاع وبجهود جبار

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣١٣ •

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٣ ، وهناك فريق يرى ان نزار هرب مع الحسن الى بلاد فارس مع ولده الذي لقبه الهادي بعد وفاته اعلام ص ١٢٥ ، ولكن صاحب تاريخ ذيل دمشق يذكر ان ابن نزار خرج من مصر الى خراسان الى بيت الصباح في قلعة آلموت واتصل اليهم واولد هذا الابن من بيت ابن الصباح ، ومات هناك وله ابن نص عليه ليس نزار بل محمد بن نزار . اعلام الاسماعيلية ص ١٢٨ ٩٠

ان يستولي على حصن منيع الا وهو الموت (١) فيجعلها قاعـدة له .

اما كيف تم له ذلك فيروي ابن الاثير (٢) ان الحسن حينما رأى قلعة الموت واختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم وطمع في اغوائهم ودعاهم في السر واظهر الزهد ولبس المسح فتبعه أكثر والعلـوي صاحب القلعـة حسن الظن به يجلس اليه يتبرك به فلما أحكم الحسن أمره وضل يوما علي العلوي بالقلعة فقال له : اين الحسن الصباح : أخرج من هذه القلعة . وهكذا اخرج منها الى الدامغان واعطـاه مالـه وملك القلعة وذلـك عـام ٤٨٣ ه (٣) .

وهناك من يري ان هذه القلعة كانت لقماج صاحب ملكشاه وكـان يستحفظها متهما بمذهب المقدم فأخذ الفا ومائتي دينار وسلم اليهـم القلعة (٤) . ومما لا ريب فيه ان الحسن حينما استولى على القلعة لـم يجد مقاومة تذكر اذ اهمل الناس شأنه واستفحل امرهم لانشغال أولاد ملكشاه بنفوسهم (٥) . وان كان والدهم ملكشاه قد ارسل حملة اليـه في حياته لكنها صدت من قبلهم ـ ومهما يكن من أمر فان الحسن استقر في هذه القلعة قرابة خمس وثلاثين عاما وهو يدعو الناس الى تعيين امام

---

(١) في اللغة الفارسية القديمة تسمى آلموت عش النسر وهو يقـع في احدى القلاع الجبلية المنيعة شمال ايران . احمد امين : روح الاسلام ج٢ ص ٢٢ . وآلموت تعد قلعة حصينة من ناحية رود بار من قزوين وبحر الخزر على قلعة جبل وهو لها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب قبل ان بعض ملوك الديلم ارسل عقابا على الصيد فقعد على موضع آلموت فرآه حصينا فبني عليه قلعة وسماها اله آموت ومعناها بلسان الديلم تعليم العقاب . ويقال : لذلك الموضع وما يجاورها الطالقان . ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢ في ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لانها كتبت في سنة ست واربعين واربعمائة وهي موت . القزويني : آثار العباد ص ٣٠١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ .

(٤) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

(٥) شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٠ .

صادق قائم في كل زمان وتمييز الفرقة [١] . كما ارسل مبعوثين الى منطقة الدامغان حيث سوعدوا هناك من قبل حاكم الدامغان مظفر الذي كان يدين بمذهب الاسماعيلية ثم علت منزلته بين قومه فلقب بشيخ الجبل كما اخذ باحتلال قلاع مجاورة لالموت منها حصن جردكوه (كردكوه) وقلعة طبس وقهقستان وسنسكوه وهي بقرب ابهر وقلعة خليجان وقلعة ازدهن ملكها ابو الفتوح ابن اخت الحسن وقلعة اشنبور وخلاوجان وخوزستان .

وهكذا اخذ ينشر للدعوة الباطنية في معظم بلاد فارس مستغلا النزاع بين اولاد السلطان محمد وأخيه بركيارق . ولقد حاول نظام الملك من قبل صد الباطنية لكنه سرعان ما قتل بأيديهم لذا أصبح المجال مفتوحا امام الحسن للعمل على ترسيخ دعائم الحركة في تلك الديار ، وقتل الامراء الأكابر غيلة فخافه الناس وعظم صيتهم [٢] .

غير أن الأحوال تبدلت اذ أخذ السلطان محمد بن ملكشاه يفكر بالقضاء عليهم بعد ان أحس بازدياد أثرهم لذا جهز نحوهم العساكر فحصرها [٣] ، لكن تلك العساكر كانت تبوء بالفشل اذ أرسل السلطان محمد قائده انوشتكين شيركو الى آلموت وأمده السلطان باعداد كبيرة من الجيش وحاصر القلعة فاستولى وهو في طريقه على قلاع عدة منها قلعة كلام وقلعة بيرة ثم توجه الى آلموت فحاصرها قرابة خمسة سنوات دون جدوى ولكن بعد وفاة السلطان محمد اضطر انوشتكين الى فك الحصار كما سير السلطان محمد ايضا اليها وزيره احمد بن نظام الملك لقتال الحسن ومن معه من الاسماعيلية ولكن الشتاء هجم عليهم فعادوا فاشلين [٤] واستمر هكذا الصراع بين السلاجقة والباطنية فترة

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٢ .
(٢) ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢٠ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣١٧ .
(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣١٨ .

كانت الغلبة لصالح الحسن كما ازدادت معنوية الباطنية خصوصا بعد وفاة السلطان محمد حيث نظموا امورهم ومضوا بعزيمة خارقة يثبتوا الدعوة لنزار دون أخيه المستعلى غير ان السلطان الجديد بركيارق اجتهد في تتبعهم وقتالهم (١) دون جدوى .

وهكذا نلاحظ ان السلاجقة مهما استعملوا من وسائل الشدة لكن الدعوة ثابتة في آلموت حوالي السبع السنين توفي بعدها الحسن بعمر بلغ التسعين مستخلفا اميد رودبار وكميابزرك اميد (٢) .

ولقد توسعت دعوتهم الى اصفهان نفسها وهي احدى عواصم الدولة السلجوقية (٣) فينقل مؤلفات الدعوة ومبادئها هناك وهم يدعون بامامة اسماعيل وبنيه من آل البيت .

اما خلفاؤه فقد اتجهوا الى سياسة متعصبة وقاموا بقتل امراء السلاجقة وبقي الصراع على أشده بينهما وقد قام جلال الدين منكبرتي ابن خوارزم شاه بمحاصرة آلموت لقتلهم بعض امرائه غيلة وضرب قلاعهم في خراسان (٤) .

ولقد انتهى حكمهم عام اربع وخمسين وستمائة للهجرة وكان عدد

---

(١) ابو الفداء : المختصر ج ١ ص ٢ (ويروي ان قلعة آلموت حوصرت من قبل السلطان السلجوقي حيث ارسل اليه السلطان رسولا يطالب الاستسلام ويدعوه بطاعته فنادى الحسن احد فدائيته وقال له : الق بنفسك من هذا البرج ففعل . وقال للثاني : اطعن نفسك بهذا الخنجر ففعل . فقال للرسول : اذهب وقل لمولاك انه لدي سبعون الف أمثال هؤلاء الذين يبذلون دمائهم في سبيل عقيدتهم) غالب . اعلام الاسماعيلية ص ٥ .

(٢) فضل الله الهمداني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥٨ (ويروى ان ابن الصباح كان له ولد اسمه ايضا الحسن فزعم انه معد ولد نزار ومن ثم طالب بالامامة) (دائرة المعارف الاسلامية مادة الحسن) .

(٣) العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٦١٤ .

(٤) عنان : تاريخ الحركات السرية ص ٥٢ .

ملوكهم ثمانية يذكرها الهمداني [1] وهم الحسن بن علي بن محمد الصباح الحميري وكيابزرك اميد وكان وهو والحسن داعيين ومحمد بزرك اميد ومحمد حسن وجلال الدين بن محمد بن حسن ركن الدين الذي ختمت به الدولة الاسماعيلية .

مبادىء دعوتـه

ومما لا شك فيه ان الحسن الصباح حينما اعتنق المذهب الاسماعيلي أو الباطني فانه تفانى في الاخلاص له اذ لم يزل عن مبادئها مطلقا وبقي ينشر تلك المبادىء في ربوع بلاد فارس وهو يتلقاها من مجالسها الاصلية الاساسية في القاهرة لذا نلاحظ ان الحسن لم يكن الا داعيا للفاطميين أي داعيا اسماعيليا وقد احترمته العامة فكانت تيمية باسم سيدنا . اما اتباعه فكانوا باسم الاسماعيلية او الالموتية مما يـدل على وجـود دعوتـه الاسماعيلية ليس الا ، وكانت تلك المبادىء تقـوم على تأويـل القرآن وتفسيره بقولهم لكل ظاهر باطن ، كما كانوا يقدسون الائمة باعتبارهم هم وحدهم الذين يقومون بتأويل القرآن وليس غيرهم [2] . وكان يترتب المذهب كما هي عادة السبعية الاسماعيلية على سبع درجات : داعي الدعاة وكبار الدعاة المساعدون والدعـاة ثم الرفاق واللاحقون والفدائيـون والمستجيبون .

وكان الحسن نفسه محافظا على سنن الدين والمذهب الاسماعيلي لا يبيح الخمر ولا الموسيقى في دائرة حكمه ويصفه اتباعه بنقاوة السيرة مستقيم حتى انه لم يتورع في قتل ابنه بتهمة الاشتراك في قتل احد الدعاة المخلصين كما قيل انه قتل ابنه الثاني لشربه الخمر سرا .

---

(١) جامع التواريخ ص ٢٥٨ .

(٢) يقول ابن الجوزي: كان الحسن يقول للمستجيب اذا كانت الازارقة والخوارج سمحوا بنفوسهم في قتال بني امية فما سبب بخلك بنفسك في نصرة امامك . تلبيس ابليس ص ١٠٧ .

أما بالنسبة لاساس الدعوة فان الحسن قسم مراتبها الى قسمين مراتب عالية ومراتب منخفضة فالمراتب العالية يتولاها اضافة الى الامام الداعي الكبير وتشمل على عدد من الدعاة يتولاها اضافة اليه في مقاطعات مختلفة ثم الدعاة العاديون او المساعدون •

اما المراتب المنخفضة فهي مرتبة الرفيق واللاحق والفدائي والمستجيب • والفدائية فرقة احدثها الحسن وانفردت بها الدعوة فتميزت عن غيرها اذ احتاج الصراع السياسي بينه وبين السلاجقة الى احداث فرقة فدائية غايتها الثأر والانتقام من الاعداء ، وباخلاص تام وعقيدة فيضحون بأنفسهم لأجل الدعوة مهما يكن [1] • كما احدث ايضا منصبا جديدا في الدعوة الا وهو منصب شيخ الجبل ، وكان الحسن يسمى بهذا اللقب •

ومن تعاليم دعوته قوله بالحق والباطل والصغير والكبير فيقول : ان في العالم حقا وباطلا ، وان علامة الحق هي الوحيدة وعلامة الباطل هي الكثرة ، وان الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الامام والرأي مع الفرقة المختلفة وهي مع رؤسائهم • وجعل الحق والباطل التشابه بينها من وجه والتمايز بينهما من وجه التضاد في الطرفين والترتب في احد الطرفين ميزانا يزن به جميع ما يتكلم به •

كما تقول الدعوة انه انشأ هذا الميزان من كلمة الشهادة وتركيبها من النفي والاثبات ، والنفي والاستثناء قال : فما هو مستحق النفي باطل وما هو مستحق الاثبات حق • كما ان كل كلمة تحتاج الى اثبات المعلم وان التوحيد هو التوحيد والنبوة معا حتى يكون توحيدا ، وان النبوة هي النبوة والامامة معا حتى تكون نبوة [2] •

ومن مبادئه ايضا انه لا بد من معلم معتمد صادق وان معرفة الباري

---

(١) يطلق البعض عليهم الحشيشية باعتبار ان الدعاة الباطنية كانوا يأكلون أوراق الحشيش يتخدروا فيقوموا باداء الواجب .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٣٥ .

يحتاج الى معلم صادق يجب تعيينه وتشخيصه ثم التعلم منه .

وهذا مما لا شك فيه ان الحسن الصباح اسهم في تأليف الكتب المذهبية وبها مبادىء الدعوة الباطنية والتي تعد مقدسة [1] لكنها فقدت جميعها عدا كتاب سركوشت سيدنا ومعناها تاريخ سيدنا . وكان يقوم بتثقيف الناس على اسس هذه الدعوة ومبادئها الفلسفية . ولقد افادت الدعوة منه الكثير حيث استطاع وبدهائه وبمقدرته الحربية والسياسية والفكرية ان ينشأ هذه الحركة في تلك الحصون المنيعة ثم توسيعها الى مناطق اخرى متعددة حيث ينال بذلك شهرة وصيتا لم تحصل لغيره من الدعاة المتأخرين حتى انتهت أخيرا بوفاته اولا ثم بتحطيم قلعته فيما بعد في عهد خلفائه ثانيا وزوالها من عالم الوجود .

(۱) ايفانوف : المرشد الى الادب الاسماعيلي ص ١٥ .